حمدي عبد الرحيم

# الدائرة السوداء

رواية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# الدائرة السوداء

## حمدي عبد الرحيم

## رواية

لمزيد من المعلومات عن الكرمة: facebook.com/alkarmabooks

حقوق النشر © حمدي عبد الرحيم ٢٠١٦
الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة
جميع الحقوق محفوظة. لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب
بأي طريقة من دون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

عبد الرحيم، حمدي.
الدائرة السوداء: رواية / حمدي عبد الرحيم – القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠١٧.
٢٧٢ ص، ٢٠ سم.
تدمك: 9789776467576
١ – القصص العربية.
أ – العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٣٢١٨ / ٢٠١٦

٢٤٦٨١٠٩٧٥٣١

فوتوغرافيا: سارة محمد ياسو
تصميم الغلاف: كريم آدم



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# 1

لم يكن ضابط أمن الدولة العقيد أشرف عاصم العمري من هؤلاء الذين يلتفتون إلى تبدل الفصول وتفتح الزهور، هذه أمور لا يستوعبها قلبه، لكنه في أعماق نفسه كان يضمر نوعًا من الامتنان لشهر أكتوبر على وجه التحديد.

هذا الامتنان يعتبره أشرف سرًّا مقدسًا يتعلق بكنزه السحري، وما كان كنزه سوى فحولته، إنها جيدة جدًّا على مدار العام، ولكنها، بشهادة زوجته بثينة، تتفجر بداية من شهر أكتوبر حتى شهر مايو؛ على مدار تلك الأشهر تكون فحولته شيئًا فوق سقف الخيال. هذا التقسيم لا يعني بحال من الأحوال أن فحولته تنكمش أو تتراجع في يونيو ويوليو وأغسطس وسبتمبر؛ في تلك الشهور تكون جيدة جدًّا فحسب، ولكن ينقصها زهو تألق الشتاء والربيع.

هناك كنز آخر لدى أشرف، إنه بثينة. هو يدللها كثيرًا ودائمًا، فهي عنده «بثينة» مرة، و«بوسي» مرات، و«بُسبُس» في لحظة بعينها، عندما تتفتح كلها له، حتى يشتهي أن يرتد جنينًا فيستقر ببطنها. لحظتها يهمس لها من أعماق قلبه:

.أحبكِ يا بُسبُس.

افتتان أشرف بامرأته وأم طفليه، وائل وزينب، جعله يفكر أحيانًا بطريقة خارجة عن سياقه العام. فبعد أن يحصل على الراحة التي ينشدها، يعقد ذراعيه خلف رأسه ويحدق في سقف حجرته وهو يسأل نفسه: «كيف ستكون الجنة؟».

يجيب عن سؤاله قائلًا: «لا أظن أن الجنة تمثل شيئًا أكثر من الرضا، وأنا راضٍ ومطمئن، إذن أنا أعيش الآن في الجنة، أو على الأقل أعيش في جنتي».

بثينة هي عمود خيمة جنة أشرف، كأنها خلقت حسب مواصفاته. هو يؤمن أنها خُلقتْ من أجله هو وليس لأي شيء آخر.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كما يحب أشرف بثينة فإنه يحب اسمه، «أشرف عاصم العمري»، ويحب اسمه أكثر عندما يتم اختصاره إلى «أشرف العمري». أما لحظة المتعة فتكون عندما يناديه أحدهم: «أشرف بك».

لحظة المتعة تلك تصبح لحظة شبق عند النداء عليه بـ«العمري بك».

هذا الشبق يصعد إلى ذروته عندما يسمع: «العمري باشا».

العمري مات فقيرًا مغمورًا، ثم جاء واحد من أحفاده ليرد إليه كرامتــه ويجعــل اســمه يتــردد فــي أفخــم القــاعات وأخطــر الاجتماعات.

اليوم هو السابع من شهر أكتوبر من العام ٢٠١٠. اليوم أكمل أشرف عامه الأربعين، عيد ميلاد يصادف ليلة الخميس مع بثينة!

لو كان لأشرف باشا قلب كقلوب البشر العاديين لانفجر من فرط السعادة.

بنهاية يوم العمل سيعود إلى منزله في منتجع «بيفرلي هيلز» بمدينة الشيخ زايد.

جهاز أمن الدولة خصص سيارة بسائقها لأشرف، شأنه شأن باقي ضباط الجهاز، لكن العمري باشا رفض هدية الجهاز بلباقة اشتهر بها. والده المقاول الشهير الحاج عاصم العمري كان قد خصص له أسطولًا من السيارات منذ التحق بكلية الشرطة. أشرف يحب قيادة سياراته بنفسه، بثينة أيضًا لها يد في هذا التفضيل، المرأة العاشقة تصنع خليطًا من عطرها وعطر زوجها وتعطر به مقاعد السيارات.

غادر أشرف مقر عمله بمدينة نصر، وصعد إلى سيارته «البي إم دبليو» ذات الستائر القرمزية التي اختارتها بثينة.

كم يبدو سعيدًا وهو فوق طريق المحور! إنه يجتر أحداث اليوم ويتوقف ملتذًا عند نجاحه مع ابن الكلب خلف حامد، رجل تافه في الستين من عمره حارض عمال مصنع الرخام الذي يعمل به

243 ... 0%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على الإضراب ليحصلوا على شيء تافه مثلهم، يقولون إن اسمه «بدل عدوى» أو «أخطار» أو «مرض»، أو شيء من هذا القبيل.

يُعَد العقيد أشرف من أصغر عقداء الشرطة، وهو أصغر ضابط نال رتبة عقيد في جهاز أمن الدولة. لقد حصل عليها قبل أن يبلغ الأربعين بثلاثة أشهر كاملة. هذه الأشياء مهمة جدًّا لأنها توضع في ملف الخدمة دليلًا على النبوغ والتفوق، ثم إن صانعي القرار يتوقفون جيدًا عند تلك النقاط، ومن يدري فقد تساعده ترقيته السريعة في أن يصبح يومًا وزيرًا للداخلية، «سيادة معالي الوزير العمري باشا»، اللّٰه، ما أعظمه من لقب!

مهارة العقيد أشرف وحنكته في تصريف الأمور جعلتهم في الجهاز يطلقون عليه لقب «الجوكر»، تشبيهًا له بلاعب كرة القدم الذي يجيد اللعب في كل المراكز. كانت إذا استعصت عليهم قضية أوكلوها إليه، ودائمًا كان عند حسن ظنهم.

كانت قضية خلف حامد من تلك القضايا التي يندبون لها أشرف باشا.

درس أشرف القضية، وتأكد أن خلف ليس عاملًا كغيره: لقد استطاع هذا الشيء أن يقنع ألفًا وخمسمائة عامل بالإضراب الكلي.

عرف أشرف بينه وبين نفسه أنه سينكل بخلف ويجعله عبرة لمن لا يعتبر، وذلك لأن سوء حظ خلف جعل شخصيته تجمع بين ثلاثة أمور لا يكره أشرف شيئًا قدر كرهه لها: خلف، أسود البشرة، وعضو نشط في «كفاية»، وصلب لا يلين.

انتقل أشرف بنفسه إلى مكان احتجاز خلف، وبدأ معه كما يبدأ عادة مع المتهمين، راح يعدد له بصوت هادئ مخاطر الإضراب على مستقبل البلد واقتصاده، خاصة أن البلد بلدنا ويحتاج لكل ساعة عمل ولكل نقطة عرق ولكل قرش ينتفع به أولادنا أو ندخره لأحفادنا.

سكت أشرف لكي يختبر وقع كلامه على خلف، ففوجئ بأن هذا



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشيء له منطق ويريد أن يفند كلام الباشا.

أشرف يضيق بهؤلاء لسبب بسيط ولكنه عميق جدًّا: لقد وقر في قلب أشرف أن هؤلاء مثل الذئاب لا يشبعون أبدًا، ثم إن الواحد منهم يشكو من عبء حكم المرأة التي يعلوها، ومع ذلك لا يقدِّر متاعب خمسة آلاف فرد يتحملون عبء حكم شعب عنيد يتجاوز عدده التسعين مليون إنسان.

مـن معتقـدات أشـرف الراسـخة أن الـذين قلوبهم علـى البلـد ويحمونـه فعلًا، عـددهم لـيس أكثـر مـن خمسـة آلاف، يتقدمهم بطبيعة الحال سيادة الرئيس، الذي لم يحصل على إجازة حقيقية منذ كان ملازمًا في القوات المسلحة.

أثناء مباشرة أشرف لأي تحقيق، تأتيه لحظة لا يعرف ميعادها، لكنـها تـأتي ولـو رغمًا عنـه، لحظـة كأنـها وحـي يوحـى إليـه، لا يسـتطيع لـه دفعًا، وقد جاءت اللحظة عندما رأى خلف يشيح بوجهه وعلى شفتيه ابتسامة تبدو ساخرة.

سلط أشرف عينيه على خلف وقال له:

. راتبك ألف وأربعمائة جنيه، وتتزعم إضرابًا من أجل مائة جنيه بدل مخاطر، ما قولك عندما تخسر الراتب كله ثم لن تفوز بالذي تضـرب مـن أجله؟ اسمع يا خلف، أنت تعاني عقدة نفسية من الفلوس، منذ خانتك زوجتك من أجلها مع حسن الجزار، وعندما هجرتك لكي تتزوج من حسن، رفضها حسن وزوَّجها من صبيه لأنه، كما قال، «يكره الحلال». اسمع يا خلف، المائة جنيه التي من أجلها عطلـت المصـنع الـذي يطعمـك أنت وعيالك، لن تعيـد لك كرامتك. كرامتك وضعتها أم عيالك تحت حذائها ولن تعود حتى ولو حصلت على ألف جنيه أو مليون جنيه زيادة على راتبك.

هذه هي المرة الأولى التي لا تثمر فيها معلومات أشرف المخزية، لقد قابلها خلف بهدوء وقال:

. كرامتي مصونة، هي التي فرطت في كرامتها، وبعد طلاقي لها لم تعد تعنيني في شيء.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أشرف ليس من هؤلاء الضباط الجهلاء الذين عندما يعجزون عن الحصول على اعتراف من المتهم يقومون بضربه أو كهربته أو غير ذلك من الوسائل.

تأكد أشرف من أن هذا الشيء الذي يُدعى خلف حامد يمثل خطورة قصوى على منظومة الأمن، ولذا فقد قرر أن يتعامل معه وفق «الخطة صفر»، تلك الخطة التي تعلمها من أستاذه، سيادة العميد محسن الخراط.

«الخطة صفر» تلزمه بثلاثة أمور: الأول، الحفاظ على حياة المتهم. الثاني، عدم ترك علامات تدل على تعرض المتهم لأي إيذاء بدني. الثالث، إطلاق سراح المتهم، ولكن بعد أن يكون قد فقد عقله تمامًا.

هش قصة خلف عن وجهه، وعاد يستمتع بالقيادة فوق المحور، إنه الآن يتوحد مع خليط بثينة العطري ومع ذوقها في اختيار ألوان المقاعد والستائر. ألوان ستائر بثينة قريبة من ألوان فساتينها، المرأة العاشقة تحاصره بأشيائها الفاتنة في كل وقت وفي أي مكان.

يهز رأسه هزات متتابعة لكي يطرد عن عينيه صورة جسد بثينة وهو يمرح فوق سريرهما العريض.

هو لا يحب الاستماع، أثناء القيادة، إلى القرآن أو الأغاني أو نشرات الأخبار. هو يحب سماع صوته هو، ولذا فإنه يحادث نفسه عن نفسه. ولكي لا يلفت نظر متطفل من متطفلي السيارات التي تمر به، فهو يضع سماعات هاتفه المحمول فوق أذنيه حتى يظهر بمظهر الذي يُجري اتصالًا مهمًّا ويراعي في الوقت ذاته قواعد المرور.

يحادث الباشا نفسه قائلًا: «أنا أشرف باشا ابن الحاج عاصم ابن الحاج العمري.

أنت يا حاج عاصم أعجوبة من أعاجيب الدنيا، إن كنتُ أنا راضيًا



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عن أحد إضافة إلى رضائي عن نفسي وعن بثينة، فأنا راضٍ عنك، بل أنا مفتون بك، لقد أورثتني أجمل صفاتك، النفسية والجسدية، ما أنا سوى صورة مصغرة وشابة منك.

بدأتَ يا أبي حياتك مثلك مثل أقرانك من فلاحي ريف الدلتا، غلام حصل على «الثقافة»، وهي شهادة تماثل الشهادة الإعدادية الآن، ثم لم تكمل تعليمك. أعتقد أن الصحيح هو أن والدك، جدي العمري الحبيب الغالي، قد عجز عن مواصلة طريق تعليم ابنه الخامس بين الذكور والثامن بين أفراد الأسرة. أظن أن كلامي صائب تمامًا، لأن كل أعمامي الأربعة وعماتي الثلاث، لم يكمل واحد منهم تعليمه. كان جدي، أو بالأحرى كانت ظروف جدي المالية لا تسمح له بأكثر من محو أمية أولاده وبناته، وهذا حرص جيد جدًّا عندما أضع في اعتباري أن هذا الجد، الذي جعلت أنا لاسمه مهابة، لم يكن أكثر من فلاح معدم لا يملك سوى فحولته وخصوبة زوجته. الذي يبهرني الآن هو وعي جدي بأهمية أن يكون أولاده وبناته من العارفين بالقراءة والكتابة. هل كشف الله حجب الغيب عن جدي وأخبره بأنه يجب عليه أن يعلم أولاده وبناته قدر ما يستطيع لكي يكونوا جاهزين لمواجهة أمور خطيرة قادمة؟

حصل أعمامي جميعًا على الشهادة الابتدائية. وعمل عمي الكبير، كامل، موظفًا صغيرًا في وزارة الأشغال، «الري» حاليًّا. ولحق به عمي الثاني، توفيق، وعمل على الميزان القباني في شونة غلال كان يمتلكها ثريٌّ من أثرياء المنصورة. وعمل عمي الثالث، طه، كاتبًا في حسابات مزرعة رجل إيطالي قالوا إنه كان يمتلك ثلاثة آلاف فدان في محيط قرى المنصورة. أما عمي الرابع، حامد، فقد وقع في هوى غازية من الغوازي وهجر أهله، مخلفًا شعورًا بالعار تمكن من الأسرة الكبيرة، وظل قابعًا بداخلها، حتى إنني عندما تجرأت مرة وسألتك يا أبي عنه، غمغمتَ بوجه متقلص:

. لقد مات ولا نعرف له قبرًا.

جئتَ أنتَ يا أبي إلى الدنيا متين البنيان كجدي، لم تجرب حظك



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في أيٍّ من المهن المعتادة والمتعارف عليها لمن كان، مثلك، يمتلك شهادة كانت كبيرة جدًّا بحسابات أيامك. كان لك يا أبي إخوة يستطيعون توفير عمل لك بجوارهم.

كم أنت عظيم يا أيها الحاج عاصم بمقامرة غير محسوبة العواقب! قررت، وأنت في الخامسة عشرة من عمرك، أن تعمل في الفاعل، مجرد نفر يشارك مع آلاف غيره في شق ترعة تربط بين نيل المنصورة وقراها. أنت عظيم يا أبي! بعد أربعين سنة من مشاركتك في شق الترعة، ستبني على ضفتها الغربية قصرًا، سيعرفه الجميع باسم «قصر العمري»، وسيكون رئيس الجمهورية نفسه حاضرًا حفل افتتاح القصر.

أنا يا أبي، شاب لا يوصف مثله إلا بالرياضي الوسيم، طولي مائة وثمانون سنتيمترًا، وزني لا يزيد خلقة على ثمانين كيلوجرامًا، جسدي بمجمله آية من آيات التناسق، بشرتي بيضاء مشربة بحمرة خفيفة، شعري ناعم أسود لامع، شاربي مشذب دائمًا، لحيتي عندما أحلقها تكون جذورها مخضرة بطريقة تزيدني وسامة، ملابسي ـ حتى الداخلية منها ـ من أرقى المحلات الأوروبية. ما كنتُ سأكون هكذا إلا لأنك أبي.

من الترعة الأولى إلى الترعة الثانية تردد اسمك بوصفك شيئًا مهمًّا لا يمكن الاستغناء عنه، ولأنك عبقري فقد تحملت وصفهم لك بـ«الشيء»، كنت تنظر إلى ما هو أبعد من الدلتا بأرضها وناسها وسمائها.

أنت يا أبي تزوجت ابنة عمك الفلاحة السوداء لكي لا يظن أحد بك ظن السوء. ستقول لي بعدها بسنوات وأنت تدخن الحشيش:

. الدنيا مثل درجات السلم، وابنة عمي كانت الدرجة الأولى في سلمي، ولو توقفت عندها لضعت ولو هبطتها لضعت، كان يجب أن أواصل الصعود.

أصارحك يا أبي بأنني كنت سأكون خصمك لو كنتَ قد تمسكت بتلك السوداء. إنني حتى لم أهتم بمعرفة اسمها، أنا يا أبي لا



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أحب السود، أنفر منهم، أحس بأنهم من الأشياء التي تجلب الغثيان. نعم أكره السود، ولكن كرهي أشد لهؤلاء الذين يجاملون السود أو ينافقونهم ويصفونهم بأنهم سمر، ولقد ضقت بهذا النفاق حتى سألت الدكتور مالك الجندي:

. هل في اللغة شيء اسمه أسمر؟

فقال:

. السمرة منزلة بين البياض والسواد.

هل رأيت يا أبي كم هي مثيرة للاشمئزاز تلك المنزلة؟

دعني لا أتحرج من سؤالك، هل كنت ترى فرقًا بين مؤخرة ابنة عمك وفضلاتها؟

المؤخرة يجب أن تكون كمؤخرة بثينة، بيضاء، تحتقن بحمرة فاتنة عندما تمر كفي فوقها.

يوم غادرتَ يا أبي قريتك وطلقت السوداء وجئتَ إلى القاهرة، كنتَ قد أصبحت الرجل الذي لا يُستغنى عنه، النفر الذي يعمل بالفأس امتلك رقاب كتيبة تعمل تحت إمرته. السادات يا أبي، على الرغم من سواد بشرته، كان مَثلك الأعلى، من تابع لسائقي سيارات النقل إلى أهم شخصية عربية. ومثلما تزوج هو البيضاء، تزوجت أنت بالبيضاء ابنة المهندس فتحي، كبير مهندسي البناء في شركة الفجر المصري. لقد صعد السادات وصعدتَ أنت معه، ولقد ولدتُ أنا في عام تنصيبه رئيسًا للبلاد، فأي بُشرى هي تلك البُشرى؟

لو شكرتك يا أبي حتى آخر نفَس في حياتي. وأنا أعلم أنها عزيزة عليك. لن أوفيك حقك. بعبقريتك عرفك رئيسان، الراحل الكريم أنور السادات، وسيادة الرئيس مبارك، متعه الله بطول العمر والصحة، وبأفضالك تودد إليك كل وزراء الإسكان بل وكل رؤساء الوزارات. لو كنت أصبر على الكتابة كما يصبر عليها مؤلفو مسلسلات التلفزيون، لكتبت عنك كتابًا يكون عنوانه «أبي



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العظيم». كنت سأقص فيه ما حكيتَه لي عن الجلسات الخاصة التي طالما جمعتك مع المغفور لهما الرئيس السادات والوزير عثمان أحمد عثمان، وكيف كان سيادة الرئيس ينطلق في تلك الجلسات على سجيته مثله مثل أولاد البلد، وكيف كنتما تضحكان عندما يقلد سيادته لكما طريقة هيكل في تدخين السيجار.

أنا أكره هذا الهيكل يا أبي، كما أكره كل سود البشرة والقلوب».

أخيرًا توقف أشرف باشا عن حديثه مع أبيه. أو بالأحرى مع نفسه. وهبط من سيارته بعدما أوقفها تحت شجرة المانجو التي تحمل الرقم ستة.

أشرف باشا يمتلك ست سيارات، سيارة لكل يوم من أيام عمله. وقد اعتاد، منذ أن وهب له أبوه، الحاج عاصم، السيارات الست والفيلَّا ذات الحديقة مترامية الأطراف، أن يوقف السيارات في ظل أشجار المانجو التي رقَّمها من واحد إلى ستة.

كان الباشا قد رتب قبل حضوره كل تفاصيل ليلته الاستثنائية: سيدخل الفيلَّا ليجد في انتظاره أباه العظيم، وأمه البيضاء زينب هانم فتحي، ومعهما امرأته الخارقة وولداه وائل وزينب. ولكم كان يتمنى لو كان جده لأمه، المهندس فتحي السعيد، على قيد الحياة ليشاركه فرحة بلوغ الأربعين، ولكنه انتقل إلى رحمة الله قبل خمس سنوات.

سيتناولون الغداء معًا ثم يخلدون إلى بعض الراحة. ثم سيصعد هو إلى الطابق الثاني من الفيلَّا حيث حمامه الخاص، سيغتسل جيدًا ويرتدي بذلة جديدة، ثم يغادرون جميعًا إلى قاعة الفندق التي حجزها لكي يحتفلوا بليلة عيد ميلاده. وبعد منتصف الليل ستبدأ سهرته مع الخارقة الحارقة بثينة.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# 2

اختار الأستاذ الدكتور مالك الجندي، أستاذ الأدب العربي القديم ورئيس قسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة القاهرة، ثلاثة من أساتذة الكلية، ودعاهم إلى اجتماع مغلق وخطير. عندما اختارهم كان يعرف جيدًا مَنْ هم، ومَنْ هو في أعينهم. في بداية الاجتماع، رحب بالمختارين الثلاثة: حاتم علي أستاذ النحو، وشاكر البرعي أستاذ الأدب الأندلسي، وفاروق حسين أستاذ البلاغة. ثم تحدث بصوت فوجئ هو بأنه يقطر حزنًا. كشف لهم في كلمات موجزة عن مطلبه، كسا شيء ما، كأنه العار، صوته وهو يقول لهم:

ـ لن أستعطفكم، ولكن سأضع كل واحد منكم أمام مسؤوليته. مستقبلي ومستقبلكم، بل ومستقبل القسم كله بين أيديكم. أصحاب الطلب، أو فلنكن صرحاء ونسميهم التسمية الحقيقية، وهي «أصحاب الأمر»، لا يعرفون الهزل، كما لا يعرفون تجاهل أوامرهم. لقد أمروا وليس أمامنا سوى الاستجابة. أنا لا أخوفكم، ولكن أنقل لكم الصورة كما رأيتها. إنهم قساة، ونحن لا نستطيع الدخول في صدام معهم. مَن أراد منكم أن يعتذر فليعتذر الآن، وحتى بعد أن يعتذر فليس مسموحًا له بأن يفتح فمه بكلمة واحدة.

سكت الدكتور مالك، ثم وقف وهو يعتمد بيديه على طاولة الاجتماع، وتأمل وجوههم، ثم قال:

ـ ما قولكم؟

لم يجبه أحد برد، كان صوت تنفسهم مسموعًا، وكانت وجوههم شاحبة.

كأن مالك خاف من شحوب وجوههم، ولذا نظر إلى موضع قدميه ثم قال:

ـ نحن، كما يقولون، «ليس لنا في الثور ولا في الطحين»، ولذا



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يجب أن ينتهي الأمر في أسرع وقت ممكن وبأشد الطرق لباقة ولياقة.

غادر مالك غرفة الاجتماع وهو لا يعرف كيف خلع عنه العار وارتدى كرامته المعهودة، قطع الممر المؤدي إلى غرفة مكتبه بخطواته الواثقة التي تشع وقارًا وحكمة ورصانة، وفتح الباب بيده الثابتة التي تظهر قوته وتمكنه، ثم أغلقه بالمفتاح، وخطا خطوتين باتجاه مكتبه، إلا أنه عاد إلى الوراء ليتأكد من أنه قد أغلق الباب جيدًا. وعندما اطمأن إلى أن الباب مغلق بإحكام، دار بخصره حول محوره، كأنه راقصة من راقصات الدرجة الثالثة. ثم أطلق ضحكة رقيعة، وللحق كانت ضحكته خاصة جدًا، لأنها كانت تجمع بين الرقاعة والمرارة، وأتبع الضحكة المتميزة بشخير لا تستطيعه حنجرة شاب سكندري في عنفوان شبابه وتمام صحته.

لا أحد على ظهر الأرض يجرؤ على تخيل هيئة الأستاذ الدكتور مالك التي هو عليها الآن.

لا أحد يعرف ـ ولا حتى ليلى ـ أن تلك هي طريقة الأستاذ الدكتور مالك الجندي، رئيس قسم اللغة العربية وأستاذ الأدب العربي القديم، في الاحتفال بهزائمه، وهو قبل دقائق كان يسجل متعمدًا في مرمى فريقه. لقد هزم نفسه هزيمة مذلة.

في العاشرة من ليل الاثنين، الرابع من أكتوبر ٢٠١٠، كان مالك يجلس على أريكته الوثيرة في صالة شقته، يشاهد مباراة كرة القدم بين الفريقين الإسبانيين، «برشلونة» و«غرناطة».

في حياته الماضية كانت متعه كثيرة ومتنوعة وبسيطة. كان يستمتع بحمام ساخن، ثم بالجلوس على المقاهي وقراءة المجلات والجرائد، وكان ينظر إلى النوم العميق بوصفه متعة لا تعادلها متعة، وكانت رؤية الحقول من نوافذ عربة القطار متعة كريمة. هكذا كان، أما الآن، بعد هزيمته الكبرى أو هزيمته «الأم» كما يطلق عليها، فلم يعد يستمتع سوى بتدخين السجائر، ورشف عدد لا يحصى من أكواب الشاي وفناجين القهوة، ومشاهدة

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مباريات الكرة، وقراءة الروايات التي سبق له قراءتها والقصائد التي يحفظها.

لقد كفَّ عن أشياء كثيرة كانت الكتابة على رأسها. في العام الثالث على هزيمته الكبرى، لم يعد يكتب سوى يومياته ورسائل مطولة إلى ليلى.

كان «ميسي» نجم «برشلونة» ينطلق بالكرة من منتصف ملعب فريقه ويتقدم باتجاه مرمى «غرناطة»، لم يكن يراوغ المنافسين، كان يعزف على أوتار قلب مالك، إنه يتابع مراوغات «ميسي» بنفس المحبة التي يتابع بها أصابع يمين ليلى عندما تضعها فوق فمها لكي تكتم ضحكة من ضحكاتها.

في اللحظة التي أحرز فيها «ميسي» واحدًا من أهدافه العبقرية تلقى اتصالًا على هاتفه المحمول. لم يظهر رقم المتصل على الشاشة، ظهرت عبارة «رقم خاص»، هذه العبارة يخشاها الدكتور مالك، لأن تجربته معها تؤكد أن المتصل لا يريد خيرًا.

استعاذ بالله كما تعود أن يفعل قبل كل أمر شاق، وضغط على مفتاح الاستجابة للمكالمات. جاءه صوت خشن، لم يقدم صاحبه نفسه ولم يُلقِ التحية المعتادة، وقال بنبرة حادة وقاطعة:

. عليك بالحضور إلى مقر جهاز أمن الدولة بعد غد الأربعاء.

قبل أن ينتبه مالك كانت المكالمة قد انتهت. جف ريقه وتسارعت دقات قلبه، لإدراكه أنه سيظل جاهلًا حقيقة الأمر، لأن الاتصال بتلك الأرقام هو ضرب من المستحيل.

يكره مالك كل تلك المباغتات، إنها تعكر دمه وتفسد مزاجه الذي لا ينقصه الفساد. ترك «ميسي» ورفاقه يتلاعبون بـ«غرناطة» وذهب إلى الحمَّام، غسل وجهه بالماء البارد، ونظر كما يفعل دائمًا إلى صورته في المرآة، وأخرج لسانه ساخرًا ثم عاد ليواصل مشاهدة المباراة.

من حسناته القليلة أنه لا يكذب على نفسه. هو يعرف أنه ليس



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مباريات الكرة، وقراءة الروايات التي سبق له قراءتها والقصائد التي يحفظها.

لقد كفَّ عن أشياء كثيرة كانت الكتابة على رأسها. في العام الثالث على هزيمته الكبرى، لم يعد يكتب سوى يومياته ورسائل مطولة إلى ليلى.

كان «ميسي» نجم «برشلونة» ينطلق بالكرة من منتصف ملعب فريقه ويتقدم باتجاه مرمى «غرناطة»، لم يكن يراوغ المنافسين، كان يعزف على أوتار قلب مالك، إنه يتابع مراوغات «ميسي» بنفس المحبة التي يتابع بها أصابع يمين ليلى عندما تضعها فوق فمها لكي تكتم ضحكة من ضحكاتها.

في اللحظة التي أحرز فيها «ميسي» واحدًا من أهدافه العبقرية تلقى اتصالًا على هاتفه المحمول. لم يظهر رقم المتصل على الشاشة، ظهرت عبارة «رقم خاص»، هذه العبارة يخشاها الدكتور مالك، لأن تجربته معها تؤكد أن المتصل لا يريد خيرًا.

استعاذ بالله كما تعود أن يفعل قبل كل أمر شاق، وضغط على مفتاح الاستجابة للمكالمات. جاءه صوت خشن، لم يقدم صاحبه نفسه ولم يُلقِ التحية المعتادة، وقال بنبرة حادة وقاطعة:

. عليك بالحضور إلى مقر جهاز أمن الدولة بعد غد الأربعاء.

قبل أن ينتبه مالك كانت المكالمة قد انتهت. جف ريقه وتسارعت دقات قلبه، لإدراكه أنه سيظل جاهلًا حقيقة الأمر، لأن الاتصال بتلك الأرقام هو ضرب من المستحيل.

يكره مالك كل تلك المباغتات، إنها تعكر دمه وتفسد مزاجه الذي لا ينقصه الفساد. ترك «ميسي» ورفاقه يتلاعبون بـ«غرناطة» وذهب إلى الحمَّام، غسل وجهه بالماء البارد، ونظر كما يفعل دائمًا إلى صورته في المرآة، وأخرج لسانه ساخرًا ثم عاد ليواصل مشاهدة المباراة.

من حسناته القليلة أنه لا يكذب على نفسه. هو يعرف أنه ليس



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مباريات الكرة، وقراءة الروايات التي سبق له قراءتها والقصائد التي يحفظها.

لقد كفَّ عن أشياء كثيرة كانت الكتابة على رأسها. في العام الثالث على هزيمته الكبرى، لم يعد يكتب سوى يومياته ورسائل مطولة إلى ليلى.

كان «ميسي» نجم «برشلونة» ينطلق بالكرة من منتصف ملعب فريقه ويتقدم باتجاه مرمى «غرناطة»، لم يكن يراوغ المنافسين، كان يعزف على أوتار قلب مالك، إنه يتابع مراوغات «ميسي» بنفس المحبة التي يتابع بها أصابع يمين ليلى عندما تضعها فوق فمها لكي تكتم ضحكة من ضحكاتها.

في اللحظة التي أحرز فيها «ميسي» واحدًا من أهدافه العبقرية تلقى اتصالًا على هاتفه المحمول. لم يظهر رقم المتصل على الشاشة، ظهرت عبارة «رقم خاص»، هذه العبارة يخشاها الدكتور مالك، لأن تجربته معها تؤكد أن المتصل لا يريد خيرًا.

استعاذ بالله كما تعود أن يفعل قبل كل أمر شاق، وضغط على مفتاح الاستجابة للمكالمات. جاءه صوت خشن، لم يقدم صاحبه نفسه ولم يُلقِ التحية المعتادة، وقال بنبرة حادة وقاطعة:

. عليك بالحضور إلى مقر جهاز أمن الدولة بعد غد الأربعاء.

قبل أن ينتبه مالك كانت المكالمة قد انتهت. جف ريقه وتسارعت دقات قلبه، لإدراكه أنه سيظل جاهلًا حقيقة الأمر، لأن الاتصال بتلك الأرقام هو ضرب من المستحيل.

يكره مالك كل تلك المباغتات، إنها تعكر دمه وتفسد مزاجه الذي لا ينقصه الفساد. ترك «ميسي» ورفاقه يتلاعبون بـ«غرناطة» وذهب إلى الحمَّام، غسل وجهه بالماء البارد، ونظر كما يفعل دائمًا إلى صورته في المرآة، وأخرج لسانه ساخرًا ثم عاد ليواصل مشاهدة المباراة.

من حسناته القليلة أنه لا يكذب على نفسه. هو يعرف أنه ليس



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مولعًا بكرة القدم لوجه المتعة، هو مولع بها لثلاثة أسباب: الأول كونها الرياضة الوحيدة التي مارسها في صباه وبداية شبابه، الثاني كون عنفها محتملًا، لأنه يكره كل عنف كراهية التحريم، الثالث وهو الأهم والذي كان يجب أن يكون أولًا، أنه يخبئ هزائمه في انتصارات فريقه الكروي. يكاد ينسى هزائمه، يعود إليه حماسه القديم أثناء المشاهدة، عندما يصول فريقه ويجول، يذهب هو في غيبوبة من النشوة الصافية، إنه يبيت ليلة فوز فريقه راضيًا ومتحققًا بطريقة ما.

تقدم الولد «بيكيه» قلب دفاع «برشلونة» إلى مرمى غرناطة وكاد أن يسجل هدفًا رائعًا. هو يحب هذا الولد ويحسده، يحبه لأنه بارع في إفساد هجمات المنافسين ببرود أعصاب عجيب، ويحسده لأنه كما يقولون يضاجع «شاكيرا»، «شاكيرا» التي شاهدها الدكتور مالك قبل سنوات على مسرح مكسيكي ففتن بها، وللحق فقد فتن تحديدًا بطريقتها في هز ردفيها. ليلة شاهدها قبل خمس عشرة سنة لم تكن شهيرة كما هي الآن، كانت بريئة بطريقة ما، تفنى في غنائها وفي رقصها. بات ليلته سعيدًا لأنه عرف أن دمها كولومبي له جذور عربية، ومن يومها وهو يتابعها بحالة من شبق الخصيان، هو يرى تلك التسمية القاسية لائقة بهؤلاء الذين يشتهون نساء الأرض، ثم لا يفوز الواحد منهم ولو بواحدة، أحيانًا يترفق بنفسه ويطلق على حالته «الشبق النظري»، لأن للشبق العملي رجالًا هو ليس منهم.

كل هذه الثرثرة هي عبث محض، لقد أفسدت المكالمة المباغتة ليلته، لا «ميسي» ولا حتى «بيليه» يستطيع إخراجه من مأزقه، كما أن ردفي «شاكيرا» كانا سيقفان عاجزين عن التسرية عنه.

إنه يريد فنجان قهوة سادة محوجًا من بُن فاتح لكي يفكر بهدوء وشمولية، لو طلب القهوة من محاسن فلن يضمن ما ستتلفظ به، كيف لعاقل وأستاذ للأدب العربي القديم أن يتزوج من امرأة اسمها «محاسن» وينفق عليها وعلى ثلاثة أولاد تقول إنهم أولاده؟



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قام وأغلق التلفزيون وهو يقول: «وداعًا ميسي».

دخل إلى المطبخ، كاد يطلق صيحة فزع عندما رآه نظيفًا لامعًا مرتبًا، محاسن ليست امرأة النظافة أو اللمعان أو الترتيب، فمن الذي فعلها؟

أطلق ضحكته الرقيعة عندما تذكر أنه هو الذي فعلها ونظف المطبخ ولمَّعه ورتبه. محاسن وأولادها، أحمد وهدى وعصام، خرجوا منذ الظهيرة، وذهبوا إلى أم محاسن وسيبيتون ليلتهم لديها، لقد اتصل به أحمد وأخبره بذلك، فكيف نسي الأمر كله؟

هل نسي المكالمة بفعل الغيبوبة التي تضربه وقت مشاهدته المباريات؟

كادت القهوة تفور ويضيع وجهها عندما صاح: «ليس مثلي الذي ينسى، أنا لم أخلق للنسيان، هي رائحة محاسن التي تعشش في الزوايا والأركان، هي التي جعلتني أظن أنها وأولادها معي بالبيت، رائحتها مكتومة ولكنها تخترق المكان والزمان، محاسن بالخارج ولكن رائحتها مقيمة، لقد أصبحت رائحتها وشمًا على باطن أنفي».

سكب من الكنكة في كوب زجاجي شفاف ما يعادل فنجاني قهوة، وضع كوب القهوة فوق صينية صغيرة لامعة، ووضع بجوار القهوة كوب ماء مثلج، كما لم يغفل عن وضع مطفأة سجائر، وغادر إلى شرفته البحرية. وضع الصينية فوق سور الشرفة، وأشعل سيجارة ورشف رشفة من كوب القهوة وبدأ يفكر في المأزق.

هو دائمًا يخرج من حصار مآزقه بأن يفكها إلى أجزاء صغيرة بل متناهية الصغر، ويحلل كل جزء ثم يربطه بآخر حتى تكتمل لديه الصورة الكلية للمأزق.

هو يسلم بأن جهاز أمن الدولة ينازع الله الألوهية، كل ما يصل إليه من كلام أو معلومات أو تجارب يؤكد هذا المعنى. إنه جهاز يبدو كلي القدرة، لا يقف شيء في وجهه، ولا يمنعه مانع من أن



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يفعل ما يريد وقتما يريد.

ولكن كل ذلك لا علاقة له به، فهو رجل لا يمشي بجوار الحائط بل إنه يمشي في قلب الحائط، فما الذي سيجعل هذا الجهاز الخطير يطلبه؟

ثم هو ليس أستاذًا بكلية الحقوق فيطلبونه في أمر قانوني، إن كان هؤلاء يقيمون للقانون وزنًا، كما أنه ليس أستاذًا بكلية الطب يطلبونه في علاج، المهارات والمعارف التي لديه هم يقينًا لا يريدونها.

ستكون كارثة حقيقية لو كان الاتصال بشأن يومياته، ولكن كيف سيعرفون بخبر اليوميات؟

لقد ذهب إلى مهندس بارع في الإلكترونيات لكي يعلمه كيف يخفي ملف يومياته بحيث لا يصل أحد إليه، ولكن محاسن ذات الرائحة المكتومة التي تخترق المكان والزمان تتجسس على اللاب توب الخاص به، وبمساعدة من أحد أولادها تستطيع إظهار الملف، ولو فعلتها فليس مستبعدًا أن تكون قد أخبرتهم بما في يومياته، هي تصنع كل ما يعكره، فما الذي سيمنعها من الاتصال بهم؟

زميله وصديق عمره الدكتور جاد المولى أستاذ التاريخ يعرف قصة اليوميات، قد يتقرب إليهم ويخبرهم بها.

هل يحذف اليوميات من الحاسوب لكي لا يورط نفسه معهم؟

ولكن حذف اليوميات سيكون بمثابة إعلان وفاة رسمي له، ليس إعلان وفاة بالمعنى المعروف، ولكنه بدون يوميات سيمضي في الحياة وله رائحة جثة متفسخة، وهو لا يريد نهاية كتلك لحياته، إنه حتى بعد أن أصبح في الخمسين من عمره ظل تواقًا لعطر ليلى، ويتمنى لو كانت نهايته فوق صدرها أو على حجرها.

ولكن ماذا في اليوميات يجعله خائفًا كما هو الآن؟

ليس بها سوى تسجيله لأحداث يومه بصدق تام وكامل ورسائله

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى ليلى وردودها عليها، نعم الرسائل والردود تمثل فضيحة اجتماعية متكاملة الأركان، أستاذ جامعي مرموق في الخمسين من عمره، متزوج وله ثلاثة أولاد، يتبادل رسائل الغرام مع شابة في عمر أبنائه، سيكون صيدًا سهلًا وافر الدسم لبرامج التوك شو.

هو لا يظن أن الدراستين اللتين على الحاسوب تهمانهم في شيء: الأولى عن شعراء الصوفية، أما الثانية ـ آه الثانية هذه خطيرة، فجاد المولى وصفها بالخطيرة المريبة، وقال إنها ستدمر حياة كاتبها وناشرها.

هبَّ الدكتور مالك واقفًا بعد أن ضرب الصداع مؤخرة رأسه، لا مفر من أن يتصل بزميله الدكتور رمضان البحيري عميد الكلية ويستفتيه في أمر اتصال أمن الدولة.

ولكن مهلًا، فقد تكون الهواتف كلها مراقبة، ويعرفون أنه اتصل بعميد الكلية، لن يغفروا له إفشاء سر اتصالهم به.

هذا المتصل السخيف قال «أمن الدولة» وأنهى المكالمة.

إلى أي مقر سيذهب؟

هو لا يعرف سوى أن لهم مقرًّا في شارع جابر بن حيان، ولكنه يسمع أن مقراتهم تملأ البلد من أقصاه إلى أقصاه.

أمضى مالك ليلته يتقلب على جمر النار، كان يغمض عينيه لدقائق ثم يصحو ليدخن سيجارة ويقلب الأمر على كل وجوهه فلا يعثر على مخرج، يعود إلى النوم لدقائق ثم يصحو يدخن سيجارة ويلعن الدولة وأمنها، ويلعن رائحة محاسن التي تنتشر كأنها خلايا سرطانية في الغطاء والوسادة.

آه كيف غابت عن ذهنه الكارثة الحقيقية، كل ما مضى هو لعب عيال إذا ما قورن بنشاط ليلى السياسي. لو وصلوا إلى اليوميات فسيصلون إلى ليلى، ولو وصلوا إلى ليلى فسيعرفون أنها من قيادات حركة «كفاية»، و«كفاية» هذه تسبب لهم صداعًا دائمًا. لقد حذر مالك ليلى من الجري وراء الأوهام، مبارك قالها صريحة



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مدوية: «سأظل في الحكم حتى آخر نَفَس». ومن بعده سيأتي ابنه.

دائمًا كان يقول لها: «أنت تضيعين عمرك وشبابك في أوهام الثورة والمعارضة والمقاومة».

كانت ليلى تغضب غضبًا حقيقيًا عندما يسفه نشاطها، كانت تقول له ببراءتها التي تعذبه: «أرجوك، لا تتكلم هكذا، أنت عندي، عندنا، كبير، ويومًا ما ستعرف على يديَّ مقامك الحقيقي».

رمى عنه الغطاء المشبع برائحة محاسن، وقام إلى الشرفة لا يفعل شيئًا سوى التدخين ورشف الماء البارد والدندنة بكلمات غير مفهومة للحن يخترعه هو اختراعًا.

كان أول ما فعله فور دخوله إلى مبنى الكلية صباح الثلاثاء أن ذهب للقاء زميله القديم الدكتور رمضان البحيري الذي أصبح رئيسًا له.

الجامع بين ليلى والدكتور رمضان أنهما معًا يريان أن مالك أكبر مما يرى هو نفسه.

لم يسمع رمضان من مالك سوى كلمات معدودات ثم قاطعه قائلًا:

. يا مالك، مالَك أنت وأمن الدولة؟ ألم أقل لك مرارًا إنك رجل كبير لا يعرف كيف يستثمر نفسه؟ لو كنت سمعت نصائحي المخلصة لكان أمن الدولة يسعى إليك بدلًا من أن يأمرك بالحضور. اعترف يا مالك بأنك قد أضعت، وعن عمد، كل فرصة أتيحت لك. يا أخي تلاميذك لهم الآن برامج في التلفزيون، وأنت قابع بإرادتك في الظلام. حتى عندما منحوك رئاسة القسم أنت لم ترد جميلهم ولو بكلمة، أنت لا تذهب إلى حفلاتهم ولا تحضر مؤتمراتهم، أنت لا تصنع شيئًا يا دكتور، سافرتَ مرة إلى المكسيك ثم لم تسافر بعدها لأنك لم تبذل جهدًا لكي تحظى بفرصة سفر حقيقية. أكرمك الله وامتلكت سيارة خاصة، ولكنك لا تستخدمها وتشير إلى التاكسيات. يا أخي تحرك، إن لم يكن من أجلك فمن أجل أولادك!



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بهدوء كله مرارة رد مالك:

.كفى توبيخًا يا سيدي العميد. هل ستخدمني، نعم أم لا؟

قال رمضان:

.اذهب الآن إلى مكتبك وسأعلِمك فور عثوري على حل لمشكلتك، ولا تقل ثانية إني أوبخك، أنا أنصحك، فلا تجعلني أكف عن نصحك.

غادر مالك مكتب زميله القديم، سيادة عميد كلية الآداب، ولكنه لم يذهب إلى مكتبه. سار متخبطًا في طرقات الكلية حتى وجد نفسه في فنائها الخارجي. كان الأساتذة والطلاب والطالبات يمرون به ويحيونه فيجيبهم بهزة من رأسه وهو يكاد لا يرى أحدًا. هل أضاع نفسه حقًّا؟ هل أضاع أولاده؟ هل هم أولاده أم أولاد محاسن؟

ثم هم لماذا لا يريدون تركه وشأنه؟ إنه لا يريد منهم شيئًا. حتى رئاسة القسم لا يسعى إليها، رمضان هو الذي قال له: «تقدم بأوراقك»، فتقدم. كان واحدًا من ثلاثة، رمضان اختاره هو ورفع اسمه إلى رئيس الجامعة الذي وافق على اختياره. هذا هو الأمر ببساطة، أين المجاملة ورد الجميل إذن؟

بعد أكثر من ساعة انتبه مالك إلى رنين هاتفه المحمول. كان المتحدث هو الدكتور رمضان، الذي قال بحسم:

.يوم غدٍ اذهب في العاشرة صباحًا إلى عمارات عثمان، ادخل إلى العمارة السابعة، اصعد إلى طابقها الرابع، اطرق باب الشقة التي في مواجهة السلم، طرقة خفيفة ناعمة، قدم نفسك لمن سيفتح لك الباب وهو سيتولى باقي الأمر.

مالك لم ينتبه حقًّا إلا عندما نظر إلى ما حوله فوجد نفسه يجلس على مقهى بالمنيل.

المنيل ثانية وثالثة وعاشرة، هو والمنيل كالأجرب وجلده، لا



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يعرفان الراحة إلا بتفجر الدم، هذا منيله القديم، منيل أبيه وأمه ومنيل شبابه، هنا كان هو نفسه كما خلقه الله قبل أن تمسخه رائحة محاسن. هل أحب ليلى لأنها تسكن شارع قطز في المنيل؟

يعتقد مالك أنه مات كثيرًا، فهل تمر به ليلى الآن لكي يذوق، ولو لمرة واحدة، موت السعداء؟

أهو عارٍ إلى هذا الحد؟ كيف ستتزوجه إذن وهي تخاف من مصافحته في الشارع؟

يعاني مالك دائمًا من كون خياراته حدية أو صفرية، إما هذا أو ذاك. هو الآن أمام خيارين. الأول هو العودة إلى البيت حيث سيعاني من كابوسين: كابوس وطأة وجود محاسن في حياته، وكابوس تخوفه من مقابلة الغد.

خياره الثاني والأخير هو الذهاب إلى بيت صديقه الدكتور جاد المولى.

أشار إلى تاكسي وهو يصيح:

. باسوس يا أسطى.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# 3

صعدت ليلى عمر السلم الداخلي الذي يربط بين الطابقين الأول والثاني من فيلتهم. دخلت غرفتها وأغلقت بابها، أسدلت ستارة النافذة، فأصبحت الغرفة تتمتع بإضاءة إلهية ترتاح إليها. جلست على حافة سريرها تفكر في عمل تواجه به ملل يوم إجازتها.

هي تكره الإجازات والأعياد وكل المناسبات التي تذكرها بأجواء الأسرة، وعلى الرغم من هذا الكره فقد فعلت ما يفعله المصريون عادة: استغلت أن يوم أمس كان إجازة الاحتفالات بذكرى انتصار أكتوبر، فاتصلت بصاحب مكتب المحاسبات الذي تعمل به ورجته أن يعفيها من العمل اليوم الخميس، على أن تحصل على إجازتها المعتادة يومي الجمعة والسبت. وافق رئيسها لأنه يعلم جديتها في العمل، كما أنه يقدم السبت شراءً لرضا أسرتها لأنه يحلم بها زوجة لوحيده يوسف.

أمام ليلى أربعة أيام من الراحة. مضى اليوم الأول بشق الأنفس، فكيف ستبعثر باقي الأيام؟

هي الآن نادمة أشد الندم، ليتها ذهبت إلى عملها.

قامت من فوق حافة السرير وذهبت إلى مرآة التسريحة، تأملت وجهها، رضيت عن هدوئه وجماله، وضايقها هذا الانتفاخ الذي يظهر أسفل عينيها. كثيرًا ما حدثها مالك عن فوائد الكحل للعيون، لكنها تخجل من أن تذهب إلى عملها بعينين مكحلتين. هي لا تريد أن تفتح ملف مالك الآن، ولا تريد فتح أي ملف كان، ثم ماذا سيفعل الكحل مع مولعة بالتدخين مثلها؟

لا بد أن التدخين يؤذي عينيها، وهي تحب السجائر، ستصنع كمادات لعينيها وتواصل التدخين. قامت إلى النافذة وأزاحت ستارتها وفتحت زجاجها وألقت نظرة على نوافذ الجيران فوجدتها مغلقة، فحمدت الله. ثم فتحت الباب ونظرت من فوق رأس السلم فتأكدت أن أمها مع الخادمة فتحية في المطبخ.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عادت وأغلقت باب غرفتها واختارت جانبًا من السرير بعيدًا عن النافذة، وأشعلت سيجارة امتصت دخانها في لذة.

بعد أن انتهت من سيجارتها، عادت وأغلقت النافذة وأسدلت ستارتها. فكت عقدة شعرها فانزلق مغطيًا كتفيها، متوقفًا عند منتصف ظهرها. أعجبها شعرها فراحت تداعبه بأصابعها. توقفت فجأة وعادت إلى الجلوس على حافة السرير. هي لا تعرف سببًا لتبدل أحوالها، أحيانًا تضج بحياة أكبر من الحياة، وأحيانًا تشعر كأنها تمثال جرى إكراه فنانه على نحته، فجاء به قطعة حجر بلا روح. قامت متثاقلة لا تدري كيف تتخلص من يومها الذي يبدو طويلًا وبلا نهاية. ترددت وهي تنحني لتجلب حقائبها الكبيرة من أسفل السرير، ثلاث حقائب كأنهن ثلاث نكبات، الحقائب الثلاث ممتلئة بملابسها الخاصة جدًّا. على مدار أعوام كانت إذا أعجبتها قطعة ملابس داخلية سارعت بشرائها، ليلى العملية المتوترة دائمًا لديها كنوز من قمصان النوم وملابس البحر والعباءات المطرزة التي تُظهر أكثر مما تخفي، كل تلك الكنوز ولا رجل، فما فائدتها؟

بيد مرتعشة، تناولت قميصًا ترى أنه أشد قمصانها فتنة، خلعت البيجامة، وارتدت القميص. كان ضيقًا يبرز تكويرات أنوثتها، وقصيرًا يصل إلى ما تحت ردفيها بقليل. نظرت في مرآتها، كانت بحق فاتنة، حتى إن الانتفاخ الذي كان تحت عينيها قد اختفى، أو لم تعد تراه. هي بالأساس تحب جسدها وتدلله ولا تبخل عليه بعطر أو تدليك أو مسحوق زينة. لا تريد الآن أن تقع في دوامة التحسر فتقول: «لمن جمالي وصباي؟».

نزعت نفسها من أمام المرآة وتناولت هاتفها المحمول، فتشت ذاكرته الموسيقية حتى وصلت إلى أغنية عبد الحليم: «حاول تفتكرني».

تعشق هي تلك الأغنية، تؤمن أن بليغ حمدي، ملحنها، هو موسيقار عمرها ويلحن من أجلها هي، كما تؤمن أن عبد الحليم كان يختصر تاريخ الوجد عندما يتوجع صوته مغنيًا:



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والله لسه حبيبي

والله وحبيبي

انتبهت فوجدت نفسها ترقص، هي لا تعرف هز النهدين ولا رجرجة الردفين، إنها ترقص رقص الدرويش في حضرة شيخه، رقصها فريد تخترع خطواته وتبتكر إيقاعه، ترقص فتكاد تهرب من جاذبية الأرض، ترقص فتحلق مع وجعها في السماوات العُلى، تنزُّ عرقًا ووجعًا وحزنًا، يتغلغل صوت عبد الحليم داخلها حتى تكاد تمسك به وهو يسري في دمها، يغني وهي ترقص وتبكي وتصرخ بدون صوت:

ومنين نجيب الصبر يا أهل الله يداوينا

اللي انكوى بالحب قبلينا يقول لينا

انهارت غارقة في عرق رقصها وفي حمى مواجعها. كانت ممددة على سريرها مثل جثة هامدة، عيناها ثابتتان معلقتان بسقف الغرفة. ظلت هكذا إلى أن انتظم تنفسها وجف عرقها، قامت وهبطت من فوق سريرها، خلعت قميص فتنتها وارتدت ملابس الخروج. أعادت ترتيب حقائبها الثلاث، وهبطت بها واحدة بعد أخرى ووضعتها جميعًا أمام باب الخروج. فجأة غادرت أمها المطبخ فرأتها وهي تهم بفتح الباب والخروج بالحقائب، فسألتها:

. ما الأمر؟

أجابت ببراءة:

. كنت أعيد ترتيب دولابي فوجدته مكتظًّا بملابس لم تعد تليق بي، فقررت التبرع بها لإحدى الجمعيات الخيرية.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# 4

بعد خروج مالك متوجهًا إلى الجامعة ومغادرة الأولاد إلى أماكن لا تهتم بسؤالهم عنها، تبدأ محاسن رحلة عذابها اليومية منذ خمس سنوات، لا بل منذ عشر سنوات، لا بل منذ خمس عشرة سنة. الحقيقة هي ليست متأكدة من صحة التاريخ، لقد ضربها العذاب فألقى بها في صحراء النسيان والحيرة، منذ زمن بعيد فقدت تاريخه وهي تبدأ يومها بتفتيش كل ما له علاقة بمالك.

مالك هذا ملعون، ملعون في الدنيا والآخرة، ملعون في كل كتاب، يظنها ساذجة بلهاء، يصنع لها فخاخًا محكمة لكي تقع فيها أمامه فيكسر عينها كسرة الأبد. يعود من عمله فيدخل غرفة نومهما، يخرج حافظة نقوده ويضعها على الكومودينو، ثم بتمهل يفتت أعصابها يُخرج كل ما في جيوبه ويضعه بجوار الحافظة. الملعون يفتش نفسه أمامها، لم يغفل يومًا عن تفتيش جيوب الجاكت الخارجية والداخلية وكذا جيوب بنطلونه وقميصه، ثم يضع ملابسه بنظام دقيق في دولابه. كل هذا يجري أمام عينيها، الملعون الذي يذيقها ألوان العذاب، يحتال حيلة يظنها بارعة، هو يضع كل أشيائه بنظام صارم بحيث لو تحركت أشياؤه أدنى حركة لعرف فورًا، وهذا ما يريده. لو كان بريئًا فلماذا يضع حافظته ملتصقة بالجانب الأيسر من مطفأة السجائر؟

لو كان بريئًا فلماذا يترك دائمًا أدراج مكتبه بدون مفاتيح؟ حتى باب غرفة مكتبه بدون مفتاح، أفعاله تلك ليست أفعال بريء، إنها أفعال خبيث، يريد صنع فخ لها.

تبدأ محاسن بتفتيش كل قطع ملابسه التي فتشتها أمس، لا تجد شيئًا، ولا أي شيء. تتناول طرحة وتربط بها رأسها ربطة محكمة قاسية، إنها لا تريد لصداع الفشل أن يتمكن من رأسها. تنتهي من تفتيش كل زوايا غرفة نومهما، حتى إنها ترفع المرتبة القطنية الثقيلة، لعله نسي وخبأ تحتها شيئًا. تفتش أكياس الوسائد وأدراج التسريحة فلا تجد شيئًا. تعود وتلقي نظرة على أرفف الدولاب فتجدها كما فتشتها أمس.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تعض على شفتيها كاتمة ألمها وهي تعيد ترتيب الغرفة كما تركها، تترك غرفة هدى وغرفة أحمد وعصام دون تفتيش لأنه لا يدخل الغرفتين، ثم هو أعقل من أن يدس فيهما شيئًا من أشيائه الخبيثة.

تتجه إلى قلب الجحيم، ميدان عذابها الأكبر، غرفة مكتبه. هذه ليست متاهة، إنها جهنم التي تشوي جلدها وتخرب قلبها وتدمر عقلها. الملعون يخبئ أدلة إدانته هنا.

الغرفة ككل الغرف من أربعة أضلاع، ثلاثة منها تحتلها كتبه. أرفف الكتب تبدأ من الأرض وتصل إلى ما تحت السقف بقليل. هل الغرفة مربعة فعلًا؟ وهل حتمًا يكون المربع دائمًا أربعة أضلاع؟

ما لها تبدو شاسعة جدًّا بلا حدود، ما لها تبدو حلزونية؟ ما لها تبدو مثل زلزال أو بركان أو إعصار؟

هذا طبيعي جدًّا مع غرفة تسكنها شياطين الخيانة.

حيلة أدراج المكتب التي من غير مفاتيح لن تنطلي عليها، هي تفتشها من باب لعل وعسى. الأدلة هنا، بين دفتي كتاب من آلاف الكتب التي تضمها المكتبة.

كانت، قبل أن تكتشف خبثه، تقف عاجزة أمام كتبه كأنها تقف في حضرة سلطان طاغية، لا تعرف كيف تسكت ولا تعرف كيف تتكلم. كانت كتبه تكتم أنفاسها حتى تتلاحق ضربات قلبها، فتفر خارجة.

لقد علمها عذابها المقدس كثيرًا من الخبرات، نعم عذابها مقدس، لأنها مثال للطهر وذلك الملعون مثال للدنس.

علمها العذاب، أن تبدأ بتفتيش الكتب كتابًا كتابًا، هي آلاف نعم، ولكن جبال الكحل تفنيها المراود. ثم إن العاقبة للصابرين، ستدخل مع الصابرين الجنة أولًا لأنها معهم صبرت على أشق عبادة يُعبد بها الله، وهي عبادة الصبر.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الصبر مر، ومرارته تأتي من انتظار المجهول. لقد صبر أيوب على بلائه، وهو لا يعرف متى يكون الشفاء، وصبر يعقوب على فقد يوسف وهو لا يعرف متى يكون الإياب، بل لم يكن يعرف أحيٌّ هو أم ميت.

الله ما أعظم دروس الشيخة أزهار! ستصبر كما أوصتها شيختها.

لقد فتشت الكتب بادئة بالرف العلوي على يمين الداخل، كانت الأرض تدور بها وهي واقفة فوق كرسي المكتب لكي تتناول الكتب العلوية، ولكنها لن تدع إبليس يتغلب عليها فتترك صبرها وكتب الملعون.

كأن خنجرًا مسمومًا يذبحها من الأذن إلى الأذن كلما فتشت كتابًا ولم تجد شيئًا.

هل تستسلم لإبليس الرجيم وتترك عبادة الصبر؟

هل تستسلم للملعون وتتركه يفلت بجرائمه؟

الاثنان يتحالفان ضدها، إبليس بوسوسته، والملعون بطريقته في تنظيم مكتبته. لو كان فوضويًّا لقذفت بكل الكتب فوق الأرض دفعة واحدة فطفح من باطنها كل خبث ودنس. ولكن دينه وإيمانه هو النظام، لقد رتب مكتبته حسب الترتيب الأبجدي لأسماء المؤلفين، حتى لو تنوعت مواد كتبهم، وهذا يجعلها تنسى عند أي اسم توقفت. أسماء مؤلفيه مريبة مثله: مَنْ «ريلكه» و«أراجون» والسموءل والشنفرى و«جوته» و«بوشكين» و«لوركا» والمتنبي و«ماركيز»؟

كيف لا يصبح خبيثًا وهؤلاء أصحابه؟ أليس المرء على دين خليله؟

علمها عذابها المقدس أن تكتب اسم المؤلف الذي تنتهي عنده جولة تفتيش اليوم لكي تبدأ جولة الغد من الذي يليه، ولكن من أدراها أن الملعون لا يعرف ما تقوم به، ويخدعها بأن ينقل أدلة جريمته إلى الكتب التي فتشتها؟



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت محاسن تصرخ مبتهلة: «يا الله ساعدني، قوِّني على إبليس الرجيم، أنا على وضوء يا رب، أدعوك بحق عذابي وقلقي وبحق اسمك الأعظم الذي إن سئلت به أجبت أن تمدني بمدد من عندك، اللهم صبَّ عليَّ الصبر صبًّا».

تهبط من فوق الكرسي وتجلس على الأرض، تزحف كأنها قعيدة حتى تصل إلى الضلع الرابع الذي يحتله مكتبه، تلصق ظهرها إلى الحائط البارد، تفك عقدة طرحتها، تخفي وجهها بيديها وتطلق العنان لبكائها ونحيبها، تظل تبكي فشلها وضآلة صبرها إلى أن تنفجر شعيرات أنفها وتنزف دمها.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# 5

نادرًا ما عاش مالك يومه، إنه يسترجع دائمًا أمسه وأول أمسه وصولًا إلى أول عمره. هو يعرف سبب ولعه بالذكريات، أيًا كان لونها: إنه خائف من فقدان الذاكرة. هذا الهاجس يمثل له رعبًا أكبر من رعب فقدانه ليلى. لو فقد ليلى وهو يتمتع بالذاكرة فقد يستطيع استعادتها، لكن كيف سيستعيدها وهو بلا ذاكرة؟

إنه يؤمن أن استرجاعه لذكرياته هو حصنه ضد الخرف.

مالك، الذي يقف الآن في قلب حجرة مكتبه بالجامعة، يتذكر أنه ذهب إلى جنة باسوس حيث سكينة الحب التي تظلل بيت صديقه جاد المولى وزوجته نادية. قال لجاد كل شيء عن اتصال أمن الدولة، فدعاه صديقه إلى الهدوء والمبيت لديه لكي لا تقتله الهواجس.

في تمام العاشرة من صباح الأربعاء كان يتلو الفاتحة والمعوذتين والإخلاص ويبتهل إلى الله، سائله النجاة وهو يمشي خلف موظف سيقدمه إلى العمري باشا.

هذا ليس مقر عمل رسمي خطير، هذا مقر أنيق لشركة سياحة عالمية، لا ينقصه شيء إلا ظهور السيقان البيضاء الملتفة للمضيفات الجميلات. كيف يعذبون الناس هنا؟

هل التعذيب والقهر والقمع والسحل والقتل مجرد شائعات متوارثة؟

لا يمكن عقلًا تعذيب أحد في هذه الإضاءة الخافتة والعطور الهامسة والسجاد الوثير والزجاج الشفاف اللامع.

من النعم التي مَنَّ الله بها على مالك أنه مصاب بما يطلق هو عليه «شرود ما حول الحدث»، إنه دائمًا ما يغادر الحدث ويفكر فيما حوله، بل وفيما بعده وما قبله، صانعًا سلسلة مترابطة من الأفكار تأخذ بيده إلى خارج الحدث، فيبدو مظهره متماسكًا كأنه لا يهاب شيئًا.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كف العمري باشا من الأكف التي يخشاها مالك في الرجال، كف لينة بضة ناعمة، كف فخمة كلها سلطة ونفوذ.

من نكبات مالك التي لا فرار منها أن صوته وصفحة وجهه شفافان، يفضحان ما في داخله، وليس في داخله الآن سوى الخوف. جوفه ممتلئ خوفًا حتى حافته، إنه مترع بالخوف.

اعتصم بالصمت وتشاغل بالنظر في زهور السجادة التي تغطي أرض الغرفة، لكي لا يسمع الباشا صوته ولا يرى تفاصيل وجهه.

جاءه صوت الباشا واثقًا حاسمًا:

. أنت طيب يا دكتور، وبعضهم يستغل طيبتك في اللعب من خلف ظهرك.

رد مالك بنبرة دعا الله كثيرًا أن تكون هادئة:

. جعلني الله أهلًا لثناء سيادتك، ولكن عفوًا لا أفهم معنى جملتك الأخيرة.

عاد الباشا بظهره إلى الخلف وهو يقول:

. ما معنى «حركة ٩ مارس»؟

سارع مالك بالرد:

. لستُ من أعضائها.

قال الباشا:

. أعرفهم عضوًا عضوًا، وأعرف أنك تركت تلك الخرافات من زمن بعيد. ولكن يا دكتور، هل الجامعة واقعة تحت الاحتلال البريطاني حتى ينادي أبو الغار ورضوى عاشور وعبد الجليل مصطفى بضرورة استقلالها؟

رضوى من جامعة عين شمس فكيف دخلت إلى جامعة القاهرة؟ هل أصبحت جامعة القاهرة وكالة بدون بواب؟



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

القرآن الذي ينهمر بداخل مالك فعل فعله في تهدئة جوفه الخائف، فعاد إليه بعض صوته الواثق، وقاطع أشرف قائلًا:

. سيدي ما لي أنا وهذه القصة؟ لست رئيسًا للجامعة ولا عميدًا للكلية، أنا رئيس قسم من بين مئات مثلي.

أشار إليه أشرف بكل كفه الفخمة وقال:

. أعرف، ولكن قريبين منك يعملون لصالح «كفاية». ضع يا دكتور ألف خط تحت «قريبين منك» هذه، خذ حذرك، نحن لن نترك البلد للفوضى والعملاء. البلد مستهدف يا دكتور، وأنت تعرف أن الاستقرار الذي صنعه سيادة الرئيس يغيظ كثيرين في الداخل والخارج. كل هؤلاء سنضربهم بيد من حديد.

كان صوت الباشا، باشا مثله، صوت تعوَّد على إلقاء الأوامر، صوت نفاذ لا راد له ولا معقب عليه.

كلمتا «قريبين منك» زلزلتا مالك، حتى إنه يتعجب كيف لم يمت منهما. لا يزال مالك يتنفس، الكلمتان أوقفتا انهمار القرآن بداخله: «يقصد مَن؟ هل يقصد ليلى؟».

«ليلى، لا، يا رب، ليلى، لا».

أخرجه صوت أشرف من شروده اللعين:

. هل فهمتني يا دكتور؟

رد مالك:

. نعم، نعم.

قال أشرف:

. البلد الآن على المحك، مَن سيتأخر عن خدمة البلد سيكون من الطابور الخامس، وهؤلاء لن نتركهم. من الغد، بل من الآن يجب عليك أن تنبه بالطريقة التي تحلو لك . لن نفرض عليك شيئًا . على كل مرؤوسيك وطلابك والقريبين منك، بضرورة الابتعاد عن



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«٩ مارس»، وعن «كفاية»، وعن «٦ أبريل». لقد نفد وقت الهزل.

لم يجد مالك ما يرد به فهز رأسه موافقًا. تخلص أشرف من لحظة الصمت التي طالت بأن قال:

. إفشاء أسرار اللقاء لن يكون في صالحك.

غمغم مالك برد، هو لا يعرف كلماته، ثم قام ليغادر. وقف أشرف باشا وودعه، شادًّا على يده كأنهما صديقان قديمان. عندما كاد مالك أن يخرج من باب المكتب استوقفه أشرف:

. ثانية واحدة يا دكتور.

عاد مالك فأشار إليه أشرف بالجلوس، فجلس وقد أصبح متأكدًا من أن اليوم لن يمضي على خير.

سلط أشرف باشا عينيه على مالك قبل أن يسأله:

. هل هناك شيء في اللغة اسمه «أسمر»؟

رد مالك والأرض تدور به لأنه لم يعد يعرف لماذا هو هنا أصلًا:

ـ السُّمرة: منزلة بين البياض والسواد، ويقولون إن السُّمرة لون يضرب إلى سواد خفي.

صاح أشرف في فرح:

. يعني الأسمر هو الأسود؟

كادت روح مالك أن تزهق وهو يرد:

. لا يا سيدي، الأسود هو الأسود، أما الأسمر فلا هو أبيض ولا هو أسود.

قال أشرف:

. هجين يعني؟

أجابه مالك:



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

. هو كما تحب سيادتك.

مالك، الذي لا يزال واقفًا في قلب غرفة مكتبه بالجامعة، يؤمن بأن «٩ مارس» و«كفاية» و«٦ أبريل» لها الحق في التظاهر السلمي وفي الاعتصام، بل وفي الإضراب، ولكن ما محصلة ذلك كله؟ إنه الصفر الكبير، الصفر الكوني الذي لا مهرب منه. في شبابه، أبحر مالك في القراءات التاريخية، فعرف منها أن مصر ملكية، يموت ملك فيقوم آخر مقامه، الكلام عن التداول السلمي للسلطة وفتح الأفق السياسي وتنظيم انتخابات حرة لم يحدث في مصر على مدار تاريخها، فما الذي سيجعله يحدث الآن؟

لقد طلب مالك من زملائه الثلاثة أن يحذروا زملاءهم وطلابهم، بطرق خفية، من الانضمام إلى «٩ مارس» أو «كفاية» أو «٦ أبريل». نعم، هو كان يستشعر غرابة مطلبه، بل كان يشعر بالعار وهو ينقل لزملائه تهديدات أمن الدولة. ولكن ما باليد حيلة، أمن الدولة هم تتار العصر والوقوف في وجههم عبث محض. ليت ليلى تنجو من مخالبهم.

لو عرفت ليلى كيف يقتله القلق عندما يتخيل مجرد تخيل أن شرًّا قد يقترب منها، لكفت عن الجري خلف أوهام الثورة.

ليلى لا تعرف الصوت الآمر النافذ لأشرف باشا، وليتها لا تعرفه أبدًا.

عزم مالك على أن يلتقي بليلى اليوم بأي طريقة كانت ليحاول معها محاولته الأخيرة.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# 6

خلع أشرف ملابسه وألقى بها في سلة الغسيل، ثم هبط بثقله في المغطس. ساعة الحمَّام هي ساعة خالصة لشكر وتقدير بثينة. كيف كانت حياته ستمضي لو لم يعثر عليها؟

امرأة لا تفعل شيئًا سوى الاهتمام به وتدليله، ثم تدخله ليلًا إلى مغارات كنوزها، حتى حمَّامه لا يغيب عن اهتمامها، لقد جلبت له أشياء لم يكن يعرف بوجودها في الحياة، كريم مُنعم وآخر مرطب وثالث منعش ورابع مهدئ، كل هذا من أجل حمَّامه، بل من أجل جلده هو وبشرته هو، هو فقط.

كاد جسد أشرف يختفي تحت فوران شامبوهات وكريمات الحمَّام التي تتفنن بثينة في وضعها. فجأة ضحك حتى كاد ماء مغطسه أن يدخل فمه: لقد تذكر رعب الدكتور مالك من كلامه.

الرجل كان سيموت من الخوف، ويحاول أن يكابر وينشغل بالنظر إلى السجادة. مضحكون هؤلاء المثقفون، هم أجبن من أحقر صرصار يدهسه بحذائه ولا يبالي، ومع ذلك يشعلون البلد كلامًا وفتنًا وخيانة.

عاد يضحك في بهجة لا مزيد عليها وهو يتخيل كيف ستكون هيئة مالك لو فعل معه ما سيفعله مع خلف. حتمًا سيبول مالك على نفسه.

عاد أشرف في هدوء وعطور الحمَّام يحادث نفسه:

«لماذا تلاعبتَ بالرجل كل هذا التلاعب ودمرت له ما بقي من أعصابه؟».

«كنتُ أريد أن أعرف هل لكلمة «أسمر» من وجود؟».

«ضغطة واحدة على أي موقع من مواقع الإنترنت كانت كافية لتقدم لك الإجابة عن سؤالك».

«لا ليس الأمر هكذا، فأنا لم أصبح ضابطًا عظيمًا إلا لأنني أنفذ



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طريقة أستاذي، سيادة العميد محسن الخراط: «ارعب المرعوب، يخاف الجريء». ثم تلك المقابلة ستجعل الرجل يبذل أقصى جهده لكي لا تواصل «كفاية» و«٩ مارس» و«٦ أبريل» انتشارها في الجامعة، وهذا بدوره سيؤدي إلى تخفيف الضغوط على فريقي الذي يتولى مكافحة تلك الحركات الهدامة».

هل الجنة جنة واحدة أم جنات؟

جنة مع بثينة، وجنة مع ولديه وائل وزينب، وجنة مع أبويه الحاج عاصم وزينب هانم، وجنة مع رضاه عن نفسه... ما أكثر الجنات التي يمرح فيها أشرف باشا، الذي يجلس مرتاحًا وواثقًا في قاعة فندق فخم تطل على النيل مباشرة وحوله أبواه وولداه وبثينة.

الحاج عاصم العمري في ملابسه البلدية الفخمة يملأ مقعده، ويأتي إلى مائدته ليس مدير القاعة وإنما مدير الفندق نفسه، لكي يشرف على تلبية طلباته.

قدم الحاج عاصم إلى ابنه الحبيب شيكًا بخمسة ملايين جنيه، لأن بلوغه الأربعين مناسبة تستحق مبلغًا كهذا. تقبل أشرف الشيك ممتنًا وشاكرًا لأبيه تواصل كرمه. قدمت زينب هانم إلى بثينة علبة من القطيفة بداخلها طقم ألماس مكونًا من خاتم وعقد وحلق وأسورة، وذلك على سبيل المكافأة على رعايتها لأشرف باشا.

لم تنسَ زينب هانم أن تقول لبثينة:

. وحياتك لقد أوصيت محلات عمر محمود على هذه القطع منذ ستة أشهر.

ثم مالت الأم على ابنها هامسة:

- هديتي لك هي أنني سآخذ أولادك لكي تحتفل مع بثينة كما تحب.

ضحك أشرف لهمس أمه، إلا أن بثينة على غير عادتها كادت أن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ترتكب فعلًا أرعن كان سيفسد الليلة، وذلك لأنها همت بتقبيل أشرف هكذا على الملأ، وهو أمر لم يسمح به أشرف قط ولن يسمح به أبدًا.

فورًا عادت بثينة للباقتها ومهارتها، فألقت لأشرف بنظرتين، الأولى تعتذر بها عن طيشها، والثانية تعده بها بلقاء من لقاءاتهما الخرافية الأسطورية.

عندما هدأت حركة الاحتفال سأل الحاج عاصم ابنه عن انتخابات مجلس الشعب القادمة.

رد أشرف قائلًا:

. حتى اللحظة لم يصلنا ميعادها النهائي، ولكن المؤشرات تدل على أن ميعادها سيكون بعد شهرين من الآن. الحزب مهتم بها جدًّا لأنها ستكون المعبر للقيادة الجديدة.

باهتمام سأل الأب:

. هل حقًّا سيتنازل الرجل الكبير لابنه؟

رد أشرف:

. لقد تنازل فعلًا، الباقي أمور شكلية مثل إجراء انتخابات مجلس الشعب وبعدها الانتخابات الرئاسية. لقد جهزنا المسرح للعملية الكبرى، الابن شاب ومتعلم ولديه اتصالات دولية مهمة، وعلى يديه سيشهد البلد قفزة كبرى. هناك استقرار صنعه الرجل الكبير بحنكته، وسيضيف هو إليه كمية مهولة من الاستثمارات. أبشر يا حاج، سوق العقارات سترتفع إلى عنان السماء.

ضحك الحاج عاصم وهو يقول:

. النعم كثيرة بفضل الله، ولكن هل ستطلبون مني كالعادة أن أنفق على حملات مرشح أو اثنين من مرشحي الحزب؟

ابتسم أشرف وهو يقول بثقة:



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

. هذه المرة مختلفة، لأن المطلوب هو الاكتساح وليس شيئًا أقل منه. كل مرشحي الحزب سينجحون بتفوق يكسر عظام منافسيهم من «إخوان» و«كفاية» وغير ذلك من أحزاب وحركات. سيطلبون منك دعمًا ولكن بعد الانتخابات وليس لأجلها.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# 7

هاتفَ مالكُ ليلى كثيرًا ولكنها كانت تتجاهل الرد عليه، فأرسل لها رسالة يرجوها الرد لأنه يحتاج إلى رؤيتها في أمر مهم. تأففت ليلى من إلحاح مالك، فاضطرت إلى الاتصال به وأبلغته في كلمات قليلة بأنها لن تستطيع رؤيته لأنها منخرطة في عمل غاية في الخطورة. قالت جملتها ثم أغلقت هاتفها.

من معتقدات ليلى الراسخة أن كل إنسان يمشي في الحياة وهو يحمل بين جنبيه دملًا ما، قد يكون صغيرًا وقد يكون كبيرًا، قد يكون سطحيًّا وقد يكون متواريًا تحت طبقات الجلد، بل قد يكون محتلًّا لبقعة ما في الروح أو العقل أو القلب.

أمام معتقدات الدمل هذه تؤمن ليلى بحتمية الذهاب إلى قلب الدمل والتعامل معه بمنتهى الحسم، فإما أن يسفر التعامل عن تصفيته والشفاء منه، أو يربح المصاب الجرأة على الاعتراف بوجوده والتعايش معه بوصفه قدرًا لا مفر منه.

تعتقد ليلى أن دملها هو الأخطر لأنه في قلبها وروحها وعقلها. دملها ليس سوى والدها المهندس عمر محمود.

أخيرًا قررت ليلى التعامل معه. لا مفر من مواجهة الأب، ستكتب حياته كما عرفتها وأثناء الكتابة سينزف قيحها حتى يظهر الدم الأحمر النظيف.

في قاعة المطعم الصحراوي الذي تلجأ إليه كلما ضاقت عليها الأرض، وبينما عازف البيانو يعزف لحن أغنية «غرباء في الليل» لـ«فرانك سيناترا»، فتحت ليلى اللاب توب وبدأت في الكتابة:

حبيبي مالك،

كان من المتوقع أن يكون أبي، المهندس عمر محمود، صيادًا لأنه سكندري أصيل، إضافة إلى نشأته في «بحري» حيث لا يعمل شاب مثله سوى في الصيد. ولكنه أسقط كل التوقعات وأصر، على الرغم من ظروف أبيه (جدي) المالية القاسية، على الالتحاق



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالتعليم. كان جدي الموظف البسيط بهيئة البريد يتألم وهو يرى ولده الذي في العاشرة من عمره يعمل في محل كهرباء ويتحمل ما هو فوق العذاب من الأسطى الكهربائي صاحب المحل.

بعد حصول أبي على الشهادة الإعدادية، التحق بمدرسة الصنائع قسم كهرباء، وبعد تخرجه حصل على إعفاء من الجيش لأنه كبير عائلة، فهو الذكر الوحيد بين أربع شقيقات.

توقف كل شيء مع وقوع النكسة، فلم تعد هناك سوق للكهرباء ولا مراكب للصيد، وحتى البحر خاصمته أمواجه. ضاقت الإسكندرية على الشاب الذي سيصبح أبي، ففر إلى القاهرة التي كان يتعامل معها بوصفها بلد النكسة أو المسؤولة عنها. من بين مئات الأحياء التي تضمها القاهرة، هبط أبي على حي خان الخليلي. في جلسة واحدة تعرف إلى الحاج مسعود كبير تجار الفضيات. لم تكن ثمة علاقة تربط أبي بالفضيات، كان يراها كغيره معروضة في واجهات محلات الإسكندرية، لم يتشوق يومًا لاقتناء شمعدان أو طبق، بيت أبيه لا يتسع لمثل تلك الأشياء.

شيء ما في شخصية أبي يجعله محبوبًا ومهابًا. عندما وصل إلى ما وصل إليه من مجد وثراء، كان كثيرًا ما يفكر في طبيعة هذا الشيء الذي يجعله محبوبًا ومهابًا. ثم عندما يعييه التفكير ينفض يده من الأمر كله، ويقول لي: «إن ما وصلت إليه هو ترجمة إلهية لدعوة من دعوات عمتك أسماء».

بالحب والهيبة شق أبي طريقه إلى محل الحاج مسعود ثم إلى مخزنه السري ثم إلى ورشته الأشد سرية.

قد يعيش العامل في عالم الحاج مسعود ويموت وقدماه لا تعرفان طريق المخزن أو الورشة. أما أبي فقد اجتاز كل هذه الرحلة في أقل من سنة، ودون مجهود يذكر. الدنيا تسير معه هكذا، هو يعمل بجدية ودون افتعال أو تصنع، ثم تظلله دعوات ونبوءات عمتي أسماء. تلك هي المعادلة التي يعيش أبي وفقها.

الحاج مسعود ليس كغيره من أكابر التجار، هو لم يتزوج سوى



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مرة واحدة، ولم يرزق سوى بنت واحدة. ولكن لديه سبعة أشقاء وكل شقيق منهم لديه أولاد ذكور، وكل شقيق يتمنى أن يتزوج ذكر من ذكوره من سعاد ابنة الشقيق الكبير الحاج مسعود، إن لم يكن لجمالها الذي يضربون به المثل، فلثروة أبيها التي هي فوق الحصر.

هذه المعلومات العائلية شائعة جدًّا في أرجاء الخان، وحتمًا وصلت إلى أبي، وربما وصل إليه ما هو أكبر منها وأشد خطورة، لكنه لا يهتم ولا يسعى لتدقيق معلومة أو الحصول على إضافة، مكتفيًا بنشوة الرزق الوفير الذي أصبح يجنيه من خلال عمله مع الحاج مسعود، فهو بعد أن صنع إضاءة متميزة للمحل والمخزن والورشة، سلم نفسه ليدي الحاج الخبيرتين.

المحبة والهيبة جعلتا الحاج يثق به، بل يحبه، فراح يسقيه فنون الصنعة قطرة بعد قطرة.

عاش أبي وهو لا يعرف كيف تفوق، في معرفة أسرار الصنعة، على صناع أفنوا أعمارهم في دنيا الفضيات.

سيظل أبي يتذكر دائمًا الساعة التاسعة من صباح يوم السابع عشر من أغسطس من العام ١٩٧٠.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# 8

يحتقر أشرف كل الذين يتعاطون الفنون، وبخاصة الكُتاب منهم، يراهم شيئًا يثير اشمئزازه كأنهم ضفادع ميتة. إنهم جماعة ضالة لا يعرف أحد لهم رأسًا من قدمين، جماعة من الحقراء الذين يشمخون بأنوفهم على غير شيء ويملأون البلد ضجيجًا تفيض به رؤوسهم الخربة. لكنه أحيانًا يحسدهم، أو بمعنى أدق يحتاج إلى طريقتهم لتصوير الأشياء الغامضة التي تجتاحه عندما يكون مع بثينة في لقاء من لقاءات السرير الخرافية.

دائمًا ما يسأل أشرف نفسه: «ترى لو عاش أحدهم شيئًا من هذا الذي يجري في كياني، كيف كان سيعبر عنه؟».

إنه ليل أكتوبر الشهي. دائمًا ما يشعر أشرف أن ليل أكتوبر ليس كغيره، هواؤه محمَّل برائحة أشجار الحديقة. بثينة أيضًا لعرقها رائحة أشجار الحديقة.

أشرف ينتظر خروج بثينة من الحمَّام. يتمدد على سريره، يتناول هاتفه المحمول ويدخل كلمة السر التي يفتح بها الملف الخاص بصورها. مشاهدته للصور تجعله ينتشي بطريقة ما، مع أن الصور ليس بها عري أو إغواء، ولكن حصر جسد بثينة في مقطع مصور ينعشه ويضاعف رغبته المتأججة على الدوام.

يشم رائحتها، فيعرف أنها قد فتحت باب الحمَّام وهي في طريقها إليه. هنا يحتاج أشرف إلى شاعر أو مؤلف أغانٍ لكي يشرح له في كلمات بسيطة معنى رائحة بثينة.

تدخل عليه باسمة في خجل، هو يحب بسمتها وخجلها، هي تعرف ما سيحدث، بل إنها بعد قليل ستتوحش ولكنها تبدأ دائمًا من نقطة الخجل، وهذه البداية تنعشه أيضًا.

أشرف لا ينام مع زوجته ولا يضاجعها ولا يعاشرها ولا يمارس الحب معها، كل تلك المصطلحات هي مصطلحات باردة جوفاء بلا معنى. المصطلح الوحيد القادر على وصف حالة أشرف هو أنه



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«يتناول» بثينة، كما يتناول الذواقة الشبعان ثمرة مانجو مترعة بعسلها. ليس هناك تسرع التهام الجائع ولا همجية المحروم. إنه تناول المتأمل المتذوق الشبعان.

عبقرية بثينة تتجلى في تنفيذها المحب لكل رغبات أشرف، حتى تلك الرغبات التي يومئ إليها مجرد إيماءة بسيطة.

تنتهي بثينة من إنجاز كل فنونها وهي في الحمَّام، وتغادره مرتدية نقابها!

نعم، أشرف يحبها متنقبة. في كل مرة تكون مرتدية نقابًا جديدًا. هي تشقى لتحصل على ألوان مختلفة لنقابها. فكرتُ مرة في تفصيل النقاب لدى خياط أو خياطة فنهرها أشرف، لأنها هكذا ستكشف سرًّا من أسرارهما. يجب أن تتم كل الأمور في سرية تامة.

ليس تحت النقاب شيء. لا يحب ليديه أن تلمسا شيئًا غير نعومة جسد بثينة. هو يعرف طريقه إليها جيدًا. تستلقي بجواره ووجهها يفيض بخجل حلو، تذهب يداه إلى ما تحت نقابها الذي لا يُظهر منها سوى لمعة عينيها المكحلتين، يداعب بطنها كثيرًا ثم يهبط إلى فخذيها، تتأوه آهات قصيرة مرتعشة، يذهب إلى نهديها يقبض عليهما في لطف، تعلو آهاتها، يشبع من مداعبة نهديها فيتركهما متحسسًا شعر إبطيها، تلك علامة من علامات عبقرية بثينة. قال لها مرة بطريقة متعجلة:

. أحب شعر إبطيك وعانتك.

ومن يومها وهي تتفنن في المحافظة عليهما، لا هما طويلان فينفر منهما ولا هما قصيران فلا يشعر بملمسهما. إنهما كما يريدهما تمامًا دون زيادة ولا نقصان.

من علامات عبقرية بثينة أيضًا أنها لا تسأل أبدًا، هي تستمتع بالعطاء كما تستمتع بالأخذ.

في اللحظة التي تنمو فيها موجة مده، يطفو شبح شيخوخة



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بثينة أمام عيني أشرف، فيتألم وهو يسأل نفسه: «كم سأفتقد لون شعر عانتها البني؟».

يأخذ نفسًا عميقًا ثم يطرد الشبح عن عينيه وهو يتمتم:

. البركة في الحناء.

بثينة تعرف ما يخطر على باله، فتنعشه بآهة من آهات لذتها فيقوم إليها كأن الليلة هي ليلتهما الأولى.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# 9

عندما بعثرت الثروة أسرة ليلى لم يعد لها سوى عملها وبيت ميرفت. تغادر ليلى مقر عملها لتذهب مباشرة إلى بيت ميرفت، تأكل ما حضر ثم تختلي باللاب توب لتواصل الكتابة عن أبيها لمالك:

مالك الحبيب،

اسمعني جيدًا يا حبيبي. أنت كاتب بنعمة الموهبة، أما أنا فكاتبة بضغط الألم. فلا تلح عليَّ في اللقاء حتى أنتهي من معالجة دملي الذي تأخرت كثيرًا في علاجه.

مالك الحبيب،

كان أبي قد أصبح مشرفًا على المحل، بل أصبح له، بعد الحاج طبعًا، حق اختيار القطع المعروضة في الفاترينة. في الساعة التاسعة من صباح يوم السابع عشر من أغسطس من العام ١٩٧٠، كان يجلس منتظرًا فرج الله بعد ركود طال، فدخل عليه رجل يرتدي ملابس أهل الخليج. وبعد المقدمات الضرورية، عرف أن الرجل من أثرياء الكويت، وله بنت ستتزوج ويريد أن يشتمل جهازها على فضيات لا يوجد مثلها في بيت كويتي آخر. سيضحك أبي عندما يخفض الرجل صوته وهو يهمس:

. فضيات ليس لها شبيه ولا في قصر الأمير نفسه.

رد أبي بحنكة السوق التي تعلمها من الحاج مسعود:

. لكن الأمر سيحتاج إلى زمن طويل وإلى مال وفير.

قال الرجل بحسم:

. بالنسبة إلى الوقت ليس أمامكم أكثر من أسبوعين، وتسهيلًا عليكم جئتكم برسوم للفضيات التي أريدها، وضعْ في حساباتك أنني جئت لكم بعد أن سمعت كثيرًا عن تفردكم وتميزكم. أما بالنسبة إلى المال فلا تنشغل به، من ألف جنيه حتى خمسة آلاف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عندما رأى أبي استهانة الرجل بالمال هكذا كاد يصاب بنوبة إغماء، ثم تمالك نفسه وأدرك أنه أمام إحدى صفقات العمر، فضرب لثري الكويت ميعادًا بعد صلاة عصر اليوم لكي يحسما الصفقة. ثم هاتف الحاج مسعود طالبًا منه تحديد لقاء عاجل لأمر مهم جدًّا. رد عليه الحاج ببساطة وأملاه عنوان بيته في شارع قطز بالمنيل.

مالك الحبيب،

كان أبي يجلس مع الحاج في الغرفة البحرية التي تطل على الحديقة ذات الأشجار العريقة. بعد طرقة لطيفة على باب الغرفة دخلت سعاد، فبهت أبي الذي لم يكن شابًّا ريفيًّا ساذجًا، إنه سكندري بالأساس وقد عرف بنات بلد وبنات أجانب أكثر من عدد شعر رأسه، لكن التي أمامه الآن ليست بنتًا.

هي في نحو السابعة عشرة من عمرها، لا، هي في السابعة عشرة من نورها، نور يرتدي جلبابًا بيتيًّا بسيطًا لونه أزرق، ومزينًا بزهور حمراء صغيرة حول طوق الصدر. النور يحمل صينية بيضاء فوقها كوبا عصير برتقال مثلج. النور لا يستر شعره الأسود شيء. معصما النور ظاهران، جسد النور نور، لا زيادة هنا ولا نقصان هناك.

وضع النور الصينية على الطاولة ثم خرج.

«كارثة تحلق فوق رأسي الآن». هكذا قال أبي لنفسه.

يد قوية غشوم راحت تعتصر أمعاءه، فنظر إلى الحاج يرجوه السماح له بالذهاب إلى الحمَّام فورًا.

في الحمَّام كان دائخًا ويشعر بالعرق يملأ قناة ظهره. أفرغ القليل الذي في جوفه فشعر ببعض الراحة.

عندما عاد إلى مجلس الحاج أبدى الحاج انزعاجه الشديد مما حدث له.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان الخجل يكسو صوته وهو يرد على الحاج مهونًا وناسبًا الأمر إلى نوبة برد أصابت بطنه.

عندما انتهت المقابلة وخرج من بيت الحاج مسعود، حاول جاهدًا تذكر مضمونها أو حتى تذكر رأي الحاج في صفقة الرجل الكويتي، فلم يجد في رأسه سوى طنين كطنين الذباب.

عاش أبي حياته كلها وليس له أعداء إلا الغموض، إنه يكره الغموض كما يكره المبصر فقد عينيه. وهو فور مغادرته لبيت الحاج كان يخوض إحدى أشرس معاركه مع الغموض. ما الذي حدث له؟ هو لا يعرف.

مَن سعاد هذه حتى تصنع به ما صنعت؟ ثم هل هي مسؤولة عما حدث له؟ إنها لم تنظر إليه نظرة.

ليس في رأسه سوى طنين الذباب، هو لا يحب لنفسه حالة الضياع هذه، إنه دائمًا مسيطر متمكن. عرض على نفسه الجلوس في مقهى لشرب القهوة والتدخين، ومع رائحة بخار فنجان البن المحوج ونكهة السيجارة «البلمونت» سيتمكن من حل اللغز. ولكن أي لغز؟ ليس هناك ألغاز، هناك شيء غامض ضرب أمعاءه وانتهى الأمر.

ظل أبي يعطي ويأخذ مع نفسه حتى اصطدمت يمينه بشيء لدن، استفاق فوجد امرأة ترميه بنظرة احتقار ثم تواصل سيرها.

ما الذي جاء به إلى محطة مصر؟

إنها أسماء، شقيقته، تناديه، ليس غيرها، لديها حل للغزٍ ضرب أمعاءه في مقتل.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# 10

في زمن الصفو القديم، لم يستخدم مالك مفتاح باب شقته إلا في مرات نادرة. كان إذ يعود من عمله يقف منتصبًا أمام الباب، ثم يطرق الشراعة الزجاجية طرقتين، وقبل الطرقة الثالثة تكون محاسن قد فتحت الباب، إلى يمينها يقف أحمد متخذًا هيئة رجل وقور، وخلف ظهرها يختبئ الصغير عصام وعلى يسارها تقف هدى متنمرة. في كل مرة كان الأولاد الثلاثة يباغتونه بالهجوم، وكان يضحك ملء قلبه في كل مرة ويرفعهم جميعًا على كتفيه وظهره، بينما محاسن تدس نفسها في حضنه.

ما كان مضى ولن يعود ثانية. الآن يخرج المفتاح من جيبه ويفتح الباب ليجد الصمت ورائحة محاسن. أولاده، أو بالأحرى أولادها، كلٌّ في شأنه: هدى تعبث بهاتفها المحمول ولا تكف عن عبثها، عصام يشاهد أفلام رعب تبثها قناة متخصصة في تلك النوعية من الأفلام، وأحمد عاكف على اللاب توب، يفعل شيئًا ما.

يقوم الثلاثة على مضض لمصافحة مالك، ثم يعودون لما كانوا فيه. تخرج محاسن من المطبخ أو الحمَّام، دائمًا ما تخرج من أحد المكانين، يداها مبتلتان، تضعهما خلف ظهرها، يلقي عليها السلام فترد بغمغمة غير مفهومة.

يغادر مالك مشهده المميت هذا ويذهب إلى غرفة النوم. في الطريق يقرر ألف مرة أن يصرخ فيهم جميعًا: «اذهبوا جميعًا إلى الجحيم أو الخراء أيهما تفضلون، حلوا عن سمائي، أقلعوا عن أرضي».

لكنه أبدًا لم يصرخ ولو لمرة، يضحك ضحكة ساخرة مكتومة وهو يقول لنفسه: «أعرب ما تحته خط: المرأة الطاهرة تبل يديها لكي لا تصافح الرجل النجس».

في كل يوم كان يختار كلمة يضع تحتها خطه الوهمي ويعربها، معجبًا بذاكرته النحوية.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولد مالك وعاش شبابه في المنيل، ثم مات أبواه وتفرقت أسرته، فتزوج بمصادفة عمياء من محاسن. لم يعش معها في شقة المنيل أكثر من أسبوعين، ثم جاء زلزال أكتوبر من العام ١٩٩٢ ليهدد أساس العمارة، فغادر إلى شقة في شارع جانبي ضيق متفرع من شارع الملك فيصل.

ثم وفرت الجامعة لأساتذتها شققًا بأثمان معقولة في مدينة السادس من أكتوبر. سارع مالك بحجز شقة، ولن يقدِّر أحد كيف تعبَ في تدبير مقدم ثمنها وسداد أقساطها. أيام السكنى في المنيل أو فيصل كانت محاسن زوجة وكان هو زوجًا، كانت حياتهما بها حياة.

ظن مالك أن شقة «أكتوبر» ستعني الخروج من عشوائية وضيق فيصل إلى النظام والبراح، لم يدر بخلده قط أن «أكتوبر» ستكون لعنة تطارده ليل نهار. لقد اتخذته محاسن عدوًّا، فمتى كانت البداية؟ مَن الذي وضع نقطة السم الأولى في الكأس؟

كل الذين تهاجمهم أفعى، يظنون أنها قد هاجمتهم فجأة، ويظنون أن الأفعى لم يكن لها وجود بمحيطهم من قبل. كلهم لا يعرفون أن الأفعى قطعت، على مدار أيام وشهور وربما سنين، رحلة شاقة، هابطة من كهف جبلي إلى حيث تجلس ضحيتها هادئة مطمئنة. زحفها البطيء وتسللها الناعم يجعل ضحيتها تقسم أن الأمر كله وقع بغتة. وهذا ما حدث بين مالك ومحاسن، فمالك يظن أن محاسن قد حاصرها الخراب من كل جهة فجأة، بين عشية وضحاها، فقد نامت وهي مطمئنة واستيقظت لتقول له وعيناها في عينيه:

. ما الذي بينك وبين نادية زوجة جاد المولى؟

في بداية الكارثة، كان مالك يركبه الجنون ويظل يصرخ إلى أن يذهب صوته. ثم مع توالي الأسئلة . «ما الذي بينك وبين فاتن؟ وبينك وبين رحاب؟ وبينك وبين شيماء؟ و...؟» . تيقن أن الأساس قد ضربه زلزال الشك والاتهامات وأن حياته ستصبح قطعة من الجحيم أو أن الجحيم سيصبح كأنه يوم من حياته.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثم جرت تحت الجسور مياه كثيرة، إلى أن جاء يوم يتذكره مالك جيدًا بكل تفاصيله. كانوا كالعادة يتناولون طعام الغداء على مائدة واحدة، كان هو على رأس المائدة كالمعتاد، وكانت هي قصية بعيدة كما اعتادت أن تكون منذ سنوات. يومها، ولأمر لا يعرفه، قررت هدى أن تشاكسهما، فدعتْ أمها إلى الجلوس بجوار أبيها. لحظتها ارتبكت محاسن كأن أحدهم يعرض عليها ممارسة الفحشاء في قلب الشارع وتحت عين الشمس. ارتباكها طعن مالك طعنة مسممة، ابتلع طعنته كما هي عادته، جاءت وجلست على مقعد بجواره. عادوا إلى الأكل بعد ترتيب الجلوس، ثم عفوًا ودون قصد لمست قدم مالك قدم محاسن التي سارعت بأقصى سرعة تمتلكها وسحبت قدمها بعيدًا، ثم احتقن وجهها بغضب الذى توضأ فأحسن الوضوء ثم فجأة بال كلب على قدمه.

لم يلحظ أحد من الأولاد شيئًا. فقط رأوا أباهم يقف في هدوء وسمعوه وهو يقول:

ـ بارك الله لنا فيما رزقنا وقنعنا به، شكرًا لكم جميعًا على هذا الطعام الطيب.

ثم انسحب إلى ركن بعيد عن المائدة وبدأ يدخن.

كثيرًا ما قال مالك لنفسه: «إن تلك اللحظة كانت إعلانًا لموت كل شيء». ولكن الإعلان تكرر مرات كثيرة، وفي كل مرة كان يريد أن ينفجر في وجوههم كأنه قنبلة، ولكنه دائمًا كان ينسحب ليواصل تدخين سجائره واستحلاب مرارة هزائمه.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# 11

الحبيب مالك،

أبي هو الأوسط بين شقيقاته، ولدت قبله اثنتان هما فاطمة وهدى، وولدت بعده اثنتان هما أسماء ومنى. «بحري» كله يهاب أسماء، فهي كائن غريب عجيب، كل شقيقاتها وجاراتها تزوجن ورفضت هي كل عريس، لا أحد يجرؤ على مناقشة منطقها. هي تنتظر رجلًا ما سيأتي يومًا ما، تنتظر رجلًا يبدو حسب أوصافها كأنه جني البحر. الكارثة أنها على يقين من مجيئه، وهو يقين لا يشاركها فيه أحد من أسرتها أو معارفها.

كل ما يشغل الناس لا يشغل أسماء، وكل ما يشغلها لا يستدعي سوى سخرية صامتة أو شفقة خرساء. لا أحد يستطيع الوقوف في وجه غضبها، ولذا فالكل يهز رأسه أمامها موافقًا على ما تقوله، أما نيته فتظل بداخله لا يعلم حقيقتها سوى الله.

الحبيب مالك،

بما لديك من علم، هل اخترق «جين» عمتي أسماء حواجز المكان والزمان ليستقر في جسدي وعقلي وقلبي وليشكل روحي؟

أنا أيضًا أنتظر جني البحر، أنت جني البحر يا مالك وليس غيرك.

أعود إلى سياقي فأقول: ولأن أسماء هي أسماء فمن حقها أن تجلس مع شقيقها في مقهى من مقاهي «بحري»، تبدو جلستها طبيعية للغاية مع أنها تكاد تكون محرمة على غيرها.

قال أبي لشقيقته كل ما لديه، ظل لأكثر من ساعة يحكي ثم يحكي ثم يحكي عن نور كان يحمل كوبين من عصير البرتقال المثلج، وعن يد غشوم اعتصرت معدته.

كانت أسماء تنصت لكلامه صامتة، لا تسأل ولا تستفهم ولا تقاطع ولا تشجع، لا تفعل شيئًا غير الاستماع في صمت.

عندما انتهى قالت أسماء بهدوئها الذي يقذف الرعب في قلب



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سامعها:

. اسمع يا شقيقي، حتى لو تغابيت أو جبنت أو هربت، فهي لك.

اليد الغشوم عادت لتعتصر أمعاء أبي الذي راح يحدث شقيقته بنبرة باكية عن ألف حاجز بينه وبينها وعن...

لكن أسماء هبت واقفة وهي تقول له:

. سأسبقك إلى البيت لأعد لك الغداء، أما عشاؤك فسيكون في مقر عملك، لقد قضي الأمر.

القطار الذي أقله إلى الإسكندرية أعاده إلى القاهرة. طول فترة الرحلة تكاثرت عليه الخواطر حتى كادت أن تقتله، قام وقعد ألف مرة، نظر من النافذة للحقول التي يمر بها القطار، تحدث مع أعمدة التلغراف، سار بين العربات، سأل نفسه ألف سؤال: هل ما يعانيه عقوبة من الله على ذنب اقترفه؟

راجع حياته كلها منذ بلغ وإلى ساعته، هو كغيره من الشباب ولكنه لم يقترف الكبائر، لم يزنِ ولم يسرق ولم يقتل ولم...

إذن ما الذي يحدث له؟ لماذا يجثم على قلبه حجر ثقيل؟ لماذا فقدت الدنيا كلها بهجتها في طرفة عين؟

هل هذا هو الحب الذي يتحدثون عنه؟ لماذا الأمر كله يبدو متعلقًا بسعاد، التي لا يعرف عنها سوى أنها الجميلة ابنة الحاج وريثة الإمبراطورية.

هل يكون كلام أسماء صادقًا وتكون سعاد حظه من الدنيا؟ كيف ذلك والذين يتصارعون عليها يستطيع أقلهم شأنًا أن يرسل به إلى القبر؟

لو يستطيع إلقاء نفسه تحت عجلات القطار سيشعر براحة عظيمة وهو ينظر إلى أشلائه المبعثرة.

عندما دخل المحل وجد الحاج مسعود في انتظاره.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سلم عليه وهمَّ بأن يجلس لكن تعبيرًا غريبًا أطل من عيني الحاج جعله يتردد في الجلوس. وقف الحاج وقال له:

. اتبعني.

في مقهى الفيشاوي سأله الحاج، والتعبير الغريب لا يزال على وجهه:

. أين كنت من ساعة أن غادرت بيتي؟ وإياك والكذب.

رد أبي:

. ذهبت إلى أهلي في الإسكندرية.

سأله الحاج، والتعبير الغريب ينتشر من عينيه ليحتل كل وجهه:

. لماذا تذهب إلى الإسكندرية وتعود في أقل من نصف يوم؟ مرة ثانية أحذرك من الكذب.

مرة ثالثة عادت اليد الغشوم لتعتصر أمعاءه، فرد بصوت مختنق:

. لقد ذهبت إلى الإسكندرية لأن مصيبة وقعت على رأسي.

انتبه الحاج مسعود جيدًا وقاطعه متسائلًا بنبرة منزعجة:

. أي مصيبة؟

صمت أبي ثم فجأة انخرط في نوبة بكاء أشبه بالعواء، بكاؤه أكد شيئًا للحاج الذي قال له:

. كنت أعرف أنك ستبكي، لقد ذهبت بوجه وعدت بغيره.

عندما تمالك أبي نفسه وكف عن بكائه قال للحاج:

. إن كان بقائي في خدمتك يلزمني بأن أحدثك عن مصيبتي فاتركني أعود إلى أهلي وسأظل شاكرًا أفضالك عليَّ.

رد الحاج بأسى:

. كنت أظنك حمارًا فإذا بك جحش صغير بلا تجربة ولا خبرة.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والآن قم بنا.

كأنه مسحور بلا إرادة، تبع أبي الحاج مسعود وصعد معه إلى سيارته وهو لا يزال يشعر بأن حجرًا ثقيلًا جاثم على قلبه.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# 12

دخل أشرف غرفة احتجاز خلف حامد، فوجد الرجل هادئًا كما تركه.

في هدوء مقابل، دعاه أشرف إلى الجلوس، بل عرض عليه أن يدخن، مع أن أشرف يكره التدخين كراهيته للموت. اعتذر خلف عن عدم قبول عرض أشرف بالتدخين، لأنه يحب التدخين في الخلاء لا في غرفة مغلقة.

ابتسم أشرف ابتسامة صغيرة ثم قال لخلف:

. لديَّ خطة اسمها «الخطة صفر»، وهي تلزمني بثلاثة أمور: الأول، الحفاظ على حياتك؛ الثاني، عدم ترك علامات تدل على تعرضك لأي إيذاء بدني؛ الثالث، إطلاق سراحك ولكن بعد أن تكون قد فقدت عقلك تمامًا. بيدك أن تنقذ نفسك من خطتي، فكن عاقلًا ولا تترك الأوهام تفترس رأسك.

رد خلف متسائلًا:

. كيف أنقذ نفسي منك أو من خطتك؟

قال أشرف:

. كن صريحًا وواضحًا تنقذ نفسك.

قال خلف:

. وكيف ذلك؟

قال أشرف:

. أنت عضو في تنظيم غير شرعي يهدف إلى تخريب البلد، اسمه «تنظيم كفاية»، وأنت لم تنكر ذلك. وقد وجدنا في بيتك منشورات للتنظيم تدعو إلى التظاهر وتكدير الأمن العام، وأنت لم تنكر حيازتك لتلك المنشورات. السؤال هو: مَن مِن قيادات «كفاية» أعطاك المنشورات؟ لو قلت لي إن الأفكار الهدامة التي



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في المنشورات هي أفكارك فلن أصدقك.

رد خلف قائلًا:

. وما جدوى كلامي إن كنت قد قررتَ سلفًا ألا تصدقني؟

هز أشرف رأسه في أسى بدا وكأنه حقيقي وقال:

. هكذا أنت تدفعني لتنفيذ الخطة صفر، ولكن لا تزال لديك فرصة للنجاة لو أجبت عن سؤالين أخيرين: مَن الذي مول طبع المنشورات؟ وفي أي مطبعة طبعتها؟

رد خلف مندهشًا:

ـ هل سيادتك جاد فعلًا في سؤاليك؟ هل طباعة مائة ورقة يحتاج إلى تمويل وإلى مطبعة؟

يا أفندم الأمر هو كما يلي: أنا عامل نعم ولكني متعلم، وأعرف كيف أستخدم الكمبيوتر. اشتريت رزمة ورق بعشرين جنيهًا وكتبت ما كتبته وأصله موجود على الكمبيوتر الذي جعلتموه ضمن أحراز القضية. وعندي في البيت، كما تعلم، طابعة صغيرة، وبضغطة على مفتاح الطبع، تم طبع الورق. هذا كل ما في الموضوع، وأنا أرى أن سيادتك تحاول صنع قضية من قشر بصل.

بعلامات اليأس الكاملة وقف أشرف ثم صاح:

. تعالوا!

فورًا دخل الغرفة ثلاثة رجال، يؤكد تكوينهم الجسماني أنهم خُلقوا للفتك بالناس. اندهش أشرف عندما رأى أن خلف قد قابلهم بهدوء مميت، ثم سمعه وهو يتمتم:

. حسبي الله ونعم الوكيل.

فتر حماس مفتولي العضلات عندما لم يبدِ خلف أدنى مقاومة لهم. قيدوا يديه خلف ظهره، مستخدمين حبالًا من قماش متين جدًّا لا يترك أثرًا على المعصمين. ثم قيدوا قدميه بأطواق من



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جلد تنتهي إلى حلقتين نحاسيتين مثبتتين في الحائط. ثم تناوبوا حلق شعر رأس خلف من جذوره، حتى أصبح رأسه ناعمًا كخد طفل وليد.

عندما استحسن أشرف عملهم نظر إليهم فتوقفوا، وقبل أن ينصرفوا قدم أحدهم لأشرف طاقية من صوف خشن، وقدم له الثاني كيسين من القماش الأسود، أولهما صغير وثانيهما كبير، ووضع الثالث عصابة على عيني خلف، ثم انصرفوا جميعًا.

مضى زمن بعيد منذ آخر مرة نفذ فيها أشرف الخطة صفر. قبل قرابة ثمانية أشهر قامت خادمة بسرقة سيدها. سيدها كان صديقًا مقربًا من والده الحاج عاصم. الخادمة الوضيعة، شأن كل الخادمات، أنكرت تمامًا قيامها بالسرقة. فشل معها رجال المباحث بطرقهم التقليدية.

يتذكر أشرف أنه أيامها قال لصديق والده:

. عوضك الله عن المسروقات، ولكن هذه الوضيعة، سأجعل عقلها ثمنًا لمسروقاتك.

ليس في الغرفة الآن سوى أشرف جالسًا وخلف مقيدًا فاقدًا لبصره تحت العصابة السوداء. أشرف ليس خائفًا من فقدان أصابعه لياقتها. أغمض عينيه للحظات راح فيها يسترجع مهارته في فصل جلدة المانجو عن لحمها، كانت مهارته تلك تعجب بها بثينة غاية الإعجاب.

لقد درب أشرف أصابعه كثيرًا، بدأ بالتمرين على فصل قشرة البرتقال، ثم جلد المانجو، وعندما تمكن من مهارته استطاع ذات مرة فصل جلدة حبة الطماطم عن لحمها دون خدش واحد.

ضرب أشرف بيديه على وركيه، وتلك طريقته عندما يبدأ في عمل يستدعي استخدام كامل مهارته. ثم وقف وأخرج من جيبه مشرطًا غاية في الرهافة والحدة، واقترب من خلف وهو يقول له بصوت ميت:



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ أمامك ثلاث ثوانٍ لكي تعترف وتنقذ نفسك.

رد خلف:

ـ لن أتهم أبرياء ولن أكذب على أحد حتى لو قتلتني.

في سرعة رهيبة كشط أشرف بمشرطه جلد رأس خلف في مواضع متفرقة. كان خلف يصرخ، وكانت صرخاته لا تهز شعرة في رأس أشرف، الذي ابتعد قليلًا عن رأس خلف وتأملها، فوجد جروحها صغيرة دامية كأنها فرج طفلة مغتصبة. شعر أشرف بتحرك عضلة معينة تقع أسفل سُرته، هو يطلق عليها اسم عضلة الشهوة، لا تتحرك إلا قبل لحظات من لقائه ببثينة. حتى وهو يعيش لحظات حاسمة من لحظات استخدام كامل مهارته، يدرك أشرف بجلاء الصور المعكوسة، صورة رأس خلف الدامية، مرتبطة بصورة فرج طفلة مغتصبة، والصورتان معًا تذكرانه على نحو ما بصورة فرج بثينة الوردي الذي تزينه عانة بنية اللون وناعمة الملمس. جاهد أشرف لكي لا ينتصب، فالوقت ليس وقت انتصاب. روَّض عضلة أسفل سُرته بأن وعدها بأنه فور عودته إلى البيت، سيجلس مع بثينة وهما عاريان، وسيتأمل فرجها الوردي ذا العانة البنية حتى الشبع، بل حتى التخمة.

ذهب إلى الكيس الصغير وفتحه ووضع الطاقية الصوفية في فتحة الكيس فتدفق سرب من الصراصير السوداء هائلة الحجم وملأ الطاقية. سارع أشرف بوضع الطاقية بإحكام فوق رأس خلف. ما إن بدأت الصراصير تمشي فوق رأس خلف وتعبث في جروحه حتى كان كل بدنه يهتز اهتزازًا عنيفًا وتتعالى صرخاته.

ذهب أشرف إلى الكيس الكبير وفتحه لتخرج منه أربعة ثعابين متوسطة الحجم، هو يعلم أنها ليست سامة وأنها منزوعة الأنياب، لم يكن يريد منها سوى أن تخيف، بملمسها الناعم، خلف العنيد.

قبل أن يخرج قال لخلف:

ـ لقد تركت لك الثعابين والصراصير لتؤنس وحدتك، حتى لو قررت الآن أن تعترف فهذا لن يوقف شيئًا. سلام يا خلف.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# 13

الحبيب مالك،

ليلتها يا حبيبي أخرج أبي علبة سجائره وهمَّ بأن يشعل سيجارة ولكن يد الحاج كانت أسرع وتناولت السيجارة من بين شفتيه وقذفت بها إلى خارج السيارة. نظر أبي إلى الحاج مندهشًا، رد الحاج بهدوء وحسم قائلًا:

ـ كنت أسمح لك بالتدخين عندما كنت أعاملك كأنك ابني من صلبي. لكن الآن، وبعد قرارك بأن تحتفظ بأسرارك بعيدًا عن أبيك، فأنت مجرد عامل لديَّ. سأغدق عليك كما أغدق على عامل ماهر علمته أسرار الصنعة لكي يرد لي يومًا الجميل، ولكنك مجرد عامل ولا يجوز لك التدخين في حضرة معلمك.

أدرك أبي أنه لو تفوه بكلمة فلن تمضي الليلة على خير، فلزم الصمت حتى أوقف الحاج سيارته أمام عمارة قديمة لها واجهة نظيفة. قال الحاج وهو يشيح بوجهه بعيدًا:

. هذا المكان اسمه ميدان المماليك، هو قريب من بيتي. العمارة ملكي، وبها شقة في السطوح بلا ساكن. ستقيم أنت بها وستترك مكانك في الشقة التي أستأجرها لك ولباقي العمال. أحتاج إلى كل دقيقة من وقتك ولكل لمسة من فنك الذي علمته لك. لقد قبلت صفقة الرجل الكويتي، أرباحها فوق خيالك، اصعد ونم مباشرة وغدًا ابحث عمن ينظف لك الشقة وأحضر ملابسك من شقة العمال.

أسقط الحاج مفاتيح الشقة في يد أبي وتركه كطفل ضاع من أبويه في زحام المولد.

كان تراب الهجر يملأ الشقة. خلع أبي ملابس خروجه وبقي في ملابسه الداخلية، وبدأ ينظف الشقة، لكي ينهمك في شيء يبعده عن التفكير في الحجر الثقيل الجاثم فوق قلبه، وفي قسوة الحاج المفاجئة.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهو ينظف استلهم روح أمه وأخواته، بل وأبيه. هم قوم من الفقراء لكنهم يحرصون على أن يكون مسكنهم نظيفًا مرتبًا. بعد أربع ساعات من العمل الشاق المتواصل، عادت الشقة كأنها لم تهجر قط، عادت نظيفة لامعة.

الساعة تشير إلى منتصف الليل. أحس أبي كأن أسرابًا من النمل تصعد من قدميه حتى رأسه. الجوع يعضه ولكن لا طعام، عرق التنظيف يخنق روحه. قام إلى الحمَّام فغسل ملابسه الداخلية التي يملؤها العرق ثم اغتسل كما يحب، ثم غادر الحمَّام عاريًا وذهب إلى غرفة النوم، وجاء بملاءة سرير لفها حول جسده. ثم تذكر جوعه، فشرب ماءً ملأ به بطنه. ثم جلس والملاءة حول جسده على السجادة وراح يدخن بشراهة، والحجر الجاثم على قلبه لا يتزحزح قيد أنملة.

راح يسأل نفسه: «هل الحاج قاسٍ أم لين؟ كيف يكون قاسيًا وقد ترك لي شقة كاملة؟ وكيف يكون لينًا وقد قال لي في وجهي: «أنت لست أكثر من عامل، علمته وأنتظر منه رد الجميل»؟ ثم عن أي فن يتحدث الحاج وأنا لم يعد في رأسي سوى طنين الذباب؟ ثم لماذا لا أنفض يديَّ من الأمر كله وأعود إلى أهلي وإلى صنعتي الأولى؟ لماذا أبدو كالمقيد؟ لماذا فقدت حريتي في لحظة غادرة؟».

مالك الحبيب،

كان أبي مستغرقًا في حديثه مع نفسه عندما جاءه من مذياع الجيران لحن رتيب حزين. أبكاه اللحن، أبكته المغنية وهي تغني:

**حيران، حيران كده ليه يا حبيبي**

**زعلان، زعلان من إيه يا حبيبي**

**ولا تزعل ولا تحتار**

**وحياتك ليل ونهار**



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

## حبك أقوى من النار

## صدقني صدقني صدقني

## مالك متحير مالك.. إيه اللي مغير حالك

## إن كان ع الناس وكلام الناس

## ما تاخدش ده كله في بالك

كان يبكي كل لحظة عاشها قبل أن يرى سعاد. كان يبكي جنة راحة البال وهدوء القلب. كان يبكي الوضوح الذي عاش عمره كله متنعمًا به. إنه الآن لا يعرف شيئًا، لا يفهم شيئًا. إنه فقط يبكي في صمت، تصعد الدموع من قلبه إلى عينيه، ثم تهبط ساخنة مالحة على خديه وشفتيه. يشعر بدموعه وهي تفتت الحجر الجاثم إلى شظايا حادة متقدة، الشظايا تخترق كل جسده. لقد نام وهو يبكي.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# 14

بينما مالك يرتدي ملابسه استعدادًا للذهاب إلى الجامعة، ضاق صدره بكل شيء. كثيرًا ما تنتابه فجأة، ودون مقدمات، حالة ضيق الصدر هذه، تبدأ مثل موجات من حزن رقيق، ثم تتعاظم حتى تحبس الهواء عن رئتيه.

هو لا يريد الآن تحديدًا إعادة فتح ملف قضية عمره التي خسرها بامتياز. لا يريد نبش قبر محاسن، ولا نكأ جرح ليلى، ولا الاقتراب من جثث أولاده التي يحملها في قلبه. هو يعرف لماذا جاء الضيق، ويعرف أن الأمر ليس مفاجئًا وأن كل مقدماته موجودة، مقيمة، راسخة.

تمتم وهو يحكم رابطة عنقه:

بمَ التعلل لا أهل ولا وطن ولا نديم ولا كأس ولا سكن

تناول هاتفه المحمول وهاتف زميله رمضان البحيري، الذي أصبح رئيسه، وقال له بصوت متحشرج إنه يحتاج لثلاثة أيام من الراحة لأنه متعب.

رد عليه البحيري رد فاقد الأمل:

. كلف أقدم أستاذ بمهام منصبك، سلام.

أنهى البحيري المكالمة دون انتظار رد أو توضيح من مالك، الذي هز رأسه كأنه ينفض عنه تراب المكالمة، ثم غادر غرفته فوجد محاسن في المطبخ. أخرج من حافظة نقوده ثلاثمائة جنيه ووضعها على رخامة المطبخ وقال وهو يعطي ظهره لمحاسن:

. سأغيب ليومين أو ثلاثة.

لم يهتم بسماع ردها . إن كانت قد ردت . وغادر بيته إلى باسوس، حيث جنة جاد المولى ونادية.

يعرف مالك باسوس منذ تعرف إلى جاد عندما كانا طالبين، مالك



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بقسم اللغة العربية وجاد بقسم التاريخ. أيامها كانت باسوس تتمتع بهدوء القرى وتحضر المدن. كانت بيوتها المتواضعة نظيفة وقريبة من النيل. كان لدى القرية فرصة هائلة لأن تكون منتجعًا على غرار منتجعات أوروبا حيث الماء والخضرة والهدوء والنظافة، ثم أطار السادات بانفتاحه عقول المصريين، فتحولت باسوس إلى مسخ، لم تعد قرية ولم تصل إلى المدنية، بدأت تدخل عصر التصنيع وهدرت في شوارعها وأسفل بيوتها آلات المصانع العشوائية التي تخصصت في تصنيع مواسير الصرف الصحي، بينما باسوس ذاتها تغرق في مياه المجاري.

تراب مشبع بزيوت المصانع ومخلفات البلاستيك يخيم على سماء باسوس التي كانت هادئة مطمئنة. لقد نجا جاد بواحدة من معجزات الرب الخالق، جاءته إعارة إلى السعودية فاقتنصها. قبيل عودته، باع بيت أبيه القديم، وبثمنه وبما ادخره من مال الإعارة ابتاع قطعة أرض تلامس النيل وبنى فوقها جنته.

المسألة كلها ليست في مهارة هذا وبلادة ذاك، إنها في حكمة الرب الغامضة النافذة، فعندما تأخر مالك في الإنجاب أسرع جاد. ابنا جاد، حسن ويحيى، تخرجا في كلية الهندسة وعملا في البترول وأصبحت لهما حياتهما الخاصة، بينما أولاد مالك لا يزالون يمتصون دمه ثم لا يشكرون، بل لا يعترفون بأنهم أولاده وهو والدهم.

السيدتان نادية ومحاسن من وسط اجتماعي واحد، بل ارتدتا الحجاب في العام نفسه، ولكن محاسن أصبحت الموت وأصبحت نادية هي روح الحياة.

منذ زمن بعيد لم يعد مالك يهتم بأن يخبر جاد بأنه في طريقه إليه. نادية موجودة دائمًا، وفي المرات القليلة التي تغيَّب فيها الاثنان، كان يدلف باطمئنان صاحب البيت من باب الحديقة حتى يتوسطها، وهناك يجلس إلى منضدة موضوعة تحت ظل شجرة جوافة وينتظر قدوم أحدهما. الجنة لا تغلق أبوابها أبدًا في وجهه.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تلقته نادية كما تتلقاه دائمًا، تفتح ذراعيها وتأخذ رأسه إلى صدرها وتقبل جبينه وهي تغدق عليه بعبارات الترحيب والاشتياق ولا تناديه سوى بـ«أخي الطيب».

جلس مع نادية قليلًا تحت ظل شجرة الجوافة، ثم تركته لتعد له القهوة. وهي تدخل إلى البيت اللطيف تأمل مالك خطواتها التي تضج بالحياة، فكاد يطلق شخيره المتوجع، ولكنه سارع بالسيطرة على نفسه.

لم يبرح مالك مجلسه إلا لصلاة الظهر، التي صلاها فوق نجيل الحديقة عفي الخضرة والنعومة.

عندما عاد جاد من الجامعة، اصطحب مالك إلى الغرفة المخصصة له. خلع مالك ملابسه وارتدى جلبابه الأبيض الذي تركه لدى صديقه منذ بدأ يهرب إليه. ثم اغتسل وأمَّ نادية وجاد في صلاة العصر، وتناولوا معًا الغداء.

قال جاد ضاحكًا، موجهًا كلامه إلى نادية:

. تبرعين في صنع المسقعة كلما جاءنا مالك، ليته يقيم معنا!

قبل أن تجيب نادية رد مالك:

. قل هو الحب يا مولانا، زوجتك تحبني وهذا كل ما في الأمر.

بعد الغداء الطيب غادر جاد ومالك غرفة السفرة إلى منضدة الجوافة مباشرة، وما إن جلسا والوقت كان وقت غروب حتى سأل جاد صاحبه:

. ما جديدك يا صاحبي؟

أشعل مالك سيجارة ثم قال:

ـ صباحًا كنت أرتدي ملابسي لكي أذهب إلى الجامعة، فجأة وسوس لي إبليس اللعين بأن ألقي نظرة على ملابس محاسن. فتحت الذي يخصها من الدولاب، كان كما أعرف، لقد برعت محاسن في تحويل كل شيء مغلق إلى مخزن: فرن البوتاجاز



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مخزن لبقايا الطعام، الثلاجة مخزن للمطبوخ والنيئ من الأطعمة، أدراج التسريحة مخزن لأدوات تجميل لم تعد تستخدمها، الغسالة مخزن لملابس غُسلت ولم يتم نشرها، حتى الميكروويف جعلت منه مخزنًا لأشياء أصبحت بلا معالم من شدة تعفنها. ولكل ما سبق فمن العادي أن يكون دولابها مخزنًا لملابسها النظيفة والمتسخة، الصيفية والشتوية، القديمة والجديدة. أين يا رجل بهجة النظام وألق الترتيب وجمال الحفاوة بالأشياء؟ هذا التخزين يؤلمني، يوجع قلبي، يجعل نهاري معتمًا. لكم جنت عليَّ أمي عندما علمتني مباهج النظافة وجمال الترتيب والتنظيم؟ لقد ضاق صدري فهربت إليك.

تنهد جاد تنهيدة قطعت استرسال مالك، ثم قال:

. وإلى متى تراكم حزنك وبغضك؟ يا صاحبي أنت تعلم أن العمر الافتراضي لأنوثة زوجتك قد انتهى، سواء أكنت أنت المسؤول عن ذلك أم هي، فهذا لن يقدم ولن يؤخر. لماذا تعذب نفسك بفتح دولاب أنت تعلم مسبقًا حالته؟

قبل أن يرد مالك جاءت نادية تحمل إبريقين، واحدًا به شاي والثاني به قهوة، وضعتهما مع الأكواب ثم انصرفت.

مجيء نادية وانصرافها يذكر مالك بالنسمات المنعشة. نادية عند مالك هي ذلك الكائن الذي لا تمسكه بيديك، ولكنك تحس دائمًا بأثر مروره عليك.

بعد أن رشف جاد رشفة من قهوته قال:

. من العبث أن يظل ملف محاسن مفتوحًا مدى الحياة. لقد اعوج أمرها ثم لن يستقيم ثانية، وليس لديَّ جديد أقدمه لك، خاصة مع عجزك . لاعتبارات أقدرها . عن التخلص منها. دعنا لا نهدر الليلة في فحص قضية ماتت.

رد مالك بنبرة متبلة بالحزن:

ـ كأن محاسن هي بيت دائي، متى عالجته تسنى لي معالجة



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الملفين الآخرين، ملف ليلى التي اختفت بزعم تفرغها لإنجاز موضوع خطير، وملف دراسة المصريين.

قال جاد:

. أوافقك على نصف ما قلته. عمليًّا لا يمكن لك الارتباط بليلى قبل التخلص من محاسن. أما موضوع الدراسة فأنا أرفضه من ألفه ليائه.

بغضب رد مالك:

. لماذا تصدني دائمًا عن إتمام العمل في الدراسة؟

أجاب جاد بهدوء:

. سنبدأ من ألف باء، ومن إجاباتك أنت ستعرف لماذا أرفض أنا هذه الدراسة. خذ السؤال الأول: ماذا ستقول في دراستك؟

قال مالك:

. سأقول إن المصريين الذين يعيشون الآن على أرض مصر أو حتى خارجها لا تربطهم أوهى صلة بآبائهم أو أجدادهم. عقلي أنا لا يقبل أن يكون المصري الذي يتعايش مع نظام حسني مبارك ورعب أمن الدولة وطفح المجاري وأهرامات القمامة، بل ويقبلها، هو ابن أو حفيد للمصري الذي اقتحم قناة السويس، وهدم خط بارليف، وبنى السد العالي، وأمم قناة السويس وأدارها، ومصَّر البنوك، وشيد المصانع. هذان نقيضان لا يجتمعان، ولا يقبل عقلي باجتماعهما.

قاطعه جاد قائلًا بنفاد صبر:

. يا أيها الأستاذ الدكتور مالك، كيف ستقيم الدليل على انقطاع النسب والصلة؟

أفرغ مالك نصف كوب شاي في جوفه دفعة واحدة ثم قال:

. من قراءة المسلك العام والأعمال.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رد جاد:

. إذن ما أيسر تفنيد دعواك يا صاحبي! يستطيع أي صحفي أن يقدم قراءة مغايرة للمسلك العام والأعمال، فلو حدثته عن السد العالي سيحدثك عن مترو الأنفاق، لو حدثته عن أهرامات القمامة سيحدثك عن القضاء على شلل الأطفال، أما المسلك العام . وأظنك تعني به الأخلاق العامة . فهذا أمر حمَّال أوجه، لا يستطيع أحد القطع فيه برأي نهائي.

نظر مالك إلى عيني جاد نظرة مباشرة ثم قال:

. لعلك تظن أن أزمتي الخاصة هي التي تدفعني إلى العمل في دراسة كهذه. لا يا صاحبي، إسرائيل هي التي تقف خلف دراستي.

انتبه جاد جيدًا حتى إنه اقترب بوجهه من مالك، وسأله:

. تقول إسرائيل؟

رد مالك:

ـ نعم، إسرائيل. لقد تمكنت مختبرات أجهزتهم الأمنية من استحداث نوع جديد من الكلاب، يأتون بالكلبة ويروضونها حتى تستطيع تحمل معاشرة ذئب لها، ومن نتاج تلك المعاشرة بين المستأنس والمتوحش، يحصلون على كلب هجين ذي مواصفات خاصة. وذلك الكلب الهجين، الذي نصفه كلب ونصفه ذئب، يستخدمونه في مطاردة المقاومين الفلسطينيين، ويؤكدون أن عضة واحدة منه تكفي لإرسال المقاوم إلى قبره مباشرة.

بدهشة بالغة قاطعه جاد قائلًا:

. على رسلك يا مولانا، هل خضع شعبنا لمختبرات أجهزة إسرائيل الأمنية؟

رد مالك:

. ولمَ لا؟



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ضحك جاد وقال:

. وكيف كان ذلك؟

أجاب مالك:

. دسوا في شربنا أو طعامنا أو حتى هوائنا شيئًا مسخنا جعلنا نقبل بما لا يقبل به إنسان له أب كريم وجد شامخ.

قهقه جاد ثم قال:

. هل تهزل الآن؟

رد مالك:

ـ بل أتحدث جادًّا. لقد كنت مثلك أسخر من هؤلاء الذين يتحدثون عن مؤامرات الأجهزة، حتى أفرجت المخابرات الأمريكية عن بعض وثائقها الخاصة بالصراع الأمريكي مع كوبا. قالت المخابرات الأمريكية إنها استطاعت دس فيروس يسبب التهاب الغدة النكفية في شتلات قصب السكر الكوبي، فأصيب معظم الشعب الكوبي بالتهاب الغدة وانهار اقتصاد ذلك البلد الفقير المعتمد أساسًا على محصول قصب السكر.

قال جاد بصوت حزين:

. يا أخي وصديقي، أنت تدخل إلى حقل ألغام دون دليل يحميك أو حتى يرشدك. ما حدث لنا هو أكثر تعقيدًا من مؤامرات وخطط الأجهزة لأنه فوق طاقتها مجتمعة. ما حدث لنا كأنه السرطان، يبدأ مجرد خلية ثم يتكاثر بسرعة خرافية ولا يستطيع طبيب أو دواء السيطرة عليه. سرطاننا ضرب الروح أولًا قبل أن يضرب الجسد.

يا مالك أنت رجل أدب وصاحب أسلوب، وتستطيع تحويل دراستك إلى رواية، تقول فيها كل ما تريد من دون أن تورط نفسك في مستنقع لا قبل لك بمواجهته، بل قد تقودك الرواية إلى خفايا لم تخطر لك على بال.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قال مالك:

. هل ستستطيع الرواية المزعومة أن تفسر لي لماذا أنا خائف من أمن الدولة كل هذا الخوف؟



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# 15

لو اختارت محاسن شعارًا لحياتها لكتبت لافتة بعرض السماء تقول فيها: «أنا تعيسة».

لقد تزوجتْ من رجل جبان. كم مرة هددها بالطلاق؟ كم مرة هجرها ليبيت كما الليلة في حضن واحدة من عشيقاته؟ كم مرة صرخ وتوعد؟ ثم في النهاية يعود ذليلًا مثل كلب جائع.

هذا رجل لا يقوى على شيء، إلا على شيء واحد، وهو أن يجعل زوجته تعيسة، يبقيها على قيد الحياة، تنام وتصحو، تأكل وتتنفس، ولكن الحياة تمر بها من دون أن يعانقها أو حتى يلمسها لمسة عابرة.

ما الذي بينه وبين زميلته فاطمة لكي تتصل به مرة على الأقل يوميًّا فيدللها قائلًا: «غالية أنت يا فاطمة»؟

كم عدد حبيباته، أو بالأحرى عشيقاته؟

تلقي محاسن السؤال على نفسها وهي تقشر البطاطس أمام التلفزيون الذي يبث شيئًا لا تلتفت إليه، فتترك السكين وتحصي على أصابعها: «فاطمة، ثناء، نادية، ماجدة، منى، أميرة، سمية، ماريانا، ثماني ساقطات يدرن حوله».

ولكن أخطرهن وأثقلهن على قلب محاسن هي نادية أحمد مرتضى، زوجة الديوث جاد المولى، التي كانت يومًا ما صديقتها، ثم استولت تحت سمع وبصر زوجها، وربما برضاه، على مالك، وذلك بدعوى أن مالك تعيس ويجب أن تخفف عنه.

عندما يغيب مالك عن بيته، تكون محاسن على يقين بأنه لدى نادية أو الساقطة المسيحية ماريانا. مسلم لا يفوته فرض، ما الذي يجمعه بمسيحية تلبس فوق الركبة؟

على ذكر الركبة تترك محاسن تقشير البطاطس وتمسح يديها في جلبابها ثم تتجه إلى غرفة نومها، تحكم إغلاق بابها وتقف خائفة



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أمام مرآة التسريحة. هي خائفة من أن تكذب المرآة رأيها في نفسها، أو بالأحرى رأيها في جسدها.

تكشف بيد مرتجفة عن ساقيها، تمر بيدها على سمانتي ساقيها، تجدهما خشنتين منطفئتين. ثمة جذور شعر تبدو واضحة، كم مرة عزمتْ على اقتلاعها؟ لكن متى ستقتلعها؟ وقتها ليس لها، إنه كله لأولادها. ثم هي لا تجد في نفسها أدنى رغبة في أن تتزين لخائن. ثم متى كانت نعومة ساقي المرأة دليلًا على نجاحها؟

نهداها كما هما منذ كانت بنتًا بكرًا، مرتخيان مترهلان، لو كان زوجها عفيفًا لحرصت على صيانتهما ولو بارتداء المشد.

بطنها أصبح كبيرًا جدًّا. كم آلمتها نادية الفاسقة يوم قالت لها، وهي تشير إلى بطنها:

. هذا ليس بطنًا إنه كرش جزار.

ولكن ما البطن؟ ما النهد؟ ما الفخذ؟

كل تلك الأشياء ستذوي وتموت، ثم تنتفخ ثم يلتهمها دود القبر. مالك يعرف كل ذلك ولكنه يصارعها من أجل جيفة نتنة تسمى الجسد؟

أين إذن ذهبت لذة الاستغفار، وحلاوة الذكر، وجمال الرضا، وكنوز القناعة؟

مالك الذي لا يفوته فرض، ليس سوى منافق كبير يدعي الطيبة وهو ليل نهار يملأ عينيه ويديه وحضنه من الحرام، ولأنه منافق فهو لم ولن يعترف بجرائمه، يرتكب الجريمة ثم يلقي بأسبابها على عاتق زوجته.

لقد جاء بها إلى الصحراء حيث لا أب ولا أم لكي ينفرد بها ويعذبها كما شاء.

في شقة فيصل كانت تنعم بحماية الصخب والضجيج والتراب



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والناس. الآن لا شيء سوى الصحراء، سكون كسكون المقابر، لم تعد تسمع شيئًا سوى صوت آلة التعاسة التي تطحن قلبها.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# 16

بات مالك ليلته في بيت صديقه جاد. منذ زمن بعيد ومالك له غرفة خاصة لا ينام بها سواه، ترتبها نادية بيدها المتقنة وقلبها الطيب. يتقلب مالك في سريره متمتعًا بنعومة الفراش والغطاء وبرائحة خلاصة الياسمين التي تعطر بها نادية غرف بيتها.

كف مالك عن تقلبه واعتدل، ومد يده وأشعل الأباجورة، وهبط من سريره واتجه إلى النافذة وفتحها، فجاءته روائح الحديقة المثمرة.

وضع الوسادة خلف ظهره وتناول سيجارة وأشعلها، عاقدًا العزم على تصفية حساباته الخاصة جدًّا مع نفسه، أو على الأقل مكاشفة نفسه بما هو مدفون في قرارها.

في الحقيقة لا يشغل مالك سوى أمرين ومنهما تتفرع باقي الأمور.

أمره الأول هو موضوع دراسته عن انقطاع نسب المصريين، إنه يكاد يشغله عن ليلى ذاتها. هو على يقين من صدق ما ذهب إليه ولكن دائمًا تعوزه الأدلة الباردة، تنقصه حسابات البقالين، واحد زائد واحد يساوي اثنين. عندما يجلس إلى الكتابة يفشل دائمًا في نقل حرارة ما يعتقد. إنه يخوض في بحر من الرماد البارد المعتم، وعندما يحاول تدفئة سطوره الباردة، يجد نفسه يكتب عن روائح الماضي وكيف بادت، وعن فاكهة الماضي وكيف اندثرت. منذ زمن بعيد جدًّا لم يشم رائحة الجوافة مثلًا. كانت أمه حريصة على عدم الاحتفاظ بالجوافة بداخل الثلاجة، كانت تضعها في طبق كبير مزخرف فوق ترابيزة السفرة، وتقول: «دعوها تعطر أركان الصالة».

ولكن ما علاقة كل هذا الفقد بانقطاع نسب المصريين؟

مالك لا يجد النغمة الصحيحة، التي ينساب منها اللحن صحيحًا سليمًا، لا يعكره نشاز ولا يخدشه برود.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لو يستطيع الولوج من باب الروائح البائدة داخلًا إلى قلب موضوعه الرئيسي، فسيخرج مكللًا بتاج الإنجاز. ولكن الإنجاز يحتاج إلى قلب مترع بالسكينة، وهو لم يعد يجد السكينة سوى هنا، في تلك الغرفة القصية عن محاسن ورائحتها.

يا لمحاسن ورائحتها، إنها أمره الثاني الذي من فرط انشغاله به يكاد أحيانًا ينسى التنفس.

مالك الآن إزاء ليلة تاريخية يتقصى فيها منبت الهزيمة وجذر الكارثة. تلك فرصة ذهبية لن يدعها تفلت من بين يديه. لن يجلد ذاته ولن يشفق على قلبه، سيدع الذكرى المرعبة تزحف بنعومة أفعى خارجة من صدره لتتكوم بين يديه وتحت عينيه، لكي يقبض على رأسها ويهشمه.

منذ طفولته كان مالك يؤمن بأنه منذور لحب عظيم، وقد جاءه الحب وهو في سنته الجامعية الأولى. كان حبه لزميلته سلوى حبًّا استثنائيًّا، لأنه كان تحت رعاية عين أبيه، رمضان الجندي، الموظف الكبير في هيئة الطرق والكباري، والذي كان درويش الحب الأول الذي عرفه مالك.

لم يكن حب مالك لسلوى يشبه من قريب أو بعيد نوبات الحب التي تنتاب الشباب في تلك السن. لقد كان حبًّا مرتبًا ومسؤولًا وعارفًا لكل واجباته ولكل حقوقه. ولكل ذلك فقد انهار مالك مرة واحدة كأنه بيت من الرمال عندما غدرت به سلوى وهجرته دون تفسير أو إيضاح.

بعد الهجر عاش مالك لسنوات لا يشغله من كل الكلام سوى كلمة واحدة يرددها ليل نهار: «لماذا؟».

كان يود بكل كيانه سماع ولو كلمة من سلوى، تفسر أو تبرر، ولكن سلوى من يومها اختفت كأنها لم تخلق قط.

كان الأب الصديق رمضان الجندي يساند ابنه ويدعمه لكي يعود للوقوف على قدميه.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سنوات الهجر تلك كانت بداية الحماقة، التي سيدفع مالك ثمنها أضعافًا مضاعفة. لقد نفض مالك يديه من الحب، وظن أنه مرض قد شفي منه ولن يعاوده ثانية. ولذا فقد انهار عالمه مرة ثانية عندما أحب ليلى.

حماقة الكفر بالحب دفعت مالك لكي يتزوج من أول امرأة يرتاح إليها، فكان زواجه من محاسن.

يتذكر مالك أنه بلسانه قد طلب من صديقه جاد أن يبحث له عن عروس. يومها اندهش جاد من مالك الذي قال له ضاحكًا:

. عصفور في اليد خير من مائة سلوى على الشجرة.

لم يقتنع جاد بمنطق مالك، ولكنه تحت إلحاحه أشرك زوجته نادية في الأمر. فقامت نادية بترشيح عدد من الفتيات قابلهن جاد المولى ثم صرفهن، لأنهن، من وجهة نظره، لن يرتحن مع مالك.

حتى جاء اليوم الذي قدمت فيه نادية لزوجها زميلتها القديمة محاسن. يومها قال الرجل لزوجته:

. أظنها تستطيع تعويض مالك.

سارت الأمور سيرها الطبيعي والتقى مالك بمحاسن في بيت جاد. كانت المقابلة لطيفة، لأن محاسن بدت مقبولة لمالك من ناحية الشكل ومن ناحية المضمون.

عرف مالك المعلومات الأساسية عن محاسن، من حيث كونها كبرى شقيقاتها، وحاصلة على ليسانس الخدمة الاجتماعية، وتعمل بمبلغ زهيد في حسابات محل ملابس بوسط العاصمة.

ارتاح مالك لنضج محاسن، خاصة وقد قاربت الثلاثين من عمرها، وقد ظهر نضجها في وضوح ردودها على أسئلته البسيطة، لأنها لم تزعم لنفسها شيئًا سوى البحث عن الاستقرار والمعيشة الكريمة.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

غادر مالك السرير وبيده علبة سجائره وذهب للجلوس على مقعد أمام النافذة، المفتوحة على الليل والذكريات السوداء.

أشعل سيجارة جديدة وراح يتذكر أنه بات ليلة لقائه الأول بمحاسن كأنه سعيد أو كأنه منتعش، كان مرتاحًا للقاء على نحو ما.

متى عرف الشرخ طريقه إلى لوح الزجاج؟

متى استقبلت أرضه البذرة التي ستصبح شجرة ملعونة ستدمر بشوكها ومرارتها حياته؟

الليلة لن يجلد مالك ذاته وسيقولها بملء فمه: «محاسن هي التي بدأت».

فبعد أن قابلها لأول مرة في بيت جاد المولى، دعاها للجلوس في كافتيريا من ذوات النجوم الخمس.

كان مالك يريد أن يعبر لمحاسن عن تقديره لها لأنه كان يعلم بأنها لم تكن تحلم بأن تجلس يومًا في مكان كهذا. وهما يتناولان مشروبهما الأول سألها مالك ببساطة ورقة:

. هل صدمتك رؤيتك الأولى لي؟

ردت محاسن بكل ثبات:

. نعم.

سقط مالك في ماء الخجل البارد، ولكي يعطيها فرصة التصحيح، عاد يسألها:

. هل لم يعجبك شكلي مثلًا؟

أجابت بالثبات نفسه:

ـ كنت أحلم برجل مختلف عنك في اللون والطول وباقي التفاصيل.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الآن، في ليل غرفة بيت جاد التي تعطرها نادية بخلاصة الياسمين، يقف مالك ويلكم خده لكمة قاسية تجعل وجهه يتقلص ألمًا.

لا يرغب مالك الآن في شيء قدر رغبته في الصراخ، على أن يكون صراخه مجنونًا ملتاعًا يتطهر به من أدران ذكرياته. ولكنه، كعادته، كتم صراخه وراح يدور بمقعده وهو يحادث نفسه: «كيف لم تنتفض لكرامتك يا رجل؟ أنت تميل إلى النحافة والقصر والسمرة، حتمًا كانت تريد الطويل الممتلئ الأبيض. كيف لم ترد عليها قائلًا: «سأدفع لكِ الحساب وانصرفي لتبحثي عن رجل أحلامك»؟».

من البداية وهو يعرف أن وطأة الحساب ستكون ثقيلة جدًّا، ولكنه من البداية أيضًا كان عازمًا على أن ينتهي كل شيء الليلة وليس بعدها بدقيقة. لن يجعل خوفه على قلبه يهزم إرادته، ولذا قام إلى الحمَّام وغسل وجهه بالماء البارد ولم يجففه. ترك قطرات الماء تتساقط على جلبابه وقدميه وعاد إلى مقعده أمام النافذة وأشعل سيجارة جديدة.

مالك، الذي يفتح كل جروحه لكي يكويها، حصر أسباب عدم رده على إهانة محاسن في أربعة أسباب:

الأول: هو خوفه من فشل جديد. فبعد أن هجرته حبيبته سلوى كأنه بيت خرب، لم يعد قادرًا على التواصل مع أنثى. والآن وقد جاءت الأنثى، هل يفقدها لأنها أساءت التعبير؟

السبب الثاني: هو كبرياؤه التي منعته من أن يأخذ كلام محاسن على محمل الجد. «مَن محاسن هذه حتى تقيمني أنا؟».

السبب الثالث: هو إشفاقه عليها من رفضه لها وهي على أعتاب عنوسة أكيدة. فالتي لا تتزوج في بيئتها حتى سن الخامسة والعشرين تكون عارًا على أهلها وعلى نفسها.

السبب الرابع: هو أنه كان يريد أن يبهرها بما تحت جلده الأسمر وجسده الضئيل قياسًا بالرجل الهرقلى الذى كانت تحلم به.

33%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

انطلاقًا من السبب الرابع والأخير، بلع مالك ريقه وراح يحدث محاسن عن الفرق الحاسم بين الشكل والجوهر، وبين المبنى والمعنى.

لقد أمطرها بكلام كثير، كان هو يؤمن به ويتفهمه. أما هي فقد ظلت تستمع إليه صامتة، ربما لأنها لا تستطيع مجاراته في الكلام، وربما لأنها لم تعرف أن كلامها قد جرح رجلًا ينوي التقدم لخطبتها بعد أيام.

منذ تلك المقابلة لم يشعر مالك يومًا أن محاسن تقدره، أو حتى تريد أن تجامله بأن تشعره بتفوق ما، إلا في لقاءات السرير. كانت عيناها تلمعان بالرضا وتفيضان بالشبع عندما يعلوها، وتغمغم بكلام عن قدراته، فإذا انتهى اللقاء عادت إلى تجاهل صاحب القدرات التي كانت قبل قليل تصفها بالخارقة، كأنه عابر سبيل حصل على صدقته ويجب أن ينصرف.

لقد كانت، على الرغم من تقديرها الواضح لقدراته، أبلد أنثى مرت بسرير رجل، أي رجل. كانت إذا جاءها تضحك في لحظة اشتعاله، كانت تضحك ضحكة عجيبة، لم تكن ضحكة دلال، كما أنها لم تكن ضحكة غنج، كما أنها لم تكن ضحكة تَمنُّع ومشاكسة. لقد كانت ضحكة في المطلق البليد الفارغ من أي معنى أو دلالة أو مغزى.

كثيرًا ما كانت تلك الضحكة البليدة تكسر الآلة الخارقة وتطفئ توهجها، فيسندها مالك بيمينه لكي تقوى على الولوج.

مالك، في توحده مع ظلام غرفة معطرة بخلاصة الياسمين، يدرك أنه يقفز فوق تسلسل بدء الكارثة لكي يرتاح على ضفاف الفاجعة.

بعد مجيء الأولاد ستعود محاسن إلى أسوأ مما كانت، سوف تهمل كل شيء عن قصد وتعمد، وسوف تشعل الأرض نارًا تحت قدمي مالك إن التفت يمينًا أو يسارًا. لقد أفصحت عن رغبتها أكثر من مرة، وقالت من خلال مسلكها العام إنها تريد الاستحواذ



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عليه من أدناه إلى أقصاه دون أي مقابل. عليه أن يعشقها لذاتها، عليه أن يهجر كتبه وكتاباته بل وأصحابه وحتى أفكاره، ويعلن اكتفاءه بها. فإن لم يفعل أو إن أظهر شيئًا من المقاومة، فإنها تستطيع سجنه خلف أسوار من الكآبة الجهنمية.

ولقد نفذت تهديدها وسجنته، حتى جاءته ليلى وذكرته بأنه رجل وبأنه يستطيع.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# 17

عندما ظهر رشدي أحمد سعيد في حياة أسماء محمود، شقيقة عمر، قالت:

. ها قد جاء جني البحر.

أثمر زواج أسماء من رشدي وحيدتهما ميرفت، التي ستهجر الإسكندرية بعد رحيل والديها وستأتي مع زوجها وأولادها لتقيم في القاهرة، وستكون حاضنة ليلى ومستودع سرها.

ما بين ليلى وميرفت هو أكثر بكثير مما يكون بين ابنة الخال وابنة العمة. خلفهما تاريخ طويل من العشق الصافي الذي ربط بين عمر، والد ليلى، وشقيقته أسماء، أم ميرفت. ولذا لم تكن ميرفت تضيق بليلى قط، ولا تتلصص عليها وهي تواصل في بيتها الكتابة إلى مالك.

الحبيب مالك،

نام أبي باكيًا ثم صحا خائفًا. تفقد أعضاءه فوجد كلًّا منها في مكانه. حرك قدميه وساقيه وكتفيه ورأسه، فوجدها جميعًا تعمل بكفاءة. جس نبضه وتلمس دقات قلبه، فوجد الأمور مستقرة. كان خائفًا من أن يكون قد أصيب بجلطة أو بمرض ما جراء نومه باكيًا. في ذلك الصباح البعيد، توضأ أبي وصلى أحسن صلاة صلاها في حياته، تضرع إلى الله أن يعيده كما كان، ثم هبط إلى ورشة الحاج مسعود مباشرة. كانت المرة الأولى التي يغادر فيها أبي مسكنه دون تناول لقمة وكوب شاي.

كان أبي يقول عن عمال الورشة إنهم فنانون ربانيون، يمسك الواحد منهم بقضيب الفضة أو عامود النحاس فيخرج من تحت يديه شيئًا آخر. كان أبي يقدرهم كثيرًا ويخشى منافستهم، لكنه في ذلك الصباح دخل عليهم مثل محكوم عليه بالإعدام، لم يعد يخشى شيئًا أو يطمع في شيء سوى أن يلقي كلمة أخيرة.

وما كانت كلمة أبي الأخيرة سوى أن يعمل بجوار هؤلاء الربانيين

34%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويفرغ كل ما في قلبه في طبق أو حلية.

رحب العمال به وتعجب صاحب المكان، الحاج مسعود، من حضوره وسأله:

. ألن تذهب إلى المحل؟

رد أبي:

. سأعمل هنا حتى إتمام الصفقة.

لم يعلق الحاج مسعود ولم يسأل أبي عن أخبار مبيته ليلة أمس، واكتفى بأن نهض واقفًا وقال:

. إذن سأذهب أنا إلى المحل.

تفحص أبي القطع الموجودة في الورشة ثم اختار قطعة فضة أعجب بها، وتنحى جانبًا وأشعل سيجارة وراح يفكر من أين يبدأ.

الحبيب مالك،

كثيرًا ما سيستعيد أبي معي تلك اللحظة الفارقة في حياته. أبي، يا حبيبي، كان من فلاسفة الزمان، نعم لا مبالغة هناك، إذ دائمًا ما كان يتحدث عن الزمان بوصفه لحظة وامضة خاطفة، لكنها قادرة على أن تأخذك وتحلق بك بعيدًا في الأعالي أو أن تهوي بك إلى القاع المظلم.

في ذلك الصباح البعيد تجلت لحظة أبي الوامضة الخاطفة. يداه. هكذا سيؤكد لي كثيرًا. عملتا دون أمر منه، يداه لمسهما حنان الرب فوجدهما تعملان بينما هو مستغرق في التفكير وسيجارته بين شفتيه.

أقام أبي بداخل الورشة ثلاثة أيام بلياليها. بعد ست وثلاثين ساعة كان قد انتهى.

أخرج كل ما كان جاثمًا على قلبه في تحفته، خبأ تحفته جيدًا بحيث لا يراها أحد، وغادر الورشة إلى نجار يعرفه. أمره بصنع



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صندوق من خشب الورد، فصنعه له الرجل، ثم جاء بكيس من الحرير الخالص، وعاد إلى الورشة. تناول تحفته ثم وضعها في الصـندوق ووضـع الصـندوق بـداخل الكيس الحـريري وأحكم إغلاقه.

في ميعاده المحدد سلفًا جاء الثري الكويتي لكي يأخذ بضاعته. تأمل التحف تحفةً تحفةً، عقد جمالها لسانه ولكنه أطلق يده، التي منحت الحاج مسعود مبلغًا فوق ما اتفقا عليه بكثير لكي يُكرم الحاج عماله.

منح الحاج مسعود فناني الورشة وعمال المحل والمخزن مكافآت قيمة، إلا أبي فلم يمنحه شيئًا يذكر لأنه لم يصنع ولو طبقًا صغيرًا. في حالة كتلك يضيق العامل بتصرف صاحب العمل، ولكن أبي أبرأ ذمة الحاج من أي مسؤولية، لأنه أولًا لم يقدم تحفته، ولأنه ثانيًا صنعها لكي يتخلص مما هو فيه وليس بحثًا عن مكافأة، كبيرة كانت أو صغيرة.

جاء الثري الكويتي بسيارة نقل خاصة لكي تنقل صفقته من الورشة إلى المطار.

الحبيب مالك،

لحظة النقل تلك لم يشهدها سوى الثري وعمال النقل والحاج مسعود وأبي، الذي جاء بكيسه الحريري وقدمه إلى الثري بوصفه هدية متواضعة من فناني الورشة للعروس.

مثل تلك المجاملة كانت مألوفة للحاج مسعود، بل كانت ورشته تتميز بها عن باقي الورش. ولكن لأن لحظة أبي الفارقة كان اللّٰه قد قدر وقوعها في ذلك اليوم البعيد، فإن الحاج مسعود أصر على أن يرى ماذا بداخل كيس الحرير.

ارتجف كيان أبي كله وهو يرى يدي الحاج تفكان الكيس وتفتحان الصندوق.

تذكر أبي الآن فقط ما صنعت يداه. يقينًا سيكتشف الحاج الأمر



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويعرف القصة. فكيف سيتعامل معه؟

بداخل الصندوق تنام شجرة، قاعدتها من البرونز وساقها من النحاس الخالص، أما أغصانها فأربعة وكلها من الفضة، وكل غصن ينتهي بورقة عريضة محفور عليها وجه فتاة، عرفها الحاج مسعود من النظرة الأولى: إنها سعاد ابنة الحاج، حب عمر أبي.

صاح الثري الكويتي وهو يخرج حافظة نقوده:

. لا مال في الكون يعدل هذه التحفة.

كاد أبي ينهار كأنه جدار قديم خربه الزمان لولا أن يد الحاج مسعود سارعت بالقبض عليه.

لكم تحير أبي وهو يروي لي لحظته تلك. كان يقول:

. والله لا أعرف كيف تم الأمر، هل أمسك الحاج بيدي لكي لا أقع أرضًا، أم تراه مسح على رأسي كأنه رجل إحسان وكأني طفل يتيم؟

كل ما أتذكره أنني وجدت نفسي في حضن الحاج الرحيب وشعرت بدفء شفتيه وهما تقبلان جبيني، وعندما نظرت إلى وجهه كانت عيناه تلمعان كأنه يوشك على البكاء.

الحبيب مالك،

يومها منع الحاج الثري الكويتي من تقديم مكافأة لأبي، وقال قولته الخالدة التي على أجنحتها سيصعد أبي إلى ذروته:

. ليس من الشرف أن يبيع الرجل وجه حبيبته.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# 18

لم يكن حضور أشرف لأحد اجتماعات الجهاز المهمة والخطيرة يدعو إلى الدهشة.

نعم الاجتماع سيبحث موضوعًا بعيدًا عن تخصص أشرف الرئيسي، وهو ملف «كفاية» و«٩ مارس» و«٦ أبريل». ولكن القادة آمنوا، بعد تجارب عديدة، بأن أشرف هو «جوكر» الجهاز، فهو لم يفشل في مهمة أوكلت إليه قط، بل لم يفشل في ملف تطوع هو بالإشراف عليه.

كان أشرف ضابطًا من بين عشرين ضابطًا في طول البلاد وعرضها جرى اختيارهم بعناية فائقة لحضور اجتماع عن ترتيبات الانتخابات البرلمانية القادمة.

رئيس الاجتماع هو اللواء زبادي. اسمه الحقيقي هو «زيدان البارودي»، ولكن لأنه يلتهم كميات خرافية من علب الزبادي، فقد جرى إطلاق لقب «زبادي» عليه، وعندما وصله اللقب لم يستنكره بل أعجب وتباهى به، فاكتسب اللقب شرعية لطيفة.

أشرف لا يحب أحدًا في الجهاز، بل لا يحب أحدًا في الشرطة كلها، قدر محبته للواء زبادي، وذلك لأن سيادة اللواء هو أمة بمفرده بين كل قادة الجهاز. هو رجل صادق جدًّا، لا يطلي كلامه بأي طلاء، فعندما تقرب إليه أشرف وتجرأ مرة وسأله عن سر عشقه للزبادي، قال سيادته همسًا:

.علبة زبادي واحدة محلاة بملعقة عسل أبيض حقيقي قادرة على أن تجعلك تشبع أربع نساء في ليلة واحدة.

ومن يومها وإفطار أشرف لا يخلو من علبة الزبادي، مع أنه لا يحتاجه منشطًا، ولكن من باب الاقتداء بسيادة اللواء.

أما السبب الأعمق لمحبة أشرف لسيادة اللواء زبادي فهو أن سيادته قد رشحه ليكون رئيسًا للغرفة السرية.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عندما وصلت الموافقة على ترشيح سيادة اللواء زبادي لأشرف، اجتمع به وعرف منه خطة عمله، فأثنى عليها ولكنه طالبه بأن تكون له لمسة خاصة تدخله تاريخ الجهاز من أوسع أبوابه وأخلدها.

في ذلك الاجتماع الثنائي قال أشرف للواء:

ـ لمستي هي أنني أتمنى لو أطلقت اسمًا أو لقبًا جديدًا على الغرفة، على أن يكون الاسم أو اللقب حافظًا لهيبة الغرفة التي سأستردها.

أعجب سيادة اللواء بتفكير أشرف وقال:

ـ أمنية طيبة ويمكنني مساعدتك، ولكن يجب عليك أولًا أن تشرح لي ماذا تريد تحديدًا؟

قال أشرف:

ـ بيني وبين حضرتك، تعجبني أفعال الإسرائيليين. فهم مثلًا عندما حاربوا حسن نصر الله، أطلقوا على حربهم وصف «عناقيد الغضب». إن فهمت أن العناقيد تشير إلى عناقيد الكرم التي سيدمرونها جاز لك ذلك، وإن فهمت أنهم يشيرون إلى قنابلهم العنقودية جاز لك ذلك. المهم أن تسميتهم بها حركة وحيوية، وأنا أريد شيئًا من هذا القبيل.

أكل سيادة اللواء علبة زبادي ثم قال:

ـ فهمتك، ولكن الوصف لا بد أن يكون نابعًا من خطورة الغرفة ودالًا عليها.

صاح أشرف معجبًا:

ـ هذا ما أريده، ولكن لا أعرف كيف أحققه.

هز سيادة اللواء رأسه هزة خبير ثم قال:

ـ أنت تعلم أن الغرفة تضم الفضائح، وتعلم أننا لا نستخدم بطاقة



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفضائح إلا في الضرورة القصوى، وتعلم أننا متى استخدمناها نجحنا وحصدنا النصر النهائي على عدونا.

قاطعه أشرف بحماس:

. نعم أعرف كل ذلك.

ابتسم سيادة اللواء ابتسامة واسعة ثم قال:

. حماسك هذا أوحى لي بالاسم، اسم الغرفة من الآن وإلى الأبد سيكون: Air Force.

بسرعة البرق راجع أشرف محصوله من الإنجليزية، ثم قال متعجبًا:

. سلاح الطيران؟ ما علاقته بغرفتنا؟

بلهجة الخبير المعلم رد اللواء:

. في الحروب، لا يتدخل سلاح الطيران إلا في حالة الضرورة، وهو عندما يتدخل ينسف ويدمر، والفريق صاحب الطيران الأقوى والأكفأ هو الذي يربح المعركة. ونحن لدينا طيران الفضائح وعدونا ليس لديه ولو جناح طائرة. هل فهمت الآن طبيعة العلاقة؟

باندفاع قام أشرف فقبَّل رأس اللواء زبادي، الذي لطم أشرف على خده وهو يقول:

ـ اجلس وتعلم، فغدًا تحكم هذا الجهاز، وهناك فكرة أجمل بخصوص الاسم.

صاح أشرف:

. أجمل مما قلته سيادتك؟

رد اللواء:

. نختصر الاسم إلى حرفين فقط، فيصبح: AF. هذا سيجعل لرنينه



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نغمًا خاصًّا، ما رأيك؟

بانبهار قال أشرف:

. وهل للتلميذ رأي يخالف رأي الأستاذ؟ فليحفظك الله لي وللبلد!

عندما دعا أشرف الله بأن يحفظ اللواء زبادي للبلد لم يكن يجامله، ولكنه كان يقر بحقيقة ساطعة، وذلك لأن سيادته يعد من أحد أكابر المؤمنين بالدفاع عن نظام حكم سيادة الرئيس مبارك، بوصفه نظامًا وطنيًّا يحفظ للبلد حريته واستقلاله.

إيمان سيادة اللواء يتبدى في صوته الهادئ العميق الحاسم، كما أن مواقفه ونظافة يده يؤكدان أن إيمانه منزه عن المصالح الشخصية. فالرجل لا يزال يقيم في شقته التي ورثها عن أبيه في وسط العاصمة، ولا يطمح إلى أكثر من تركه يمارس عمله ويفيض على شباب الجهاز من بحر علمه وخبرته.

في الاجتماع الخطير الذي يحضره عشرون ضابطًا فقط، قال سيادته بصوته الهادئ العميق الحاسم:

ـ ما يقوله الإعلام شيء وما يقوله الساسة شيء آخر، أما ما سأقوله أنا هنا في هذه القاعة المغلقة فهو الحقيقة. على الجميع أن يعلم أن معدلات النمو وصلت إلى أكثر من سبعة بالمائة، وهذه الزيادة تقلق أناسًا وتغيظ آخرين، وهؤلاء وأولئك اجتمعوا على هدف واحد، وهو استهداف بلدنا بكل أنواع المؤامرات. وعلى ذلك أقول لكم بملء فمي، وبكل قلبي، وبضمير مطمئن: إن برامج التوك شو مؤامرة، ومقالات الصحف الخاصة مؤامرة، وإضراب العمال مؤامرة، وحركة «كفاية» مؤامرة، و«٩ مارس» مؤامرة، و«٦ أبريل» مؤامرة، والبرادعي والذين معه مؤامرة، ومظاهرات سلم نقابة الصحفيين مؤامرة، والوقفات الاحتجاجية مؤامرة، وتسكع ألوف الشبان بين مقاهي وسط البلد مؤامرة، ومنظمات حقوق الإنسان مؤامرة. كل تلك المؤامرات وغيرها الكثير تريد تفتيت البلد، وهذا ما لن نسمح به أبدًا، حتى لو استخدمنا رصاص مسدساتنا الخاصة. القاتل منا سيكون بطلًا، والقتيل سيكون



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شهيدًا.

صوت سيادة اللواء الهادئ العميق الحاسم جعل الحضور يحبسون أنفاسهم لكي لا يشغلهم شيء عن متابعة كلماته. واصل سيادته قائلًا:

. الانتخابات التي على الأبواب هي فرصتنا الذهبية في التخلص دفعة واحدة من كل تلك المؤامرات. القضية لا تقبل القسمة على اثنين: إما واحد صحيح يتولى الحكم ويحفظ البلد وإما ضياع البلد. ولو ضاع فسيهبط كل منا إلى قبره وعاره يلاحقه. نحن أمناء هذه الأمة والنواب الحقيقيون عن هذا الشعب العظيم، وعلى ذلك فسنفتح أبواب الترشح أمام الجميع لكي يكون اللعب على المكشوف، ولكن لن ينجح سوى المرشح الوطني فقط. زمن الصفقات مع هذا التيار أو ذاك انتهى، زمن ترضية هذه العائلة أو تلك انتهى ولن يعود. بعد أن ينجح الوطنيون سنكون قد وضعنا البلد في يد أمينة. ولأنها أمينة مخلصة ولا تبحث عن دور تحت الأضواء أو زعامة فارغة، فإنها ستحسن اختيار الرجل القادم بعد سيادة الرئيس، متعه الله بالصحة والعمر السعيد. الرجل القادم لن يكون سوى ابن الرئيس، ليس لأنه ابن الرئيس، ولكن لأنه شاب في تمام لياقته، مهذب جدًّا، غاية في الثقافة والتحضر، له علاقات متينة ومتشعبة بالخارج. ثم، وهذا مهم جدًّا، لقد شرب السياسة من أبيه قطرةً قطرةً. أما الأهم فهو أنه لن يخرج عن خط أبيه الوطني، ولا عن مبادئه التي حفظت لبلدنا استقلاله وحريته.

أيها السادة، لن أكثر من الكلام. أنا هنا لوضع الحقائق أمام أعينكم ولكي يحمل كل منا مسؤوليته الوطنية أمام الله وأمام ضميره وأمام الشعب.

بعد نهاية الاجتماع، شعر أشرف بما يشعر به دائمًا عقب لقاءات خطيرة ومهمة كهذا اللقاء: معدلات فحولته تصل إلى عنان السماء.

أشرف لا يعرف ما هو الرابط الذي يربط بين الخطورة والفحولة؛



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هو يعتقد أن الصدق الذي يراه مجسمًا أثناء تلك الاجتماعات ينعشه، وهو عندما ينتعش يصبح فحلًا لدرجة تجعله لا يشتهي من الدنيا شيئًا قدر اشتهائه لأن تكون بثينة الآن بين يديه.

ولأن ساعات تبدو طويلة، ثقيلة، تفصل بينه وبين لقائه ببثينة، فقد بدأ أشرف يعاني من بوادر احتقان في خصيتيه من جراء تدفق الفحولة في جسده كله.

هذه الحالة يكرهها أشرف، لأنها تجعله عصبيًا، فاقدًا لتركيز يحتاجه بشدة، خاصة وهو يعلم أن اجتماعًا خطيرًا سيدعى إليه بعد العصر لتنزيل محاضرة اللواء زبادي إلى لجان وفرق عمل على الأرض.

لكي يتخلص أشرف من بوادر الاحتقان التي سرعان ما تتحول إلى سياط ألم تلهب أسفله، فقد دخل إلى حمَّام مكتبه الخاص الذي أنفق هو بنفسه على تأسيسه، خلع ملابسه وراح يعلقها على المشاجب بتمهل، قصد منه الحصول على فرصة لتهدئة أنفاسه المضطربة. هو لا يريد الانتهاء سريعًا ولكن يريد تصفية الموقف من جذوره، فهكذا علمه الجهاز. لا بد من تصفية البؤر أيًا كانت والبدء من جديد.

فتح خزانة الحمَّام وتناول البشكير القطني الوثير. هو يحب ذلك البشكير على الرغم من لونه الأسود، بل يحبه لأن لونه أسود!

لف البشكير حول خاصرته، وتعمد ألا ينظر إلى عضوه المنتصب. نظر إلى مرآة الحمَّام التي تعكس صورة للنصف العلوي من جسده، فرآه كما يحب، أبيض ورديًا، ثم سقط بعينيه نحو نصفه الأسفل فأعجبه ما رآه من تناغم بين لون البشكير الأسود وبين لون جسده الأبيض الوردي. تحرك أمام المرآة بخطوات متمايلة ليرى نصفه العاري من مختلف زواياه ثم، كأنه راقص في ملهى للعراة، راح يفك البشكير عن نصفه السفلي، حتى تخلص منه كله وظهر سيفه العظيم، يا له من سيف، يا لنعومته وقوته، يا للونه الوردي الفاتن، يا لطوله الفارع، يا لضخامة رأسه، إن سيفًا كهذا لا يستحق سوى جسد العمرى باشا، وإن جسد العمرى باشا الأبيض



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الوردي لا يليق به سوى سيف كهذا.

إن كان أشرف يحسد نفسه على تمتعه بفرج بثينة، فإنه يحسد فرج بثينة على استئثاره بسيفه.

جلس على حافة المغطس محاذرًا أن يلمس سيفه بيده، لأن الاستمناء حرام كما أنه يضعف البصر ويخرب لياقة الركبتين.

أشرف لم يمارس العادة السرية في حياته سوى مرة واحدة، ثم نفر منها مخافة الله وطاعة لأبيه الذي نصحه في فترة مراهقته بصيانة نفسه، وكان الرجل واضحًا في نصيحته حتى إنه قال لابنه:

. صُن نفسك، وضع تحت «صُن» هذه ألف خط، وأنت ذكي وتعلم حقيقة ما أقصده.

ثم لأنه في قرارة نفسه كان يحلم منذ البدء بامرأة كبثينة، يجب عليه أن يدخر لها كامل فحولته.

وهو جالس على حافة المغطس الخالي من الماء، نظر إلى سيفه المتين ثم أغمض عينيه واستدعى بثينة.

في المرات القليلة النادرة التي يضطر فيها أشرف لفعل ما سيفعله بعد قليل، لا يستطيع استدعاء أنثى سوى بثينة، ليس لأنها المرأة الوحيدة التي عرفها، ولكن لكونها الوحيدة التي تستحق أن يعاشرها.

جاء ببثينة وأمسك بها من خاصرتها وأجلسها فوق فخذيه، وشعر بدفء ونعومة ردفيها. أبعدها عنه قليلًا حتى يتمكن من إيلاج سيفه بداخلها من الخلف إلى الأمام، ثم قبض بيديه على نهديها السخيين، راحت تتماوج في تلك الوضعية التي يحبها كلاهما. سمعها وهي تهمس له: «الآن أشعر به يداعب فقرات سلسلة ظهري».

شيئًا فشيئًا تراخت قبضتاه مفلتتين نهدي بثينة، واندفع منه السائل الساخن، صانعًا بقعة تحت قدميه وفوق فخذيه.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نظر إلى المرآة من مجلسه فرأى وجهه محتقنًا بحمرة قاتلة. قام متمهلًا وفتح رشاش الماء الدافئ وراح يغتسل كأنه في بيته.

في مثل تلك المرات القليلة التي يغتسل فيها أشرف في حمَّام مكتبه، لا يشغل باله بالقيل والقال، ولا يهتم بأن يفكر في رد فعل مساعديه وجنوده عندما يلاحظون أنه قد اغتسل، وذلك لأن شرفه فوق مستوى الشبهات والجميع يشهد له بذلك، حتى منافسوه، ثم لأنه لم يرتكب والحمد لله معصية، فحتى الاستمناء لم يفعله، هو عاشر امرأته التي هي حلاله بقوة خياله وبنبل أخلاقها، إذ إنها لا تتأخر عن تلبية أمر منه ولو كان بعين الخيال. ثم من المعروف لدى الجميع في الجهاز أن معالي الوزير شخصيًّا له غرفة نوم بكل مستلزماتها في مكتبه بالوزارة.

غادر الحمَّام منتعشًا، شاكرًا بثينة التي تلبي استدعاءه لها على الفور. جلس إلى مكتبه وطلب كوبًا من قهوته الخاصة لكي يستعيد بها كامل نشاطه.

شعر أشرف وهو يرشف قهوته ببعض من تأنيب الضمير، فهو قد عمل بالحديث الشريف الذي يقول: «إن لبدنك عليك حقًّا». وهو قد أدى حق جسده وأراحه من عبء الاحتقان، ولكنه لم يعمل بباقي الحديث الذي يقول: «وإن لأهلك عليك حقًّا». وليس لأشرف أهل سوى مصر، تلك الغالية الكريمة التي يحاربها ويتآمر عليها الخونة سود القلوب والوجوه.

ولكي يؤدي حق مصر، طلب أشرف تقرير متابعة خلف. جاءه تقرير المتابعة فقرأ ما فيه:

الهدف كما هو، يغادر شقته الكائنة في العقار رقم ١٨ بشارع الشريفة بحي القُللي في تمام السابعة صباحًا ثم يذهب إلى الفجالة، وهناك يأخذ من مكتبة متخصصة في بيع مستلزمات المدارس والتلاميذ، ملء كرتونة من الأدوات ويذهب بها إلى رصيف مقهى في ميدان رمسيس يسمى «مقهى سطوحي»، ويظل يبيع ما معه للمارة حتى أذان العصر، فيعيد ما بقي معه من



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مستلزمات إلى صاحب المكتبة، ثم يصلي العصر في مسجد الفتح، ثم يتجه إلى شقته ولا يغادرها إلا في صباح اليوم التالي، وسوف نوافي سيادتكم بكل جديد يخص الهدف.

بعد أن قرأ أشرف التقرير تملكه الغضب حتى كاد يمزق التقرير. ثم بمشقة سيطر على نفسه، فتناول هاتف مكتبه واتصل برقم خاص وراح يصيح:

. هل أنتم ناس لها عقول أم مجموعة من البهائم؟ ما معنى أن الهدف كما هو؟ ماذا فهمت أنا من هذه الجملة؟ ثم ما هو اسم المكتبة، وما اسم صاحبها وما علاقة الهدف به؟ ثم هل دفع لأصحاب المكتبة تأمينًا أم لا؟ ولو كان قد دفع، فكم يبلغ التأمين؟ ومن أين جاء به؟ وما حالته المادية الآن؟ ثم، وهذا مهم جدًّا، ما حالته النفسية والعقلية؟ ثم مع مَن يصلي في مسجد الفتح؟ ولماذا مسجد الفتح تحديدًا؟ التقرير ليس به أي إجابة عن كل هذه الأسئلة، هذا ليس تقريرًا، إنه مجموعة من الكلمات التي لا تؤخر ولا تقدم، مليون مرة قلت وقال كل القادة إننا في مرحلة عصيبة وكل لحظة تمر بنا لها ثمن. هل سأقوم أنا بمراقبة سي خلف أو سي زفت؟ غدًا سأحاسبكم جميعًا حتى تتعلموا كيف تكتبون تقريرًا عن شيء تافه اسمه خلف.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تقف الدهشة على رأس الأسباب التي جعلت ليلى تحب مالك الجندي. إنه، بكلماته وتصرفاته، بل بمجرد وجوده في محيطها، يستطيع إعادتها إلى زمن دهشة اكتشاف الأشياء والفرح بها، وقد فعلها مالك مجددًا عندما رفعت ليلى عينيها عن أوراقها فوجدته واقفًا على رأس مكتبها.

مالك المدهش جاء إلى غرفة مكتبها بعد ساعتين من إرسالها ما كتبته عن أبيها إليه. وقفت تنظر إليه، إلى سمرته التي تفتنها وإلى لحيته النابتة الرمادية وإلى شعر رأسه الخشن، وإلى نظارته الطبية التي أهدته هي إطارها. هي لا تريد أن يفسد ارتباكها من حضوره المفاجئ دهشتها، كما لا تريد لدهشتها أن تدفعها إلى حضنه.

وضعت أوراقها بداخل درج مكتبها وتناولت حقيبة يدها وعلقتها في كتفها، وأشارت إلى مالك بالخروج دون أن يتبادلا كلمة واحدة.

لم تستأذن أحدًا في مغادرتها قبل مواعيد المغادرة الرسمية، كما لم تلتفت إلى الزملاء والزميلات الذين رشقوا أعينهم في ظهريهما هي ومالك.

في المصعد تمنت لو قبَّلها أو لمسها أو حتى كلمها. لقد أغمض عينيه فور دخولهما المصعد ولاذ بالصمت.

صعد معها إلى سيارتها وهو لا يزال صامتًا، عبث في علبة الأسطوانات حتى وجد الأسطوانة التي يبحث عنها.

شغل الأسطوانة فجاء صوت فيروز:

بيطلع ع بالي

ارجع أنا وياك

إنت حلالي



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ارجع أنا وياك

كانت ليلى تقود سيارتها بعين وبالأخرى تراقب حبيبها، كان وجهه منتفخًا كأنه متورم، وكان كلما انتهت الأغنية أعادها مجددًا. لم تجرؤ ليلى على سؤاله عن وجهتهما، كانت تقود صامتة مثله، وكانت تشتهي لو يتوقف تمدده بداخلها. إنه الآن في لحظات صمته وتورم وجهه يحتلها من رأسها حتى قدميها، إنه الآن أقرب وأحب إليها من أي وقت مضى، إنه الآن مثلها مهزوم بلا ادعاء، مهزوم حتى الأعماق.

ألف خاطر مر على بالها وهي تختلس النظر إليه: ربما سيعاتبها بقسوة على غيابها، وهو وقت عتابه يكون عنيفًا يضرب بلا هوادة، وربما أزعجه ما كتبته عن أبيها، وهو حساس جدًّا لهذه النقطة لأنه لا يرغب قط في لعب دور الأب، وربما كانت الطامة وأخبرها بعزمه على قطع علاقتهما.

الأقرب إلى الواقع والمنطق أنه لن يتزوجها ولكن مجرد وجوده في حياتها، أيًّا كان شكل هذا الوجود، هو ما يبقيها على قيد الحياة.

رأت ليلى، بعينها التي تختلس بها النظر إلى وجه مالك، التورم وهو يذهب شيئًا فشيئًا. عاد لمالك وجهه الذي تعشقه، ثم بعد أن استمع إلى أغنية فيروز قرابة عشر مرات متتالية، انحلت عقدة لسانه، فأنزل زجاج نافذته بعض الشيء وأشعل سيجارة والتفت إلى ليلى وقال بطريقته التي تفتنها:

. قبل أن أتكلم يجب أن تعترفي أولًا بأنك مجرمة وسافلة.

يا الله! حتى شتائمه تجعلها ترتعش، شهوة أو رغبة في الحياة أو ربما شوقًا لسماع صوته الحبيب.

ردتْ ليلى مبتسمة:

- إن كان يرضيك هذا فأنا كما قلت، ولكن قل لي كيف عرفت طريق عملي؟ وكيف تجرأت على زيارتي؟



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قال مالك بجديته المعتادة:

. الجرأة كانت بدافع أكيد من الألم، كان غيابك يؤلمني، يعتصر قلبي، فدافعت عما بقي لي من قلب وجئت إليك. أما معرفتي للعنوان فكانت ميسورة، من خلال موقع شركتك على الإنترنت. الطيب في الأمر أنني عرفت غرفة مكتبك دون دليل.

أعجبت ليلى جملتُه الأخيرة فسألته مشاكسة:

. هل أعد معرفتك لغرفتي من علامات حبك لي؟

رد كأنه جاد:

. مَن أنتِ حتى أحبك أنا؟ ها أنا أكذب الآن. أنتِ لست الحبيبة، أنتِ الحب، ما إن جئتكِ حتى ذهب عني ما كان بي من ألم ووجع، أنت الشفاء التام الكامل. قرأت ما كتبته فور وصوله لي، فأحببتكِ كما لم أحبكِ من قبل. أنا خادم لدى الكلمات الطيبة الصادقة، لا بل أنا عبدها، عندما يكتب الطيبون الصادقون فإنهم يستعبدونني. عبودية حلوة، أنشدها ولا أريد التحرر منها، عبودية تجعلني أصفى وأجمل.

حضور مالك يجعل ليلى غير منتبهة لشيء سوى لحضوره. كانت تسير خلف السيارات ولا تعرف إلى أين هي متجهة، ولذا ما كان أشد دهشتها عندما وجدت نفسها أمام مركب سياحي يقف على شاطئ نيل الزمالك. أشارت مبتسمة لمالك:

. هل نهبط هنا؟

ضحك وهو يقول:

. ونعم الاختيار، حتى ولو لم تكوني قد قصدته.

هبطا من السيارة، وكعادته ودون أن ترتاب ليلى في شيء، أفسح لها مالك الطريق لكي تتقدمه بخطوة. تلك الخطوة التي يحسبها بكل دقة تمكنه من أن يدخر مشهد جسدها لأيام جوعه.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ظهرها ليس طيبًا كظهر نادية. هو، وإن كان ناضجًا، لا تزال به بعض علامات رعونة وطيش وفتوة الشباب. بنطلونها الجينز يعطي لساقيها استطالة محببة لطيفة، كعبا قدميها اللذان يظهران من صندلها الجلدي المشغول يلمعان نظافة وحمرة، ثمة خلخال ذهبي دقيق يظهر أسفل بنطلونها في قدمها اليمنى، قميصها الأصفر المزين بورد صغير أحمر يبدو متناغمًا مع بنطلونها الأسود وسترتها السوداء، غطاء رأسها تعقده بطريقة فريدة، بحيث يغطي رأسها لكنه يترك المجال لتطل خصلة ناعمة من مقدمة شعرها، تكويرات أنوثتها ليست رخيصة ولا مبتذلة. إنها مكتملة دون نقص هنا ولا ترهل هناك، التي أمامه ليست شابة، إنها رحيق الشباب وعصارته.

جلسا في زاوية بعيدة عن تطفل العيون، جسد النهر أمامهما، والبنايات الشاهقة تطل عليهما من الضفة المقابلة. جاءهما النادل بكوب من عصير البرتقال وضعه أمام ليلى، وبفنجان من القهوة وضعه أمام مالك، ثم انصرف في هدوء كما جاء.

بخجل قالت ليلى:

. أليس من حقي مكافأة؟

يفهم مالك ما ترمي إليه فيخرج علبة سجائره ويشعل سيجارتين يقدم واحدة منهما لليلى. ثم يقول، وهو يستطلع الجالسين حولهما:

ـ بعضهم سيقول: «أب ديمقراطي يسمح لابنته بالتدخين في حضرته»، وآخرون سيقولون: «بل هو متهتك».

قالت ليلى:

. بل سيقولون: «عجوز يغوي مراهقة».

ضحك مالك ملء قلبه كما لم يضحك منذ زمن بعيد، ثم قال:

ـ ولماذا تستجيب المراهقة لإغواء العجوز؟ هل تعرفين أنني بدأت أخاف من التدخين؟ أصبحت أفكر كثيرًا في الإقلاع عنه.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تعكر صفاء وجه ليلى وهي ترد قائلة:

ـ ما معنى رجل بلا رائحة تبغه؟ هل تظن أن التدخين يقتل الرجال؟

التدخين لم يقتل أبي، قتله صعوده إلى ذروة لحظته الاستثنائية.

قال مالك:

ـ لأن ما كتبته عن أبيكِ هو ما جعلني أقتحم عليك مكتبك، فدعيني أتكلم دون مقاطعة ولتسمعيني جيدًا. ليست مبالغة أن الكتابة عن أمر ما، إن كانت إحياءً لهذا الأمر من ناحية، فهي قتل له من ناحية أخرى. عندما تنتهين من كتابتك ستدركين صدق ما أقول. بداية ستعيدين أباك إلى الحياة، سطورك ستخلده على نحو ما، ولكنك ستتخلصين من عبء محبتك له، لن تفتقديه بعدها، بل لن تشتاقي إليه، سيسري في عروقك مسرى الدم وبذا تكونين قد قتلته. واصلي دون توقف. واصلي وتحملي قسوة النزف، سأغفر لكِ هجركِ لي ما دمت تكتبين.

غمغمت ليلى قائلة:

ـ كعادتك أيها العجوز أنت تدهشني، لقد كتبت لأواجه نفسي وليس لأعجبك.

قال مالك:

ـ أنتِ لم تعجبيني فحسب، بل ألهمتني. تعرفين أنني مشغول بدراسة عن انقطاع نسب المصريين. قال الدكتور جاد إن دراستي تفتقر إلى أدلة العلم.

هو صادق ولكني أبحث عن عروق الكارثة في بطون الكتابات الطيبة الصادقة التي مثل كتاباتك، وحتمًا سأجد الدليل. إنني أعرف أن الحاج مسعود هو جدك لأمك، وأعرف أن أباك هو المهندس عمر، وأن أمك هي الحبيبة سعاد. ضعي هؤلاء وسلوكياتهم ومجمل عالمهم في كفة وضعينا نحن الآن في الكفة



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأخرى وستعرفين ما أقصده. لم يعد بمقدورنا التبجح بأننا أولاد هؤلاء. أين ذهب، يا صغيرتي، الفنانون الربانيون؟ أين ذهب معنى العمل والكد والإنجاز؟ أين ذهبت تجليات الفن؟ أين ذهب الحب؟

سارعت ليلى ووضعت مقدمة أصابع يمينها على فم مالك لتسكته ثم قالت:

. الحب باقٍ يا مالك، أنت الحب.

بعد الغداء المتأخر غابت الشمس سريعًا. يعرف مالك أن ليلى لا بد أن تعود إلى بيتها، وأنه يجب أن يعود إلى مقبرته حيث رائحة محاسن. يعرف مالك أن فيروز مجرد مغنية تسوِّق لأمنية تبدو مستحيلة. فيروز، في الأغنية، يطلع على بالها أن تترك الدنيا لتعود مع حبيبها حلالها. هو أيضًا يطلع على باله أن يعود مع ليلى حلاله، لكن الأمر في حقيقته مجرد خاطر يحتاج تنفيذه إلى قفزة في الفراغ الكوني.

تعرف ليلى حقيقة مشاعر مالك في رحلة العودة إلى يُتْم الوحشة والوحدة والفراغ، لأنها تعاني المشاعر نفسها وتقع على قلبها الأحاسيس ذاتها.

لكي تطيل ليلى زمن بقائها مع مالك، أصرت على أن تقود به حتى مكان قريب من مسكنه.

مالك وليلى يشتهي كلاهما الآخر اشتهاءً عاريًا واضحًا لا لبس فيه. ولكن احترامًا لألف قيمة بينهما، لا يتحدثان في الأمر تصريحًا أو تلميحًا، ولا يسيران في طريق قد يؤدي إلى انفجار شهوة إن أطاعاها ستطيح حتمًا بكل قيمهما. ما بينهما على صعيد الجسد لا يزيد على لثم باطن الأيدي، وهما معًا يقنعان بتلك القبلات المسروقة.

كثيرًا ما ضمهما مكان يسمح بما هو فوق لثم الأيدي، ولكنهما كانا يحرصان على تجنب زلزال إن عرفا بدايته فلن يعرفا نهايته.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ضاعت معالم الطريق من ليلى، فطلبت من مالك أن يرشدها، فضحك وقال:

. لا تنزعجي لو قلت لكِ إنني تائه معكِ. سأكون صريحًا: أنا لا أريد لهذا الطريق أن ينتهي أبدًا.

تنهدت ليلى وقالت:

. رغبتي في أن أضيع معك تفوق رغبتك بألف مرة.

أراح مالك رأسه على مسند مقعده ثم أنشد بصوت يقطر حزنًا:

يغيِّر مني الدهر ما شاء غيرها وأبلغ أقصى العمر وهي كعاب

ثم التفت إلى ليلى وقال:

ـ هذا هو المتنبي يا حبيبتي، يفضح سر مأساتي ويكشف عن خلاصة فتنتي. المتنبي يتحدث عن نفسه التي بين جنبيه، يقول إن الدهر له أن يغيِّر بداخله كيفما شاء، لكن هذا الدهر نفسه لن يستطيع أن يغيِّر من نفس المتنبي الذي، حتى لو بلغ منتهى العمر، ستظل نفسه شابة متألقة كأنها البنت الكاعب ذات النهدين المرتفعين في شموخ وكبرياء. كأن المتنبي يكتب عني أنا يا حبيبتي عندما أكون معكِ، لحظتها تصبح نفسي قوية شابة متحدية، كأنها لم تعرف الهزيمة ولا الانكسار، وكأنها لن تعرف الشيخوخة حتى لو عشت ألف عام. تلك المفارقة بين جسد عجوز ونفس شابة هي خلاصة الفتنة وسر المأساة.

لم تكن ليلى قد تعبت من القيادة عندما توقفت بجوار رصيف شارع مجهول. كانت تنشد بعض الهدوء بعد سماعها لاعتراف من اعترافات مالك التي تبعثرها وتلقي على كتفيها مسؤولية إسعاد هذا العجوز الحزين ذي النفس التي لن يلحقها المشيب.

مدت ليلى كف يمناها وتلمست صدر مالك، راحت ببطء ورقة تمرر كفها فوق موضع قلبه. قالت، وقد أغمضت عينيها:

. لست عجوزي الحزين، أنت طفلي الحزين.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تناول مالك يمينها وقبّلها وقال:

. سواء كنت عجوزك أم طفلك، فأنا حزين في الحالتين.

مالك لا يحب خداع نفسه، إنه يحاصرها بالأسئلة حتى تنهار معترفة بأدق صغائرها. نفسه تعترف الآن بأنه يشتهي هذه البنت التي على مرمى ذراع منه، حتى تلك المسافة تلاشت، لقد اقتربت منه كثيرًا، نهدها الأيمن يحتك بكتفه الأيسر، لقد أصبحت على بعد شهقة منه، حتى الشهقة تلاشت.

شفتا مَن منهما كانت الأسرع في التهام شفتي الآخر؟ سؤال لن يجدا إجابة له قط.

لا ليل ولا سيارة متوقفة في شارع مجهول، ولا مارة ولا سيارات ترسل نور مصابيحها في الاتجاه المعاكس، لا عجوز حزينًا ولا شابة عفية، لا شيء هنا سوى أربع شفاه لا يمكن التمييز بينها. كيف صغرت شفتا ليلى حتى غابتا داخل فم مالك؟ وكيف كبرتا حتى اعتصرتا شفتي مالك ولسانه؟

قد تكون هذه القبلة المتواصلة هي مطلق الجنون أو تمام الغيبوبة أو بشارة الخلاص.

هذه هي القبلة الأولى بعد مضي أربع سنوات وخمسة أشهر وعشرة أيام على تلك الليلة التي جلست فيها ليلى في صفوف الحاضرين لندوة، كان مالك يلقي فيها محاضرة عن شعر الصوفيين.

أخيرًا، وبقوة الجبابرة، تمكنت ليلى من استرداد شفتيها من بين شفتي مالك. قالت وقد ألقت برأسها فوق صدره:

. إنني ولدت الليلة من جديد، قبلتنا كالوشم لن تزول أبدًا.

رد مالك وهو يكاد يبكي:

. أخاف عليك من أمن الدولة.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# 20

كون مالك خائنًا. من وجهة نظر محاسن. فهذا أمر من البديهيات التي لا تحتاج إلى نقاش، ولكنها تحتاج إلى دليل حتى لو كان بسيطًا أو تافهًا. وذلك الدليل لم تظفر به محاسن قط.

ليلة اللقاء التاريخي، أو لقاء الولادة الثانية، الذي ضم مالك وليلى، قدم مالك بنفسه أخيرًا الدليل الذي تبحث عنه محاسن، لكنها لم تلتفت إليه، فقبل عودة مالك إلى البيت كانت آلة التعاسة الجبارة قد فرمت محاسن وتركتها مثل كومة من ملابس بالية لا تصلح حتى لتنظيف أرضية حمَّام أو مطبخ.

دخل مالك بيته ومحاسن على حالتها تلك، ألقى عليها تحية المساء فغمغمت برد لم يهتم هو بمعرفة ألفاظه.

تركها وذهب إلى غرفة نومه. جلستْ على مقعد من مقاعد السفرة، عقدتْ يديها فوق صدرها ثم شغلتها خطوط ودوائر مفرش السفرة ـ خطوط بلا معنى ودوائر معقدة، متاهة من الألوان الصارخة التي انطفأ بريقها بفعل الزمن. رأت محاسن في تلك المتاهة تشابهًا أكيدًا مع حياتها، تلك الخطوط والدوائر تمثلها، وعتمة الألوان تحاكيها. وقبل أن تتهم مالك بتعمد اقتناء مفرش كهذا، وفق عادته الخبيثة في إرسال الرسائل الملغزة، تذكرت أنها هي التي ابتاعت المفرش، وتذكرت تعليق مالك المقتضب عليه:

. ما هذه الألوان البذيئة؟

ارتاحت محاسن قليلًا حتى إنها فكت عقدة يديها عندما رأت أن اختيارها لمفرش كهذا، كان نبوءة مبكرة لما ستصير إليه حياتها، التي لا تخرج عن زوج متمرس في الخيانة لا يترك دليلًا يفضحه وحياة معتمة بلا معنى أو هدف.

قامت إلى المطبخ مفتقدة أصوات أولادها الذين لا تعرف أين هم الآن. شربت نصف زجاجة من الماء البارد، ثم غسلت وجهها



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالنصف الآخر وزفرت مرات متتابعات، ثم غادرت المطبخ وعادت إلى مقعد السفرة.

الآن وليس بعد دقيقة يجب أن تواجه مالك بكل شيء، بكل شيء. لم تعد الأدلة مهمة، حصولها على دليل أصبح مستحيلًا، بؤسها هو الدليل الذي لا ينقض. ستطالبه بالإذعان الكامل التام غير المشروط. من الآن فصاعدًا لا وجود للعاهرات في حياته، وعلى رأسهن نادية أحمد مرتضى، لا داعي للحشمة بعد الليلة.

أسوأ الكذب هو الكذب على النفس، وعلى ذلك فنادية عاهرة لا شك في عهرها، فإن لم تكن قد مكنته من نفسها، فقد أفسدت بتجملها أمامه ما كان بينه وبين زوجته من ود وتراحم.

هي لن تتجمل ولن تتزين بل لن تغتسل إلا متى أرادت، وعليه أن يقبلها ويقبِّلها ويحتضنها كما هي. ولا شأن لها بظهر نادية المنتصب ولا بخطواتها الواثقة ولا بعطرها، لا شأن لها بأي عاهرة من اللاتي يعرفهن، ولن تدعه يحدثها ثانية تصريحًا أو حتى تلميحًا عن فلانة أو علانة. ما كان قد انتهى، ومن اللحظة لا وجود لغيرها على كامل مساحة قلبه وعلى كل أيام ما بقي له من حياة.

في اللحظات ذاتها التي كانت محاسن تقرر فيها منفردة مصير حياتها مع مالك، كان مالك قد دخل غرفة النوم فوجدها كأتعس ما تكون غرف النوم. نفض عن أنفه عطر ليلى، وباعد بينه وبين عطر ياسمين غرفة نادية، وقرر ترتيب الغرفة وتهويتها وهو يرتدي كامل ملابسه. بدأ بالسرير وانتهى بتلميع زجاج التسريحة. في المسافة الفاصلة بين التسريحة والدولاب، رأى قطعة ملابس داخلية ملقاة على الأرض. القطعة يقينًا تخص محاسن. لم تكن القطعة سوى لباس، تناوله مالك بأطراف أصابعه كما لو كان يمسك ذيل فأر متعفن، إنه الآن أمام لباس واسع فضفاض مترهل مصنوع من قماش رخيص مبتذل. رفعه حتى قرب عينيه ليتأكد من لونه، فلم يجزم برأي: هل كان اللباس في أول أمره أصفر اللون أم أبيضه؟



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان اللباس كأنه خرج من فم كلب لاكه لساعات، وبداخله كان خيط من نتانة العرق والتراب.

هذا اللباس البائس احتل بقدرة عجيبة بؤرة شعور مالك فلم يعد يفكر سوى فيه، حتى إنه جره إلى عقد مقارنة مع نظيره الذي حتمًا تلبسه ليلى. لمحاسن لباس، أما الآخر الذي تلبسه ليلى فيسمونه «كلوت»، وما بين التسميتين فرق شاسع يُظهر ما بين المرأتين من تناقض وتضاد.

لباس محاسن من قماش رخيص لا لون له، كلوت ليلى من حرير ثرثار، كتوم، فصيح، عيي، مفر، مكر، مقدام، جبان، حكيم، طائش.

لباس محاسن يداري مؤخرتها التي ترهلت، كلوت ليلى لعوب يلثم قطيفة وردتها السرية.

لباس محاسن يختصر رائحتها المنتنة، كلوت ليلى يرشف على مهل عطورها ورائحة نظافتها.

بقدرته الفريدة الخارقة على الخروج من موضوع إلى آخر، قرر مالك أن يكتب في يوم من الأيام قصة قصيرة يكون عنوانها «في مديح الكلوت وسيدته».

ألقى مالك بلباس محاسن في سلة القمامة وأخرج السلة من غرفة النوم، وأغلق على نفسه الباب وفتح نافذة الغرفة. ثم جلس، وهو لا يزال مرتديًا ملابسه، على حافة السرير، وقرَّب منه مطفأة ودخن سيجارة بتلذذ الذي يدخن آخر سيجارة في عمره. ثم تمدد بطوله على سريره المرتب النظيف، واضعًا يديه خلف رأسه، ناظرًا إلى السقف، سائلًا نفسه عن حقيقة شعورها بالإثم بعد قبلته مع ليلى. فلم يجد بداخل نفسه سوى شيء كأنه التوبيخ أو الاستنكار، ولكنه لا يرقى لدرجة الإثم والمعصية. خاف من حقيقة شعوره، وخاف من أن يعاقبه الله بأن ينزع ليلى من بين يديه. إنه يريدها في الحلال الذي يعرفه، وهو يؤمن أن لا شيء يباعد بين المرء وبين الحلال سوى اقتراف المعاصي. وبطريقته الفريدة خرج مالك من كل ذلك ليبحث عن تفسير كان



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بداخله عندما وصف كلوت ليلى بأنه «لعوب يلثم قطيفة وردتها السرية».

ابتسم عندما اعترف بأن جملته الغامضة لا تعني سوى الحديث عن عانة ليلى التي يتخيلها مثل قطيفة سوداء ناعمة غزيرة مسترسلة.

نام مالك بينما أصابعه تجوس خلال القطيفة السوداء، تداعب منبتها وتربت على أعلاها.

في لحظة استغراق مالك في النوم، اقتحمت محاسن الغرفة مثل قذيفة لكي تبلغه ما عقدت عليه العزم. وجدته نائمًا كأنه ميت، بل وجدته ميتًا كأنه نائم، فارتاحت لفكرة موته المفاجئ، فبصقت تجاه وجهه وغادرت الغرفة.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# 21

سيظل أشرف العمري ما بقي له من عمر يذكر ليلة الخميس الخامس والعشرين من شهر نوفمبر من العام ٢٠١٠. في ذلك اليوم، عاد أشرف من عمله منتعشًا كعادته، فقد أنجز على أكمل وجه كل الأمور المتعلقة بانتخابات البرلمان التي ستبدأ يوم الأحد الثامن والعشرين من نوفمبر، وقد فرض أثناء إنجاز الأعمال سيطرته . بمهارته . على فريق العمل المعاون له. باختصار، كان اليوم من أيام أشرف باشا التاريخية، لا يعكر صفاء تاريخيته شيء سوى أنه لم يقم بنفسه برؤية ما صار إليه خلف التافه، وهو الأمر الذي سيفعله غدًا الجمعة. أما الليلة فهي خالصة لجسد بثينة، إنه الليلة محقون بمشاعر جديدة تجاه جسد بثينة، إنه على غير عادته لا يريد أن يمتص جسدها ولا أن يخربه ويعيد بناءه، كما أنه لا يريد أن يتناوله كما يتناول ثمرة المانجو بيديه وأسنانه. الليلة يريد مكافأة هذا الجسد المعطاء الثري، يريد أن يسمع جسدها وهو يقول له بملء فمه: «شكرًا يا باشا، لقد أعطيتَ فأجزلتَ العطاء».

أشرف لا يدخن، لإيمانه بأن التدخين محرم شرعًا كما أنه يهدد فحولة الرجل، وهو يتخذ الموقف ذاته من كل أنواع المسكرات، سواء أكانت خمورًا أم حشيشًا. ولكنه الليلة على وجه الخصوص، وتحت ضغط مشاعره بضرورة مكافأة جسد بثينة، دخل إلى غرفة النوم ومعه كأس واحدة وزجاجة من أفخر أنواع النبيذ.

قبل عودته إلى البيت، كان قد ناقش قضية المشروبات مع مثله الأعلى، سيادة اللواء زبادي، الذي استمع إليه كعادته جيدًا، ثم ضربه بقوة على صدره وهو يقول:

. لا بأس أيها الفهد الأرعن بكأس من النبيذ.

عندما دخلت بثينة على أشرف، تأملها كأنه يراها للمرة الأولى، وتأكد للمرة المليون من أحقية جسدها في مكافأة خاصة خالدة لا يزول أثرها.

كانت بثينة قد اخترعت نقابًا بهت أشرف عندما دخلت عليه به.

46%
الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان النقاب مكونًا من خمس قطع: الأولى تغطي رأس بثينة وكتفيها، والثانية تبدأ من الكتفين حتى أسفل نهديها، والثالثة تصل إلى سرتها، والرابعة تنتهي عند بداية فخذيها، والخامسة تصل إلى كعبيها. وكل قطعة تربطها بأختها أزرار فضية لامعة. والأعجب من كل ذلك أن لكل قطعة لونًا واضحًا صريحًا صارخًا يتنافر مع باقي الألوان، ولكن ذلك التنافر الفج زاد من افتتان أشرف بهذا الجسد المعطاء وبتلك المرأة الفنانة المخترعة.

وقفت بثينة بمواجهة أشرف الجالس على حافة السرير، وقالت بصوتها الذي يقطر شبقًا تجيد كسوته بطبقة من الخجل الفاتن:

. يظهر من عينيك أن النقاب قد أعجبك. لا تخف، لم يعلم بسره أحد في طول مصر وعرضها. لقد صممته بنفسي وأرسلت التصميم عبر الإنترنت إلى بيت أزياء تركي، وكل ذلك جرى تحت اسم مستعار. وقد تسلمته في كافتيريا تمتلكها صديقة لي على الطريق الصحراوي.

كلام بثينة جعلها تسيطر على أشرف كامل السيطرة. هذه امرأة لا تعصي له أمرًا وتصنع من أجله كل شيء ولا تكلفه حتى عناء التفكير في إصدار توجيه لها.

رد عليها أشرف قائلًا:

. ليلتنا ستكون تاريخية، ساعديني لكي لا أتحول إلى آكل لحوم بشرية.

ضحكت بشبقها الخجول وقالت:

ـ النقاب ليس مفاجأة ليلتي الوحيدة، ثمة مفاجأة أخرى ستكتشفها بنفسك.

صبَّ أشرف لنفسه كأسًا ورشف رشفة واحدة، فسألته بثينة وهي لا تزال واقفة:

. هذا أمر جديد...



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قال أشرف وقد أرضاه مذاق النبيذ الذي يشربه للمرة الأولى:

. أوصاني به سيادة اللواء زبادي، وقال إن أبا حنيفة قد أحله، وأنت تعرفين أن سيادة اللواء متبحر في مسائل الفقه والشريعة.

قالت بثينة بلهجة آمرة يحبها أشرف جدًا، خاصة في لحظة كالتي يعيشانها:

. هذه الليلة ليست ليلة أبي حنيفة أو الشافعي، إنها ليلتي، وأنا الملكة فاتركني أفعل بك ما أشاء.

صاح أشرف معترضًا:

. بل اتركيني حتى أرضي جسدك.

لوَّنت بثينة لهجتها الآمرة وجعلتها لينة منكسرة مترجية وقالت:

. يرضي جسدي أن يرضيك، فتكرم وتنازل يا سيدي لجاريتك عن القيادة الليلة فقط.

بيدين خبيرتين مدربتين، راحت بثينة تخلع عن أشرف ملابسه حتى أصبح عاريًا لا يستره شيء. كان يشهق من فرط حساسية لمساتها وسرعتها. تأملته عاريًا ثم طافت حوله كأنه تمثال لإله قديم. كانت تتمتم بما لا يعرف، كأنها تتلو صلوات سرية غامضة.

انتصب أشرف حتى كاد أن ينفجر فترجاها قائلًا:

. هذا يكفي سأموت محروقًا بسعير اللذة!

كأنها لم تسمع كلمته، تناولت كأس النبيذ وملأتها حتى حافتها وراحت تصب النبيذ فوق جسد أشرف، بادئةً من أصابع قدميه وصاعدةً حتى أعلى فخذيه، تصب القطرة ثم تلعقها بلسان جائع وفم ظامئ وشفتين شرهتين.

دوار اللذة جعل أشرف يشعر كأن سقف الغرفة يطبق على صدره، ولكن الدوار ذاته جعله مخذولًا مستسلمًا، لا يستطيع مقاومة لعبة اللعق التي اخترعتها بثينة.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سلطت بثينة عينيها قليلًا على عيني أشرف وقالت:

. الآن جاء دوره فتجلد ولا ترتعش فما زلنا في بداية ليلتي.

ملأت الكأس ثانية ثم تناولت برقة . جعلت أشرف يصرخ . سيفه الخارق وغمسته كله في الكأس ثم أخرجته وهو يرشح نبيذًا معتقًا، وراحت تلعقه من منبته حتى منتهاه.

حاول أشرف التماسك ولكن تماسكه انهار فجأة، فوقف في مواجهة بثينة وكل عروقه تنتفض، وطرحها فوق السرير فضحكتْ ضحكة أذابته. مد يديه ليخلع عنها نقابها فأرشدته قائلةً:

. ابدأ من قدميَّ لأن مفاجأتي في الأعلى.

بأصابع ترعشها الشهوة العارمة خلص قدميها من قطعة النقاب، وكان كلما خلصها من قطعة يشهق كأنه على وشك الغرق، حتى إذا وصل إلى رأسها وجد المرأة الفنانة المبتكرة قد قصت شعرها الأسود الطويل، وجعلته في طول شعر صبي مراهق، وزاد بأن صبغته بلون بني داكن.

اهتاج أشرف، إنه الآن أمام صبي ناعم وامرأة ناضجة، إنه أمام مخلوق جديد لا يعرف من أين يبدأ معه.

لقد انهار فوقها وهو يصيح:

. ستقتلينني الليلة يا امرأة.

بقوة لم يظن أشرف أن بثينة تتمتع بها، انتفضت من تحته فغاص وجهه في مرتبة السرير الوثيرة، فقبضتْ على مقدمة شعره بعنف وهي تزمجر:

. ارفع رأسك فجاريتك تنتظرك.

عندما اعتدل رآها ساجدة بين يديه وهي تقول:

. ادخلني من الخلف حتى أشعر بسيفك يطعن فقرات ظهري.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دخلها بكل قوته كما أرادت فتقلصت وانكمشت حتى أصبح جسدها كله يملأ بالكاد راحتيه.

على غير عادتها لم تغنج بثينة، بل راحت تبكي بكاءً مرًّا استغربه أشرف. قالت من بين دموعها:

. ماذا، لأي أمر من الأمور، لو فقدتك يا سيدي؟ ماذا سيحدث لي؟ أنت لست زوجي ولا حبيبي، أنت السيد المطاع، أنت معلمي المرشد، علمتني كل شيء، أغدقتَ عليَّ كل خيرك، لماذا لا تريح جاريتك يا سيدي وتلتهم جسدها، فتظل في جوفك وتصبح دمًا في عروقك؟

ليلتها وصلت بثينة إلى ذروتها ثلاث مرات متتابعة في أقل من عشر دقائق، وعندما دفق أشرف دفقته الأخيرة وخرج منها، استدارت بثينة لتواجهه، ثم برفق دفعته ليتمدد فوق السرير وانكمشت هي دافنة رأسها في حضنه. وظلت هكذا حتى تسللت يد أشرف إلى تحت الوسادة وتناولت علبة، ثم رفع رأس بثينة وهو يلوح بالعلبة الفاخرة وهو يقول:

. غلبتني فلم تتركيني أرضي جسدك، ولكن غلبتك واشتريت لك هذا العقد الماسي بثلاثمائة ألف من محل المهندس عمر.

عندما طوَّق أشرف عنقها بعقده الماسي، وفي أقل من الثانية، كانت بثينة قد راجعت حسابات مكاسب جسدها فوجدتها تزيد على السبعة ملايين بمائة ألف، فأطلقت دفعة من الدموع بللت بها يد أشرف ثم قبلتها.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# 22

لن يعرف مالك قط ما الذي فعلته قبلته بليلى.

في حمى القبلة، شعرت ليلى بما عاشته مرات نادرة في عالم المنام، عندما ترى في نومها لقاءً خاصًا يجمعها بمالك. في حمى القبلة، شعرت بنيران تحرق جسدها كله، تضافرت مع النيران موجات ارتعاش قاسية، ثم انقبض أسفل بطنها كأن يدًا قاسية تقبض عليه، ثم تلاحقت أنفاسها، ثم هطل عسل ساخن كثيف من سرها الأكبر. لحظتها تملكها الخجل وخافت أن يعرف مالك سرها فأوغلت في قبلتها لتلهيه عن معرفة ما حدث لها.

ستعود ليلى إلى بيتها منفردة كما تعود كل مرة بعد لقاءاتها مع مالك، لكن لقاء الليلة ليس كغيره، إنها واقعة تحت وطأة شعور مركب معقد، يجمع بين الذنب والفخر والخجل والسخرية والفرح.

مذنبة لأن مالك ليس رجلها الشرعي، وفخورة بحبها له وبحبه لها، أما الخجل فلأنها لم تتمالك نفسها ولم تحكم سيطرتها على جسدها وتركت سرها يخونها ويمطر عسله حتى بللت ملابسها الداخلية. كيف يكون لها جسد ومشاعر مراهقة، وهي التي ستحتفل بعد شهرين ببلوغها الخامسة والثلاثين؟

أما السخرية فلأن كل ذلك هو حرث في الماء. في عالم الواقع، مالك زوج لأخرى، بينما هي تتزوج برودة سريرها ووحشة ظلام غرفتها. ولكن كل ما سبق لا يكدر فرحتها، هي كمالك لا تستطيع تزييف مشاعرها، وهي فرحة لأن خشونة لحيته النابتة قد تركت أثرًا على خديها، ولأن شاربه قد داعب شفتيها، ولأنها أخيرًا ذاقت قبلة حب.

في حمَّام منزلها وهي تغتسل تعاظمت فرحة ليلى حتى إنها راحت تدندن بلحن أغنية فيروز:

بيطلع ع بالي



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ارجع أنا وياك

فجأة تذكرت أنها لم تفرح هكذا منذ مات أبوها. ارتجفت لوقع كلمة الموت على قلبها، فتركت الماء يتدفق حتى يصل إلى منبت شعر رأسها لتغسل أثر الكلمة البغيضة.

لم تكن ليلى تحلم باحتفال كهذا: قبلات في شارع مجهول مهجور من شفتي الحبيب، ثم حمَّام دافئ، ثم فيلًا طويلة عريضة لها بمفردها، وذلك لأن أمها، أو «سعاد حبيبة بابا» كما تحب أن تلقبها، كانت قد تركت لها رسالة تخبرها فيها بأنها ستبيت الليلة لدى طارق شقيق ليلى، وتقترح الأم أن تلحق بها ليلى، التي ما إن غادرت حمَّامها حتى هاتفت أمها وشقيقها معتذرة بأنها متعبة وستأوي للفراش فورًا، وهو ما فعلته ليلى فعلًا. لقد نامت نومًا عميقًا لم تذقه منذ ليلة رحيل الحبيب، وعندما استيقظت كانت الساعة تشير إلى الواحدة من بعد منتصف الليل.

اعتادتْ ليلى ـ منذ رحيل أبيها ـ أن تتفقد جسدها فور استيقاظها، ودائمًا ما كانت تشعر بأنها تعاني من بتر ما، نقصان ما. في سكون الواحدة بعد منتصف الليل، تفقدت ليلى أعضاءها فلم تجد النقص أو البتر، بل وجدت الاكتمال والتألق، حتى همت بأن تغني في سريرها. ولكنها نفضت عنها الغطاء وقامت إلى الحمَّام، فتوضأت كأحسن ما يكون الوضوء، ثم صلت المغرب الذي فاتها وهي في السيارة مع مالك، والعشاء التي فاتتها بينما شفتاها تلتهمان شفتي مالك وعسلها السري يقطر منها.

بعد الصلاة تناولت المصحف وجلست تقرأ سورة «طه»، وهي أحب سور القرآن إلى قلبها. بعد أن ختمت تلاوتها، دعت الله أن يغفر ذنبها وأن يهب ثواب التلاوة إلى أبيها وإلى مالك.

وضعت المصحف بجوار وسادتها، وخلعت إسدالها، وأطلقت لشعرها العنان فتماوج فوق كتفيها. هبطت إلى الطابق الأول حيث المطبخ وهي تحمل اللاب توب وتعاني من فرط اكتمالها وخفة روحها وجمال جسدها المرتاح في قميص نومها.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صنعت لنفسها كوبًا من القهوة وضعته على رخامة المطبخ بجوار اللاب توب، ثم جاءت بمقعد مريح من الصالة وبدأت تدخن وتكتب لمالك:

مالك الحبيب،

سبق لي أن قلتُ لك إنك كاتب بنعمة الموهبة، أما أنا فكاتبة بضغط الألم، فبحق الموهبة والألم معًا خلِّد يا مالك قبلتنا بكتابةٍ من كتاباتك. أشتهي أن أرى روح قبلتنا تسري في عروق كتابتك، أنا الليلة مكتملة دون بتر أو نقصان ولكنني طفلة يا حبيبي، ومثل كل الأطفال أشعر بجلال المعنى ولكنني عاجزة عن التعبير عنه. عدني يا مالك بأن تعبر عن جلال معنى قبلتنا.

مالك الحبيب،

قبل قليل تلوتُ سورة «طه»، لكم أحب تلك السورة يا حبيبي، إيقاعها يفتنني وجرس كلماتها يذيبني: «طه (1) مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ». دعوتُ الله أن يهبك وأبي ثواب التلاوة، آهٍ يا مالك، لقد كذبتُ عليك عندما أخبرتك بأنني ابتعت لك إطار نظارتك، إنه إطار نظارة أبي، فرغته من عدستيه وأهديته لك. أحب أن أرى نظارة أبي فوق وجه حبيبي، ساعة أبي لا أنام إلا وهي تلتف حول معصمي، عباءته في خزانة ملابسي، وأتدثر بها كلما عض الشوق قلبي. آهٍ يا حبيبي من الشوق وأنيابه، ليت لي احترافك، حتى أكتب عن عض الشوق لقلبٍ يتيم. حافظة نقوده أصبحت حافظة نقودي، عصاه بجوار سريري، أقبِّل أحيانًا موضع يده عليها، بل أحيانًا أجن فأضع العصا نفسها بين نهدي علَّ ملمسها يريح قلبي.

مالك الحبيب،

عندما أكد جدي أنه ليس من الشرف أن يبيع رجل وجه حبيبته، بكى قلب أبي خشوعًا لله الذي يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان أبي قد أدرك أن الملك قد أصبح على بعد كلمة من سعاد، التي لم تكن قد رأت عمر سوى مرة، ولكنها شهقت عندما قال لها أبوها إن عمر قد تقدم لخطبتها.

سألتُ أمي ألف مرة فيمَ كان شهيقها، فلم تجبني إلا بعد رحيل حبيبها بعشرة أيام، قالت:

. كانت شهقة رجوع الحق لصاحبه.

سألتها:

. هل أحببته؟

قالت:

. كأنه كان رؤيا قذفها الله في قلبي فصدقتها.

سألتها الزيادة فاعتصمت بصمتها الأبدي. الآن يا حبيبي أعي تمامًا معنى قوله تعالى: «وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ ». معناه في قلبي في إطار كلام أمي . حبيبة أبي . أن الله متكفل ببيان الحق وإظهار الطريق المستقيم لمن أراد سلوكه، وطريق الباطل لمن أراد تجنبه والابتعاد عنه.

وما كان طريق سعاد المستقيم إلا طريقها إلى قلب عمر.

غضب أشقاء جدي الحاج مسعود غضبة عمرهم عندما وصلهم أن عمر قد تقدم لخطبة سعاد وأن شقيقهم قد وافق. شنوا حربًا شعواء على جدي ولكنه كان راسخًا كأنه جبل. خوفوا أبي حتى هددوه صراحة بالقتل. نقل أبي تهديدهم لجدي الذي جمعهم ذات ليلة وقال لهم إنه قد أعطاهم على مدار عمره أكثر مما يستحقون، ولكنه رجل لا يكره في الدنيا شيئًا قدر كرهه لغطرستهم وجشعهم، وسيرد على تهديدهم لخطيب وحيدته ردًّا مزلزلًا.

الحبيب مالك،

أنا ابنة هؤلاء الراسخين الذين يصدقون نداءات القلب ويسعون

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خلفها، لقد رد جدي فكتب كل ممتلكاته باسم أبي ووثق العقد في الشهر العقاري.

حتى أمي، التي تدور المعارك باسمها، لم يكتب لها شيئًا من ممتلكاته، وعندما سألته رد عليها مبتسمًا وقال:

. أنت الرابحة، أنا أعطيته مالي وأنت حصلت على قلبه.

بعد مرور ثلاثة أشهر من اكتشاف جدي لحب عمر لسعاد، زفها إليه في فيلته بالمنيل التي نعيش بها أنا وأمي، وقد تعهدنا بعد رحيل الحبيب بخمسة أيام على عدم مغادرتها إلا إلى قبرينا.

حبيبة أبي لم تربح قلبه فحسب، لقد أعاد لها نصيبها الشرعي من ميراثها فور رحيل جدي، فازت بكل قلبه وبنصف المال، ثم أرضى أشقاء جدي بربع الممتلكات، واستثمر هو الربع الذي سيجعل له إمبراطورية تحمل اسم «المهندس عمر».

الحبيب مالك،

يجب أن أتركك الآن. الفجر يقترب، سأتجهز لصلاته. المطبخ دافئ نعم، ولكن عندي عباءة أبي سأتدثر بها وأحلم بك.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# 23

نام أشرف ليلة الخميس على الجمعة نومًا عميقًا، كانت ألعاب بثينة قد امتصت قواه. عندما استيقظ في تمام التاسعة من صباح الجمعة، كان متربعًا على عرش إحدى نوبات رضائه عن الكون كله.

غادر حمَّامه وهمست له بثينة كأنها تعيد تذكيره بما فعلته أمس:

. سامح الله مَن شغلتك عن صلاة الفجر في ميعادها.

شعر أشرف بالذنب فاستغفر الله وصلى ركعتي السنة ثم ركعتي الفرض، وعرضت عليه بثينة أن يؤمها في صلاة ركعتي الضحى، ففعل.

وهو يسلم التسليمة الأولى عن يمينه لمح نهدي بثينة وهما يشبهان قبتين راسختين متواريتين تحت إسدال صلاتها الحريري. كاد تخيله لحلمتيها الورديتين المنتصبتين أن يهيجه، ولكنه رجل حديدي، يعرف ما له وما عليه، فبعد قليل سيغادر لضروريات عمله الذي يحبه، ثم إن الليل قادم ومسرات بثينة لا تنفد.

وهو يقود سيارته على طريق المحور، كاد قلبه يفلت منه ويغلي غضبًا من هؤلاء التعساء الذين لا يرون كل هذا الجمال: حقول خضراء على جانبي الطريق، سيارات حديثة فخمة تعبر فوقه، أبراج سكنية شاهقة تطل عليه، ناس يسعون وراء لقمة عيشهم، أمن وأمان وهدوء. ما الذي وفر لهذا الشعب كل هذا الجمال سوى كفاح ووطنية سيادة الرئيس؟ إنه السيد الرئيس الذي يحسدونه على الاستقرار الذي ينعم به البلد، فيعارضونه في الصغيرة والكبيرة وينشرون حوله الشائعات والأكاذيب.

لو كان لأشرف من الأمر شيء لصنع بكل أعضاء «كفاية» وبكل المنحرفين الشواذ من الذين يسمون أنفسهم «معارضة» ما صنعه بخلف التافه.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عندما هبط أشرف بسيارته إلى قلب ميدان رمسيس، كان الميدان يتمتع بهدوء يوم الإجازة. قاد سيارته إلى طرف الميدان حيث يوجد كشك لبيع السجائر والمياه الغازية. ترك السيارة بجوار الكشك الذي يمتلكه الجهاز ويديره أحد موظفيه، وتقدم ناحية مقهى سطوحي الذي يحتل واجهة الميدان من الناحية الجنوبية. لاحظ أن ياء «سطوحي» محذوفة بعد أن كسر الزمن حروف اللافتة. ملاحظة كهذه تغيب عن أذهان فريق عمله وهذا يزعجه جدًّا، لأن رجل الأمن الحق يجب أن يحيط بكل شيء ويعرف كل شيء حتى لو كان بسيطًا، فمن الوارد أن تكشف معلومة لا تساوي قرشًا في سوق المعلومات عن تنظيم إرهابي.

زفر أشرف غضبه من فريقه وأسرع الخطى ناحية المقهى، جلس على مقعد ليس مريحًا كما أنه ليس نظيفًا، وطلب من عامل المقهى كوبًا من القهوة ونبه عليه:

ـ أريد قهوتي في كوب وليس في فنجان، على أن يكون البن فاتحًا محوجًا.

عندما تذوق بطرف لسانه كوب القهوة رضي عن نفسه، لأن مظهره يدعو إلى أن يهابه وينفذ أوامره حتى الذين لا يعرفون حقيقة عمله ومركزه في البلد.

ولأن أشرف لم يجلس في المقاهي منذ زمن بعيد، فقد طاب له أن يعمل عينيه الأسطوريتين في رواد المقهى، فوجدهم جماعة من البؤساء الكسالى، معظمهم من أرباب المعاشات الذين يستعدون لأداء فرض الجمعة. كيف سيقبل الله صلاة هؤلاء المتبلدين؟

الشباب من رواد المقهى ليسوا أحسن من المسنين، إنهم يلعبون الطاولة في صمت، دون ضجيج الشباب أو فرحهم. إنهم صامتون، يلعبون دون شهية، نظراتهم شاردة أو تائهة، كلامهم النادر سمج ثقيل دون روح أو حياة. شعب ملعون، هناك من يقتل نفسه لكي يجلب الفرح للبلد، ولكن هذا الشعب مفطور على البلادة والحزن والنكد.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جاء عامل المقهى ليرفع من أمام أشرف كوب القهوة الفارغ، فسأله أشرف وهو يقدم له بقشيشًا سخيًّا:

. سمعت أن رجلًا يجلس بالقرب من المقهى يبيع كراسات جيدة بثمن معقول، أين هو؟

رد العامل:

. حضرتك تقصد عمي خلف الساكت؟

قال أشرف:

. أنا لا أعرف إن كان ساكتًا أم متكلمًا.

قال العامل:

. ليس غيره يجلس هنا، عمي خلف لا يتكلم أبدًا، وفي المرات القليلة التي سمعت فيها صوته، سمعته يردد بلا انقطاع: «حسبي الله ونعم الوكيل». واضح يا باشا أنه يعاني من مشكلة، ربنا يستر على سعادتك وعلينا جميعًا، يوم الجمعة يفرش من بعد الصلاة، عمي خلف سعيد الحظ لأن الله سيرزقه اليوم بزبون كريم مثل سعادتك.

من مئذنة مسجد الفتح ومن مآذن المساجد المجاورة جاءت أصوات المقرئين الذين يقدمون تلاوة ما قبل الجمعة. القرآن يصنع شيئًا ما بنفس أشرف، إنه لا يكاد يفهم من سوره حرفًا واحدًا، ولا يحفظ منه إلا ما تصح به صلاته، ولكنه يؤمن أنه كتاب خطير جدًّا وبه سر ما. هو لا يعرف على وجه اليقين مكمن الخطورة ولا منبع السر، ولكن يكفي أنه كتاب عاش منذ أكثر من ألف سنة ويؤمن به الملايين على تباين مستوياتهم العلمية والاجتماعية.

قرآن الجمعة جعل حركة الميدان تزداد هدوءًا. قام أشرف متجهًا إلى مسجد الفتح، عندما دخل المسجد صلى ركعتي تحية المسجد كما اعتاد أن يفعل، ثم قرأ الفاتحة لأبيه ولسيادة الرئيس أنور السادات وجه السعد وللرئيس مبارك ولكل حماة الوطن.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعندما انتهى من الفاتحة قام ورجع إلى آخر المسجد حتى يتمكن من رؤية كل المصلين بحرية تامة من دون أن يتلفت يمينًا ويسارًا. اطمأن على حسن سير خطبة الخطيب لأنه سمعه يحث الناس على شكر نعمة الأمن التي تظلل سماء الوطن.

بعد تلك الجملة التي عرف منها أشرف ماء الخطيب، راح يقطع وقت الخطبة في حصر الأعمدة وإحصاء النوافذ ومصابيح الإضاءة ومراوح السقف وفتحات التكييف. عزم أشرف على مفاتحة أبيه في بناء مسجد يكون أفخم وأضخم من مسجد الفتح. أكد لنفسه على وجوب هذا الأمر، ولكن بعد الاطمئنان على البرلمان القادم. حسب أشرف التكاليف فوجدها هينة قياسًا بثروة أبيه، خاصة أن أشرف سيحصل على الأرض مجانًا وكذا مواد البناء. هز أشرف رأسه وهو يتمتم معجبًا بفكرته الطارئة: «مسجد آل العمري بمدينة نصر أو بالشيخ زايد أو بـ«أكتوبر»، قربى لله وخلود في الزمان».

انتبه أشرف عندما رأى الصفوف تنتظم فهب واقفًا في وسط الصف الأخير. شعب المقهى هم أنفسهم شعب المسجد، كسالى، لا يظهر عليهم الخشوع بل لا يظهر عليهم أنهم صدقوا كلمة من الخطبة الطويلة العريضة. ماذا سيفعل سيادة الرئيس والمخلصون الذين معه مع شعب ناكر للجميل مثل هذا الشعب؟

خرج الشعب من المسجد بعد تسليمة الإمام الثانية كأنه يغادر ميدان معركة خسرها، الوجوه مطفأة والعيون زائغة والظهور محنية.

تجول أشرف في الشوارع والأزقة المتفرعة من ميدان رمسيس، إنه يريد استهلاك الوقت لكي لا يكون أول زائر لخلف التافه. شعب الشوارع الجانبية والأزقة هم أنفسهم شعب المقاهي والمسجد، أشرف لا يعرف ماذا ينقص هؤلاء لكي يبتهجوا، تذكر حكمة أبيه عن الطماع الأناني الذي لا يملأ عينه سوى التراب.

أشرف، الذي لا يشغله من عالم النساء سوى بثينة، وجد نفسه رغمًا عنه يتأمل نساء الشوارع والأزقة: ما أبشع امتلاءهن، إنهن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نوع من الجاموس الآدمي، يرتدين جميعًا عباءات سوداء كالحة تضيق بسمنتهن المفرطة، مؤخراتهن مترهلة، ونهودهن مثل ضروع البقر، وبطونهن بارزة كأنهن جميعًا حوامل، ما أبعدهن عن رشاقة بثينة ونعومتها وعطرها!

في شارع تراكمت في نهره قذارة سكانه اشتاق أشرف لمرأى وجهه، إنه يريد الآن وليس بعد دقيقة مرآة كبيرة يتأمل فيها جمال وجهه ووسامة جسده كله. وقعت عيناه على محل حلاقة حقير ومعتم فدخله بدعوى تهذيب شعيرات نافرة من شاربه. ما إن دخل أشرف بقامته المديدة إلى المحل الحقير حتى ترك الحلاق المناشف التي كان يعلقها على حامل بخارج المحل وقال بضراعة لأشرف:

. ثانية واحدة يا باشا.

تردد صدى كلمة باشا في أذن أشرف فنظر إلى الحلاق نظرة رضا، سارع الحلاق بجمع الشعر المتناثر على أرضية المحل، ونظف المقعد جيدًا وقال لأشرف معتذرًا:

. ليس معي صبي والله يا باشا، وحضرتك تعرف ظروف الناس.

جلس أشرف على المقعد منتظرًا صنيع الحلاق الذي تناول أدواته بهمة وصب عليها الكحول ليطهرها، فأعجب أشرف بفعله.

تأمل أشرف وجهه فوجده . بحمد الله . كما عهده، نظيفًا لامعًا أبيض مشربًا بحمرة فاتنة.

أربع شعرات بالعدد هي التي قصها الحلاق من شارب أشرف، الذي قدم للرجل خمسين جنيهًا فكاد الرجل يسقط أرضًا من فرط الكرم، وراح يدعو للباشا بكل ما خطر على باله من دعاء. تأمل أشرف جسده كله فوجده مهيبًا، وفرح بمهابته التي يفرضها على كل من يتعامل معه، كما حدث مع عامل المقهى ومع الحلاق.

غادر المحل وليس في نفسه شيء سوى أمنية عجيبة وهي أن يبادر إليه المشيب. لكم تمنى أشرف لو شابت سوالفه أو مقدمة



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شعر رأسه، المشيب مع المنصب والوسامة سيزيده مهابة. صارح نفسه وهو في طريقه لخلف التافه بشيئين: الأول أنه يعيب على سيادة الرئيس استعماله لصبغة الشعر، طبعًا هذا عيب رخيص جدًّا، وقد يكون سيادته مضطرًا لاستخدام الصبغة لظروف لا يعلمها أشرف، ولكنه كان يتمنى لو كان سيادته فخورًا بشيبه، عنوان الحكمة والرجولة؛ الأمر الثاني أن شيبة اللواء زبادي تنهي مبكرًا الجدال الذي يثور في الاجتماعات المهمة، وذلك عندما يمر سيادة اللواء بيده على لحيته وهو يقول: «لقد شيبتني خدمة هذا البلد فاسمعوني وأطيعوا».

في طريقه إلى خلف، هبت على قلب أشرف لعبة من ألعاب بثينة فتحرك سيفه لذكراها. أمتعه أن يكون سيفه ملبيًا لخواطر قلبه، أوغل في التذكر ليحصل على انتصاب لا يعيقه عن الاكتمال إلا ضيق حجر البنطلون، لذة يقشعر لها بدن أشرف تجتاحه، حتى يستعجل الانتهاء من مهمة مناظرته لخلف حتى يعود مترعًا بالحنين إلى جسد بثينة.

هو الآن على بعد خطوات من خلف. ظهر خلف يقابل وجهه، ليته كان مدخنًا إذن لاستمتع بسيجارة على شرف ظهر خلف وقد تقوس وبان عليه الكبر. لقد هرم الرجل العفي حتى كأنه قد شارف على التسعين أو المائة. تذكر سمانتي رجل خلف القويتين وعوده المتين المائل للامتلاء، فأعجبته فكرة تجفيف القوة أو امتصاصها بحيث يخرج الواقع في قبضته أشبه بعود حطب جاف. لا بد أن يحصل على طريقة التجفيف هذه دون ترك علامات إيذاء بدني: «ما أعظم أن تعتصر عدوك دون أن تمد يدك عليه!»، هكذا هتف أشرف لنفسه، مقسمًا بأنه قريبًا جدًّا سيحصل على طريقة التجفيف.

طاف أشرف بخفة حول فرشة خلف. إنها بائسة وتعيسة مثل صاحبها، ثلاث كراتين بها ما لا يزيد على مائة كراسة وكشكول، ثم مجموعة من الأدوات المدرسية لا يزيد ثمنها مجتمعة على مائة جنيه.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان أشرف حريصًا على ألا يشعر خلف بوجوده، إنه يريد رؤية نتائج صنع يديه في هدوء وخفاء.

أخيرًا أصبح أمام وجه خلف الذي ضربته الشيخوخة في مقتل، لكن الشيخوخة استثنت شعر رأسه الذي لا يزال كثيفًا بحيث يخفي علامات المشرط الساحر. عينا خلف ساكنتان مستسلمتان كأنهما عينا سمكة ميتة. كل ما كان يتمتع به خلف من عنفوان وقوة ذهب أدراج الرياح. أين نظراته المتحدية وسلاطة لسانه؟

اقترب أشرف من خلف حتى وضع برفق يده فوق كتفه، رفع خلف عينيه الميتتين ليرى وجه أشرف.

وجه خلف ساكن لا يحمل تعبيرًا، أي تعبير، عيناه ميتتان، لكن شيئًا خارقًا وقع، لا أشرف عرف كنهه ولا خلف، شيء كأنه نفخة الرب في جسد آدم. لقد تحركت عينا خلف، وعادت الحياة ببطء إلى وجهه. أشرف يرى شيئًا مقلقًا يحدث أمام ناظريه لكنه مقيد لا يستطيع التراجع وأخرس لا يستطيع الصراخ: خلف يصحو شيئًا فشيئًا أمام عينيه.

ما يجتاح أشرف ليس خوفًا، ويقينًا ليس رعبًا، إنه أمر غامض يشل حركته حتى إنه لا يستطيع رفع يده عن كتف خلف الذي راح يهز رأسه هزات عنيفة متتالية ثم سكن جسده كله فجأة وتمتم وأنفاسه تتقطع:

. حسبي الله ونعم الوكيل.

بجهد لم يبذل مثله قط، رفع أشرف يده عن كتف خلف وأقام ظهره، ثم سار غير ملتفت خلفه وليس برأسه شيء، أي شيء، سوى الفراغ. إنه يشعر بالفراغ يملأه من رأسه حتى قدميه.

معاناته مع ركبتيه تمثل له المشكلة الأكثر تعقيدًا، إنه يشعر كأن ركبتيه قد أصبحتا مثل أنبوبتين من زجاج هش مفتوحتين من جانبيهما، يصفر فيهما الريح.

أسند أشرف جسده المتخاذل إلى سيارة متوقفة بجوار الرصيف،



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ألقى نظرة على الميدان المتسع فتسارعت دقات قلبه. الميدان أصبح بقعة خرافية بيضاء، ما كل هذا البياض؟

أين الناس والسيارات والعمارات والمقاهي؟

أيكون قد فقد بصره؟ سارع بإغلاق عينيه للحظات ثم فتحهما فوجد البقعة البيضاء الملعونة تواصل ابتلاعها للميدان كله.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

منذ قبلة مالك وليلى تصحو منتعشة، لم تعد تتفقد أعضاءها. ذهبت إلى عملها الذي تحتاجه ولكن لا تحتاج إلى راتبه، ولذا فإنها تؤديه بإخلاص الهواة. ثم غادرت العمل إلى اجتماع لحركة «كفاية».

كانت قيادة الحركة قد رسمت خريطة متقنة للاجتماع بحيث تضلل عيون الأمن عن المجتمعين.

الخطة كانت تلزم قادة «كفاية» الميدانيين بالاشتراك في وقفة احتجاجية على سلم نقابة الصحفيين دعا إليها تكتل عمال مصنع مبردات، على أن يتسللوا مغادرين الوقفة واحدًا بعد الآخر، ويصعدوا إلى «روف» النقابة في حماية أصدقائهم من الصحفيين ويعقدوا اجتماعهم الطارئ وهم يتناولون المشروبات.

انتظم عقد الاجتماع بقيادة ليلى وبحضور تسعة من القادة الميدانيين، بينهم أربعة من الصحفيين الشبان.

بدأت ليلى حديثها فقالت:

ـ غدًا الأحد ستبدأ المرحلة الأولى من انتخابات البرلمان، وقد سعينا إلى أن تعم المقاطعة أرجاء البلاد، وسجلنا على هذا الصعيد بعض النجاح. هناك أسماء كنا نحسب أنها ستقاطع ولكنها ماضية في خوض الانتخابات، إضافة إلى تمسك جماعة الإخوان بحقها في المنافسة على مقاعد البرلمان. هذا لا يعني أننا سنترك ملف الانتخابات يأسًا من هؤلاء أو أولئك، فهناك جولة ثانية وهناك إعادة للجولتين. من اللحظة سنبذل قصارى جهدنا لكي ننزع شرعية المشاركة عن انتخابات نعلم جميعًا علم اليقين أنها سابقة التجهيز، وأن هدفها الرئيسي، بل الوحيد، هو إفساح المجال للتوريث. يجب أن نكون أوفياء أشد الوفاء لشعارنا المركزي: «لا للتمديد، ولا للتوريث». هل لدى أحد تعليق قبل الانتقال إلى النقطة التالية؟



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طلب محمد حسن، وهو شاب من قيادات الجمعية الحقوقية، الكلمة، فأذنت له ليلى. فقال:

. مشكلتنا مع جماعة الإخوان ستتفاقم في قادم الأيام، فهم معنا في ساعات الكلام النظري، ولكن في لحظات المواجهة يتمسكون بحلولهم هم وبرؤيتهم هم. فإن كنا قد فشلنا في إقناعهم بأهمية المقاطعة منذ الجولة الأولى، فعلينا أن ننجح في جذبهم لصفنا في الجولة الثانية بل وفي جولتي الإعادة. عمومًا الانتخابات ستُزور كالعادة، وهذه الانتخابات تحديدًا ستشهد تزويرًا غير مسبوق، وساعتها سيفوز الإخوان وباقي المشاركين بخفي حنين ولن ينفعهم الندم. وعلى ما سبق، أقترح محاورة شباب الجماعة وقيادات الصفين الثاني والثالث، لعلنا ننجح معهم، ولكن بشرط ألا أكون في وفد المحاورين.

ضحك الجميع من شرط محمد، وترددت ليلى قليلًا قبل أن تقول:

ـ لديَّ صديق ـ لا تطالبوني بالكشف عن اسمه ـ سيسهل لي الجلوس مع قيادة كبرى من قيادات الصف الثاني، وسأكون لسان حال حركة «كفاية» وأنقل له مطالبنا بكل وضوح وصراحة.

استحسن الجميع كلام ليلى، ثم تحدثت منار جمال، وهي من الأعضاء الناشطين بحزب الكرامة، فقالت:

. حركتنا محاصرة إعلاميًّا وأمنيًّا، ولا بد من كسر طوق الحصار بأفكار بسيطة ولكنها ستجعل جذورنا ترسخ في أرض الشارع. أين نحن مثلًا من الأطفال أو الفتيان؟ لماذا لا يقوم رجال الأعمال من الحركة بصنع قمصان وتيشرتات تحمل شعار الحركة، ونوزعها مجانًا على الأطفال والفتيان؟

السؤال نفسه يتعلق بتواصل كفاية مع ربات المنازل، أين نحن منهن؟

ليس لدينا زيت وسكر مثل الحزب الوطني، ولكن لا بد من البحث عن وجود لنا داخل البيوت عبر النفاذ إلى السيدات.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رشفت منار رشفة من كوب الشاي ثم واصلت كلامها:

ـ إنني أخشى أن تأكل السياسة بمعناها العام قوة الحركة وعنفوانها. نحن بالأساس حركة مكونة من فرقاء تجمع شملهم لحظة عابرة في تاريخ الوطن. مبارك وابنه عابران، وهذا ما أومن به شخصيًّا، ولذا يجب أن نخطط لما بعد ذهابهما، وتصبح «كفاية» حركة ضمير ووعي مجتمعي. وهذا لن يكون سوى بالذهاب إلى قلب الشارع ومخاطبته بأيسر الطرق. أفكر مثلًا في أن نقيم سباقًا للدراجات أو الجري أو حتى المشي، ينطلق تحت شعار «كفاية» ويشارك فيه الذين لا شأن لهم بالعمل السياسي المباشر. سنستغل علاقات الأصدقاء الصحفيين بالفضائيات ووكالات الأنباء، وبكل تأكيد سيلقي هذا السباق حجرًا في البحيرة الراكدة.

وصلت إلى ليلى رسالة على هاتفها فقرأتها ثم قالت:

ـ جاءني أمر بفض الاجتماع الآن، وقبل أن نتفرق، هل لدى أحدنا اعتراض على ما قلناه؟

لم يعترض أحد، وهبطت ليلى من النقابة إلى الشارع وليس في رأسها سوى اسم مالك.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ما الذي حدث لأشرف باشا العمري؟

لـو ظـل أشـرف مـا بقـي لـه من عمر واقفًا مسندًا ظهره لسيارة متوقفة، ما ذهبت الكرة البيضاء الملعونة التي احتلت الميدان. أشرف رجل عملي. إن كان يؤمن بالغيبيات التي يؤمن بها الناس، مثل الجنة والنار، فهو لا يؤمن بالخرافات، ولذا فقد أرجع الأمر إلى اختلال ما، حدث في السكر أو الضغط.

لا يعـرف كـيف تجـرأ على عبور الميدان لكي يذهب إلى أقرب صـيدلية. إنـه يكـاد لا يـرى، يمشـي كأنـه يسير فـي قلب شبورة بيضاء عاتية.

في الصيدلية اطمأن على تمتعه بسكر وضغط مثاليين، وعندما تحدث مع الصيدلي عما يشعر به، رد عليه الرجل مهونًا:

. علامات إرهاق سرعان ما ستزول.

طالبه الصيدلي بأن يسترخي ويغمض عينيه وهو يحقنه بمنشط عام، فامتثل أشرف على غير عادته، وبعد ثلاث دقائق فتح عينيه فرأى الميدان بكل تفاصيله، لا ينقصه شيء سوى الكرة البيضاء الملعونـة، فـوقف مبتسـمًا وصافح الصيدلي شاكرًا وانطلق إلى سيارته وهو يغمغم: «لكل جواد كبوة».

عاد أشرف إلى بيته، وبعد الحمَّام المنعش، تناول طعامه مع بثينة وعنَّ له أن يسألها عن وائل وزينب، فقالت غامزة:

. هل نسيت أن ماما زينب تأخذ الأولاد يومي الخميس والجمعة لتخلي الساحة لابنها الفارس؟

هذه هي المرة الأولى التي لا يستملح فيها غمز ولمز بثينة. كان تعليقها باردًا، بل كان يفتح الباب لمناقشة طبيعة أم تفرط في ولديها الطفلين بسهولة لكي تنفرد برجلها.

ولأن النقاشات والمجادلات ليست من طبعه، فقد واصل أشرف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأكل ولكن بدون شهيته المعتادة، وهو الأمر الذي لاحظته بثينة فقالت بنبرة قلق:

. هل الأكل لا يعجب حبيبي؟

رد أشرف بآلية جديدة عليه:

. ها أنا أتناوله.

بعد الأكل مسح أشرف يديه بمنديل ولم يذهب إلى الحمَّام لغسلهما وغسل أسنانه كعادته، ثم قال لبثينة:

. سأجلس مع نفسي في الحديقة، لا أريد أن يزعجني أحد، دعيهم يأتونني بالقهوة.

اختار أشرف لنفسه مكانًا لم يعتد الجلوس فيه، بل جلب بيديه منضدة ومقعدًا واحدًا، وعندما هم خميس البستاني بأن يساعده سدد إليه نظرة غاضبة جعلت الرجل يسارع بمغادرة الحديقة كلها.

بدا كل شيء في نظره باهتًا وماسخًا، بلا لون ولا طعم ولا رائحة، بداية من بثينة ونهاية بسياراته المتراصة في ظل أشجار المانجو. ولأنه يحترف ويحترم الحديث مع ذاته فقد سألها: «ما الذي حدث؟ أين ذهب الرضا الذي كنت أنعم به في ساعات الصباح؟».

أشرف رجل أمن وأبوه رجل مقاولات، وكلاهما يقوم عمله على مراعاة أدق التفاصيل، وعندما يضع الأب تفصيلة بجوار أختها فإنه يشيد العمارة، ولأنه سر أبيه فقد كان يضع التفصيلة بجوار الأخرى فيحكم قبضته على أكثر القضايا تعقيدًا.

التفصيلة الأولى تؤكد أنه مريض أو في طريقه إلى المرض. يداه ثابتتان، نعم، وقدماه راسختان، نعم، ولكنه يشعر بأن جسده من الداخل يرتعش. القصة ليست في الكرة البيضاء اللعينة، لقد زالت وعاد إليه بصره الحديدي، القصة هي: لماذا حدث ما حدث؟ لماذا يشعر بأنه يرتعش؟



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

منذ أن تخرج في كلية الشرطة وهو لم يطرأ عليه طارئ، اللهم إلا نجاحه المطَّرد المتواصل. ومنذ أمس لم يطرأ عليه طارئ . بل طرأ.

ارتاح قليلًا وهو يشعر بأنه قد بدأ يمسك بأول الخيط. أراد مكافأة نفسه بأن يستعجل قهوته، فوجد الفنجان متربعًا وسط المنضدة، وبجواره كوب الماء.

هل استغرقته الأفكار حتى إنه لم يشعر بمجيء القهوة إليه؟

هذا أمر جديد عليه، فرجل الأمن، كما علمه أستاذه العميد محسن الخراط، يجب أن يكون مثل الثعلب، إن غفت له عين تيقظت الثانية.

سيحاسب نفسه على هذا الذهول في فرصة قادمة، أما الآن فلن يدع أول الخيط يفلت من بين يديه.

وأول الخيط هو بثينة. إن ألعابها ليلة أمس هي الطارئ الذي طرأ على يومه، ثم أهي ألعاب حقًّا؟

هل «ألعاب» هي التسمية المناسبة الصحيحة؟ أم خلف الظاهر باطن هو لا يعرف عنه شيئًا مثل أي مغفل؟

لقد امتصته بثينة ليلة أمس حتى نام كأنه قتيل أو حجر قديم ملقى بإهمال على قارعة الطريق. كيف جازت عليه حيلتها بأن يترك لها القيادة؟

متى تعلمت بثينة المص واللعق؟ ما كل تلك الخبرات التي فاض بها جسدها ليلة أمس؟

هل تشاهد بثينة أفلام الفاحشة وتتعلم منها؟

أم الأمر أكثر تعقيدًا وأفحش من مجرد المشاهدة؟

وقف أشرف بطوله المديد ووضع يديه في جيبي بنطلونه وراح يتمشى في الحديقة، لا ليهرب من مواجهة الأسئلة، ولكن لكي



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يبحث عن إجابات حقيقية وليست إجابات يسد بها فجوة تتسع بداخله حتى تكاد تبتلعه.

صاح صيحة واحدة موجهًا صيحته للفضاء:

. قهوة.

واصل المشي وهو يراجع تاريخ جسد بثينة.

لقد جاءته وهي بكر، أو هكذا يعتقد، ولكن من يدريه وعمليات ترقيع غشاء البكارة أصبحت ميسورة كأنها عملية اللوز؟ هو عن نفسه يقطع بأنها كانت المرأة الأولى في حياته، ولكنه يحتاج إلى دليل مادي دامغ يؤكد بأنه كان الرجل الأول في حياتها.

أشرف لا يريد محاكمة غيابية أو غبية لبثينة، إنه يبحث عن الحقيقة، فإن كان يعوزه دليل أنه الأول، فثمة أدلة كثيرة تشير إلى أنه الثاني أو العاشر.

في محاولة لقمع اضطراب شمله، ذهب إلى حيث كان يجلس، وجد قهوة وماءً جديدين، هذه المرة رأى الخادمة وهي تضع الصينية فوق المنضدة.

شرب كوب الماء كله على الرغم من برودته، وأعقبه برشفة هائلة من القهوة، ثم عاد إلى نفسه.

هو لم يُعلِّم بثينة شيئًا. كانت كل علاقته بالسرير أنه كان يَعلم، شأن الناس جميعًا، أن الرجل يعلو المرأة ويولج قضيبه بداخلها، ويظل هكذا إلى أن يصل إلى ذروته وبعدها ينتهي الأمر. بثينة هي التي جعلت من السرير مهرجانًا متواصلًا لا تنفد ملذاته، فكيف عرفت ما عرفت؟ متى تعلمت؟ بل مَن علمها؟

في كل لقاء كانت كأنها تخدره، فكان يقبل ما تفعله كأنه أمر طبيعي، ولكن ما فعلته به ليلة أمس لا يمكن لعاقل أن يضعه في خانة الأمور الطبيعية. الكلام من عينة أن لديها خيالًا خاصًا بالفراش، هذا كلام مَن يريد خداع نفسه والتواطؤ ضد ذاته... لو كان الأمر طبيعيًّا، فلماذا خارت قواه حتى كاد يفقد بصره ويقع



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في عرض الطريق؟

ثم. وهذا سؤال غاية في الأهمية. أين ثروة بثينة التي جنتها منذ تزوجها؟ هدايا المجوهرات تحت عينيه تزيد ولا تنقص، ولكن العطايا كانت أكبر من المجوهرات بكثير، فأين ذهبت؟

شعر كأن دوامة تسحب جسده نحو قاع البحر المظلم، فاستجاب لها جسده الذي يرتعش باطنه، شعر وهو يستسلم للدوامة براحة رجل يرفع ضمادة من فوق عينيه ويسترد بصره ويحرره.

هل تحبه بثينة حقًّا؟. هذا إذا كان هناك فعلًا ما يسمى الحب. أم تراها تحب الرجل الفحل الكريم؟

أخيرًا عاد إليه رضاه عن نفسه. لقد استقر على ثلاثة قرارات: الأول أن يسترد وائل وزينب فلا يبيتان خارج منزله حتى عند أبويه، الثاني أن يراقب جسد بثينة حتى يأتيه اليقين، الثالث أن يعرف عن يقين مصارف ثروتها.

قراراته، التي اتخذها في ساعة تعد من ساعاته التاريخية، جعلت جوفه هادئًا وأعادت الاستقرار إلى كيانه.

همَّ بأن يقف ليعود إلى بثينة بادئًا في تنفيذ قراره الثاني، فهاجمته بغتة جملة خلف: «حسبي الله ونعم الوكيل».

هل يكون لخلف وجملته يد فيما كان فيه؟

ابتسم لنفسه وقال بصوت سمعه: «هل تهزل أيها الضابط؟ ما هذا الشيء التافه سوى مجرم، كلب ابن قحبة، وجملته يقولها أنظف الناس وأوسخهم، فحتى لو كان يقصد بها الدعاء عليَّ، فمن هذا حتى يستجيب الله لدعائه؟ ليس لمجرم وضيع مثله كرامة عند الدولة ولا عند الله».

عندما أخرج خلف وجملته من المعادلة، هب واقفًا في نشاط عجيب وذهب مباشرة إلى بثينة التي وجدها تجلس منكمشة في مقعد بأقصى غرفة الاستقبال، اقترب منها فوجد وجهها محتقنًا من أثر البكاء. هبت واقفة عندما رأته ووضعت على شفتيها



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ابتسامة مرتبكة. أخذها في حضنه وهو يقول:

. هل كانت بثينتي تبكي؟

ارتجف كل جسدها وغلبتها دموعها فانخرطت في نوبة بكاء جديدة وقالت:

. نعم كنت أبكي، لقد أشعرتني بأنني قد أجرمت في حقك، لقد عدت بغير الوجه الذي ذهبت به، لقد جعلتني أحاكم نفسي فلم أجدني قد أخطأت في شيء. هذه هي المرة الأولى التي تتناول فيها قهوة ما بعد الغداء بدوني، إن كنت قد أخطأت بدون وعي مني فأنا أستحق أي عقاب تنزله بي، حتى ولو جلدتني.

أبعدها عن حضنه وحدق في عينيها الباكيتين، ثم ابتسم في وجهها وقال وهو يقلد طريقتها في التلميح:

. نعم سأجلدك ولكن على سريرنا.

انحنت بثينة وقبلت يده بفرح غامر وطوقت خصره بذراعها وهي تقول:

. وأنا طوع أمر سيدي.

بقيت ذراع بثينة حول خصره، بينما طوق هو كتفها بذراعه، وصعدا السلم إلى الطابق الثاني حيث غرفة نومهما.

أمام باب غرفة النوم احتضنها، فسلمت له شفتيها، فقبلهما بشغف، فزاد استسلامها، فدفعت ـ كما تفعل عادة ـ بساقها بين ساقيه وراحت تتماوج ببطء.

لقد حفظ أشرف عن ظهر قلب كل الحركات التي تمهد بها بثينة للقاءاتهما، وكانت حركتها تلك قادرة دائمًا على إيقاظه في أشهى ساعات النوم، لكنه في هذه اللحظة لا يجد لها أثرًا، سيفه لم يبرح غمده، يشعر به كقطعة جلد ميتة تلسع ببرودها فخذيه.

لا، ليس أشرف باشا العمري هو من يستسلم. إنهم يقولون: «إن في يوم الجمعة ساعة نحس»، هذه لن تكون ساعته أبدًا.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تخلص من ملابسه دفعة واحدة، وكان حريصًا على ألا ينظر لقطعة الجلد الميتة الباردة، ثم هجم على بثينة ووضع يديه على عنقها ثم فجأة ترك عنقها وذهب إلى الفستان وشقه طوليًّا من فتحة الصدر حتى منتهى الذيل، نظر إلى بثينة فرآها خائفة كأنها ترى الموت مجسدًا أمام عينيها.

أنعشه تعبير الخوف المرتسم على وجهها فمزق حمالة صدرها وكلوتها، وطرحها فوق السرير واعتلاها، ولكنه لم يجد شيئًا، فشطر ألم قاهر قلبه إلى نصفين، فسقط عن بثينة منكفئًا على وجهه، ولم يسمع صرختها الملتاعة:

. أشرررراااااف.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تشعر ليلى بالمذلة عندما تريد الاتصال بمالك ولكنها لا تستطيعه. هي تعرف مفردات حياته القائمة على تجسس محاسن الدائم على خصوصياته، ولكنها تبغض تلك اللحظة التي يرد فيها مالك عليها بحيادية، كأنها واحدة من تلميذاته وليست «ليلى حبيبة عمره» كما يقول لها دائمًا.

هي تريد مالك لسبب أعظم من مصلحتها الشخصية، إنها تريده من أجل الشعب.

بضغط من محبتها لهذا الكائن الخرافي الذي اسمه الشعب، أوقفت ليلى سيارتها في شارع من شوارع وسط البلد، وكتبت لمالك رسالة من كلمة واحدة: «أريدك». ضغطت مفتاح الإرسال بيد مرتعشة وبقلب مضغته المذلة.

بعد لحظة جاءها رد من مالك: «أنا لا أريد جبانة مثلك، كلميني لكي نتفق».

التقطت ليلى مالك من مقهى بميدان الجيزة كان يجلس فيه، قهقه فور صعوده إلى سيارتها ثم قال:

. هل تعرفين ما اسمك على هاتفي؟ اسمك «يحيى محمود». أنا أحب الاسمين، «يحيى» و«محمود». طبعًا هذا إجراء أمني أبله لا يصمد أمام مراقبة محاسن، ولكنه يظل إجراء معقولًا.

لم تستملح ليلى تعليق مالك وصعدت غصة المذلة إلى حلقها، ولكنها تغلبت عليها لأن هدف المقابلة أهم من مشاعرها الشخصية.

سألت ليلى:

. أريد محادثتك في أمر مهم على أن نظل داخل السيارة، فهل أعود بك إلى «أكتوبر» أم تفضل أن نسلك طريقًا آخر؟

رد مالك:



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

. أحب أن تقودي بي على طريق سريع مريح، وليكن مثلًا طريق مصر . إسكندرية الصحراوي.

أثناء قطع ليلى لشارع الهرم تمهيدًا للوصول إلى الطريق الصحراوي، كانت صامتة تشغل نفسها بالاستماع إلى محمد منير وهو ينوح:

وانتِ تقوليلي بحبك

تحبي إيه فيا؟

ودا حب إيه دا اللي من غير أي حرية؟

كان مالك يحدق في الشارع الذي كان قبل سنوات بعيدة هادئًا وعاقلًا وجميلًا. يتذكر مالك ماضي شارع الهرم، عندما كانت بيوته صغيرة لطيفة، لها حدائق صغيرة لطيفة. يكاد يفلت زمامه لكي يعبر عن حزنه بطريقته الفريدة، ولكنه يسيطر على أعصابه لكي لا يفضح نفسه أمام ليلى.

عندما وصلت ليلى إلى ميدان الرماية، قالت لمالك:

. لن نسلك طريق الإسكندرية، دعنا نجرب طريق الفيوم.

رد عليها مالك:

. أنا لا أريد سواك، ومعك الهدوء والموسيقى والصحراء، حنيني للصحراء لا أفهمه إلا بافتراض أن جدي القديم كان بدويًّا يجوب الصحراء باحثًا عن الماء والعشب. أحيانًا أتخيل أن جدي القديم ضاجع جدتي القديمة خارج الخيمة، وجرى الأمر فوق رمل الصحراء المبتل بندى الفجر، ومن لحظة الندى تلك تناسل آل الجندي يرحمهم الله.

ختم مالك جملته بقهقهة مدوية يحسبها مَن لا يعرفه دليلًا أكيدًا على صفو المزاج وراحة البال والسعادة، بينما مالك أبعد الناس عن كل تلك الصفات.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سألت ليلى:

. لماذا يا مالك أنت مشغول هكذا بالتاريخ؟

رد ببساطة:

. لا حاضر لي ولا مستقبل أنشغل بهما يا صغيرتي.

قالت ليلى:

. أنت تتحدث عن الصحراء كأنك تحلم. ألن تكف عن أحلامك؟

رد بمرارة:

. الأحلام، بل والكوابيس، آخر ما تبقى لي. ليس في الأمر مجاملة أو مغازلة عندما أقرر أنك وأحلامي وكوابيسي الدليل الوحيد على بقائي على قيد الحياة. دعيني أواصل الأحلام التي لم يتحقق منها شيء، وحتى ذلك القدر الضئيل الذي تحقق لم يقع على الوجه الذي تمنيته. ما أفقرني يا حبيبتي!

كانت ليلى قد توغلت في طريق الفيوم، فأطفأت الكاسيت ومالت نحو جانب الطريق وأوقفت السيارة ونظرت نحو مالك بإشفاق وقالت:

. هذه هي صحراؤك، وهذه أنا حبيبتك وبيننا كلام خطير.

ضحك مالك وقال:

. في الحب؟

ردت ليلى:

. في حب الشعب.

زفر مالك بضيق:

. أف.

ربتت ليلى على يده بحنانها الدافق:



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ حبيبي، لقد حدثتني عن دراستك الخاصة بانقطاع النسب والنسل، دراستك تلك هي رأيك أنت. أنا على العكس منك، يا حبيبي، أرى المصريين شعبًا حيًّا، لم يكف يومًا عن المقاومة والتحدي، وكل ما يعلوه من تراب ما هو إلا غبار رحلة الوصول.

بضيق زائد قاطعها مالك:

. الوصول إلى ماذا يا ليلى؟

بثقة ردت ليلى:

. الوصول إلى الكرامة يا حبيبي. هذا الشعب سيثور ثورة عارمة من أجل كرامته، ويومها ستكون معي وتحبني بأعلى صوتك بين الجماهير الثائرة، ثم ستأخذ يدي وتقبلها وترجوني العفو والغفران.

رد مالك مندهشًا:

. من أين جاءتك كل تلك الثقة؟ من الواضح أنني لست وحدي مَن ضيع في الأحلام أو الأوهام عمره.

ردت ليلى بلهجة مداعبة:

. أنا يا أخي مثل عمتي أسماء، أرى بعين الحب.

كأنه يريد التخلص من الموقف كله، قال مالك:

. أين كلامك الخطير؟

ترددت ليلى قليلًا ثم قالت:

. تعرف الدكتور طاهر شلتوت، أستاذ القانون الجنائي بكلية الحقوق؟

رد مالك:

. نعم أعرفه، وهو صديقي منذ أيام التلمذة.

باندفاع قالت ليلى:



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

. أريدك أن تيسر لي الجلوس معه في مكان أحدده أنا.

بغم رد مالك:

. ليلى تعرفين أنني غيور جدًّا، غيور حتى كأني بهيم لا أفهم، ثم أنا أكره الألغاز. قولي كل ما لديكِ في نفس واحد لكي لا أجن.

تصريح مالك بغيرته الجنونية مس قلب ليلى مسًّا لطيفًا جعل مزاجها يصفو، فقالت وبسمة جميلة على شفتيها:

ـ الرجل الجميل هو الرجل الغيور. اسمعني يا حبيبي، الدكتور طاهر من قيادات جماعة الإخوان.

لم يدع مالك ليلى تكمل جملتها وسارع بمقاطعتها:

. هذا أول خطأ تقعين فيه. طاهر ليس إخوانيًّا، هو مثلي يصوم ويصلي، أنا أعرفه جيدًا قبل أن تولدي.

بهدوء ردت ليلى:

. حبيبي، أنا أعرف عن أي شيء أتحدث، لم أجادلك قط في قيمة المتنبي الشعرية أو قيمة محفوظ الروائية، فأرجوك لا تكذبني ولا تجادلني في السياسة.

عاد مالك يقاطع ليلى:

. قلت لك أنا أعرفه.

قاطعته ليلى:

. يا حبيبي، أنا لم أكذِّب معرفتك به، أنت تعرف قمة جبل الثلج. الإخوان يا حبيبي جماعة سرية، سريتهم تفرض عليهم أن يعلنوا عن فلان وفلان، أما باقي القيادات فلا أحد يعرف عنهم شيئًا إلا قلة من الناس. حبيبتك من تلك القلة فساعدني.

بحيرة قال مالك:

. ما تقولينه عجيب بل وخطير. طاهر من قيادات الإخوان؟! أكاد



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا أصدق، ليلى هل لديك علاقة، أي علاقة، بأمن الدولة؟

ضحكت ليلى لسؤال مالك كما لم تضحك من سنوات، ثم قالت:

. أنا؟! لو عرفوا بي لسارعوا بقتلي. أعرف أن المفاجأة ثقيلة عليك، طاهر لم يخدعك ولم يخدع أحدًا، إنه فقط وفيٌّ لسرية جماعته. أنا يا حبيبي أعمل بالسياسة وأعرف كثيرًا عن كثيرين، فلا تنزعج.

تنهد مالك ثم قال:

. وماذا تريدين من طاهر؟

ردتْ ليلى:

ـ طاهر من قيادات الصف الثاني، لعله أخطر وأهم من عصام العريان ومحمد البلتاجي . أظنك سمعت بهما. سأجلس مع طاهر لكي أقنعه بجدوى مقاطعة جماعته للانتخابات.

قاطعها مالك:

. لو كان كما تقولين فسيخاف منك وسينكر أن له أدنى علاقة بالجماعة.

ابتسمت ليلى:

. كن مطمئنًا، معي لن يخاف ولن ينكر.

قال مالك ضائقًا بالحديث كله:

. جلس معكِ ثم لم يقتنع، أو اقتنع هو ولم يستطع إقناع جماعته، فماذا أنت فاعلة؟

ردت ليلى:

. سأكون قد أقمت الحجة عليه وعلى جماعته. يجب عليهم أن يحددوا موقفهم الآن وليس غدًا، إما أن يكونوا معنا أو مع نظام مبارك. هل تعرف يا حبيبي أن الجماعة أخطر من مبارك ونظامه؟



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قال مالك:

. ليلى أنا لا أفهمك الليلة. خوفي عليك يتعاظم يومًا بعد يوم، أنت وفريقك تواجهون جماعة من المجانين يستطيعون فعل أي شيء.

ردت ليلى:

ـ حبيبي لا تخف. قريبًا جدًّا سيفر هؤلاء المجانين من وجهنا، سيخافون منا أضعاف خوفنا منهم. صدقني يا مالك، أنا أرى هذا اليوم كما أراك الآن. هل ستساعدني وتدبر لي لقاء مع طاهر؟

ضرب مالك على ركبتيه وقال:

. لله الأمر من قبل ومن بعد، سأساعدك، ولكن عديني بأن تكوني حريصة.

ضحكت ليلى وهي تقترب من مالك وقالت:

. بل سأكون متهورة وأدعو حبيبي لأن يلمسني. المس وجهي يا مالك، كل وجهي، ليس وجهي فحسب الذي تحرره لمساتك، بل روحي وقلبي. المسني يا مالك.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# 27

عندما فتح أشرف عينيه، رأى أول ما رأى وجوه أمه وأبيه وبثينة ووائل وزينب. كانت جميعها محتقنة من أثر البكاء، ما عدا أباه الذي كان ثابتًا وراسخًا كعادته.

حوَّل أشرف عينيه عن الوجوه الباكية، فوقع نظره على نتيجة الحائط وعرف أن اليوم هو الأحد الثامن والعشرون من نوفمبر ٢٠١٠.

ليس في جسد أشرف عرق ينبض، إنه خائر القوى بدرجة لم يعرفها من قبل. حاول أن يعتدل فوق سريره ولكن جسده لم يطعه. سارع إليه أبوه وساعده على أن يعتدل، نظر إلى أبيه وسأله:

. أين أنا الآن؟

رد الأب:

. في مستشفى الأمراء.

قال أشرف:

. وأين يقع هذا المستشفى؟

رد الأب:

. على النيل يا باشا.

سأل أشرف ممتعضًا:

. ولماذا لا أرى النيل؟ لقد تذكرتُ أنك قد تبرعت لهذا المستشفى بعشرة ملايين جنيه.

رد الأب:

. بثينة هي التي نقلتك إلى هنا، سأبحث فورًا عن أفضل جناح يطل على النيل.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نظر أشرف إلى جسده وشعر بأنه رخو كأنه شراب غليظ القوام، لا هو متماسك ولا هو مائع، حالة من الرخاوة لم يعرفها من قبل. ترك جسده وعاد يحدث أباه:

. هل اليوم هو يوم الانتخابات أم الأمر قد اختلط عليَّ؟

رد الأب بثباته:

. لم يختلط عليك شيء، اليوم هو يوم الانتخابات، المهم الآن أن تتعافى سريعًا.

عاد أشرف يتأمل الوجوه الباكية وتوقف عند وجه بثينة. كان وجهها من وجهة نظره باكيًا بليدًا، لا بل كان باكيًا مفتعلًا. نظرته إلى وجهها كانت تحملها مسؤولية ما هو فيه الآن، أما بكاؤها فهو من باب قتل القتيل ثم المشي في جنازته.

حول نظره عن الجميع وأشار إلى أبيه الذي لبى الإشارة. همس له أشرف:

ـ أريد جناحًا غير هذا، أرى منه النيل، ثم لا أريد سواك معي، تفضل واصرف كل الذين هنا.

قبل أن يرد الأب دخلت ممرضة وخلفها اللواء زبادي، الذي صاح فور رؤيته أشرف:

. قسمًا سأقتل المرض الذي تجاسر على مهاجمة ولدي الحبيب!

ابتسم الجميع لمجاملة اللواء، الذي حياهم جميعًا بهزة من رأسه ولكنه احتضن العمري بشوق حقيقي، وكذا فعل مع أشرف الذي دعاه ليجلس بجواره على طرف السرير.

غادر أفراد أسرة أشرف الغرفة من تلقاء أنفسهم ودخلوا إلى غرفة مجاورة، مفسحين المجال لحديث سيجري بين الرجال.

وجه الحاج عاصم العمري كلامه إلى اللواء زبادي:

. أنت تعرفني يا سيادة اللواء جيدًا، أنا رجل يُضرب بي المثل في



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الصبر، ولكني لا أصبر على وجع ابني لحظة واحدة. أنا متماسك أمام أمه وزوجته، ولكن جوفي يغلي من الخوف عليه. الآن ليس بيننا غريب، وأنا أعرف مكانة سيادتك لديه، ولذا أريده الآن أن يتحدث ويكشف كل شيء لكي نعرف طريقًا لعلاجه.

نظر اللواء زبادي باتجاه أشرف وقال:

. الحاج معه حق، ماذا حدث يا باشا؟

رد أشرف بصوت حاول أن يكون مرتفعًا وواضحًا:

. لا أعرف، كل ما أعرفه أنني مريض جدًّا.

أشار الحاج عاصم بيده بعلامة النفي ثم قال:

. هذا الكلام لا يدخل رأسي. زوجتك التي تعبد تراب رجليك قالت لي إن قلبك توقف فجأة، وإنها وخدمك أحضروك إلى هنا. هل دس لك أحد شيئًا في طعامك أو شرابك؟ هل انفعلت في عملك؟ لا بد من سبب يا باشا، ولن أتركك حتى تتكلم، أنت ابني الوحيد الذي خرجت به من الدنيا.

قبل أن يرد أشرف دخل الدكتور ياسين، مدير المستشفى، ورحب بالجميع في حرارة، ثم قال لأشرف:

. وضعك ليس خطيرًا، إلا أنه غامض. كل التحاليل التي أجريت لك أثبتت أن صحتك العامة جيدة جدًّا، وكل أجهزة جسدك تعمل بكفاءة عظيمة، ومع ذلك فأنا أصدق شعورك بالمرض، وهذا هو الغامض في الموضوع. جسدك جيد جدًّا ولكنك مريض.

صاح الحاج عاصم بغضب:

. كسبنا صلاة النبي، أنا أريد كلامًا مفهومًا، كلامًا يقول: «ابنك يا حاج عاصم مريض بكذا وعلاجه في المكان الفلاني». غير ذلك لن يرضيني.

الدكتور ياسين، الذي يعرف مكانة مريضه ويعرف سطوة أبيه وتفوذه، تراجع خطوة إلى الخلف وقال:



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ـ ربما كان أشرف باشا مرهقًا من العمل. كان الله في عونه. ويحتاج إلى فترة استجمام. يشرفنا أن يكون استجمامه في مستشفانا الذي ما كان له أن يُبنى إلا بهبة سخية من أبيه.

قال الدكتور ياسين جملته وغادر الغرفة، وظهر الامتعاض على وجوه اللواء زبادي وأشرف والحاج عاصم. أنهى أشرف حالة الامتعاض تلك بأن قال لأبيه:

ـ أريد الخروج الآن من هذا الجناح.

غادر الأب الغرفة دون رد على ابنه، وساعد اللواء زبادي أشرف لكي يهبط من فوق السرير، وخرجا معًا إلى ممر يطل على النيل مباشرة وله سور يسمح ارتفاعه بأن يستندا إليه.

بحنان صادق سأل اللواء زبادي أشرف:

ـ هل صنعتَ شيئًا يشعرك بالذنب أو الارتباك؟

تنهد أشرف وقال:

ـ نعم.

بانتباه قال اللواء:

ـ حدثني، ربما وجدنا مخرجًا لما أنت فيه.

رد أشرف بحزن جديد عليه:

ـ ليس الآن، ولكن عمومًا لقد وقفت أمام حياتي لأول مرة، فوجدت بها ثغرات كثيرة يحتاج سدها إلى قرارات مؤلمة.

بحيرة رد اللواء زبادي:

ـ لا تكن ملغزًا يا أشرف، لي سن أبيك، ولي مكانة الأستاذ، ولي نصيحة الصديق.

غمغم أشرف:



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

. نعم لك كل هذا، ولكن لن أتحدث الآن لأني متعب جدًّا، ولولا هذا السور ما استطعت الوقوف على قدميَّ.

جاء الحاج عاصم مهرولًا وقال لأشرف:

. الجناح الجديد ينتظرك.

سار أشرف بين أبيه واللواء زبادي، مستنكفًا أن يعتمد على ذراع أحدهما. سار كأنه طفل يتعلم المشي، ليته كان طفلًا، سار بقوة كبريائه وبذكرياته عن جسده العملاق الذي لم يعد يشعر بدبيب الحياة في نصفه السفلي. إنه يشعر كأن ثمة نملًا صغيرًا جدًّا يزحف ببطء، هابطًا من موضع سُرته إلى أصابع قدميه.

خرج أشرف من حالته عندما سمع اللواء زبادي يقول لأبيه:

. جزى الله بثينة هانم بكل خير، لقد سارعت بالاتصال بي بعدما اتصلت بحضرتك مباشرة. هي تعرف مكانة أشرف باشا عندي وتقدرها. كل شيء سيكون على ما يرام، فترة اختبار من الله لا أكثر ولا أقل.

عندما دخل أشرف جناحه الجديد، افتقد زحف النمل على جسده. لم يعد يشعر بشيء، وجاءته ذكرى وجه خلف عندما كانت الصراصير تعبث بجراح رأسه. لحظتها تمنى لو كانت له قوة ليصرخ: «لا لست أنا الذي يقع في دوامات المقارنة، خلف ليس أكثر من كلب حقير وضيع مجرم».



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# 28

في ظلام غرفتها كانت ليلى تفكر في محاسن. الحقيقة أنها كانت تفكر في حكمة الله، التي تهب محاسن رجلًا فحلًا معطرًا وحنونًا، ثم تنصرف محاسن عنه، بل تذيقه الويلات، في الوقت الذي تتمنى فيه هي هذا الرجل وليس سواه.

الله حكيم وعادل لا تشك في حكمته ولا عدله طرفة عين، ولكن أين الحكمة والعدل فيما هي فيه؟

إن خفاء الحكمة والعدل عنها يؤلمها، بل يذل روحها، كما يؤلمها حرمانها من أبيها ومن مالك.

قبلة مالك الأولى جعلتها مخدرة، أما قبلة الليلة فقد طلبتها هي عندما استصرخته: «المس وجهي». لقد لمس وجهها حتى انتصبت حلمتا نهديها من لمساته الحنون المشفقة، فقالت له:

. قبلني حتى أرتوي.

هي التي طلبت القبلة، ولذا فهي متيقظة حتى الثانية من بعد منتصف الليل. إنها مطعونة بألف سؤال بلا إجابة شافية.

لم تشعل نور غرفتها، اكتفت بنور أباجورة السرير وبإضاءة شاشة اللاب توب، وبدأت الكتابة لمالك:

الحبيب مالك،

أنا خائفة، ليس من أمن الدولة كما تظن، ولكن خائفة من حبي لك. التفاصيل التي بيننا تتكاثر وتتعاظم وتحتلني، هي تفاصيل تعيد لي قصة أبي مع أمي، وعمتي مع زوجها، والقصتان كان الموت نهايتهما، فمن منا سيموت أولًا ويختم قصتنا يا حبيبي؟

من باب الأنانية أتمنى لو مت قبلك، أنت رجل قوي تحتمل عذاب الفقد، أما أنا فضعيفة هشة لم يلملمني بعد موت أبي سوى حضنك.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحبيب مالك،

تزوج عمر من سعاد وولد لهما ثلاثة، ذكران هما طارق وسعد وأنثى هي ليلى.

الذكور طيور مهاجرة يا حبيبي، لقد فر الذكران من عش الأب عندما نبت ريشهما، وبقيت أنثاك تتشرب روحها تفاني سعاد في إسعاد عمر، ويتشرب قلبها رؤى عمر الغامضة حول اللّٰه والمُلْك والزمان واللحظات التاريخية.

لقد بعثرَت ثروةُ أبي أسرتي، أخواي يطاردان المزيد منها، وأنا وأمي ننتظر عودة الحبيب الغائب، الذي نعلم يقينًا أنه لن يعود.

كان يأخذني في سيارته ويقود بي كما أفعل معك، ويضع في المسجل شريطًا لحبيبه وصديقه الشيخ ياسين التهامي، ويترك الصوت والموسيقى والكلمات تتسرب إلى قلبي وتسكنه فلا تغادره.

يقشعر جسدي كله الآن وأنا أذكر صوت ياسين متوسلًا وراجيًا:

**أحبايَ أنتم أحسن الدهر أم أسا**

هذا هو الحب يا مالك، شيء يصارع الزمان ويناطح تقلبات الأيام، شيء راسخ متوغل مقيم. أنا أحبك بهذه الكيفية.

أعاد عمر بناء بيت أبيه في الإسكندرية، وكان يقول لي:

ـ سأتقاعد هناك، وستتزوجين من رجل يحبك وتنجبين أولادًا يحبونني، وتتركينهم لديَّ أعلمهم الحب.

كنا نذهب منفردَين إلى بيت أبيه، وكان يطبخ لي العشاء، ثم نذهب إلى الكورنيش، صيفًا كان الوقت أم شتاءً، نجلس قبالة البحر، فيقول:

. اللهم لك الحمد بعدد قطرات ماء بحرك وزيادة.

يقولها ثم يصمت. وأسأله:



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

. لماذا تسكت فجأة؟

ويرد:

ـ أستغفر لأبي ولجدك الحاج مسعود وأدعو الله أن يديم عليَّ محبة أمك.

لا فرق بينكَ وبين أبي يا حبيبي، كلاكما رجل الصبر والعطاء، فقط أبي كان غنيًّا جدًّا فكان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر. أنت أيضًا معطاء يا حبيبي، لا تملك مالًا ولكنك تملك كنز الكنوز، تمتلك قلبك الذي يهبني الحياة.

الحبيب مالك،

لقد تأخر الوقت ولم أنم وليست لديَّ رغبة في النوم. هل أبي غاضب مني لأني لمستك ولمستني وقبلتك وقبلتني؟

أنا مشتتة، يا حبيبي، بين رغبتي فيك وبين حلالي وحرامي. هل أنا هكذا أفسد عليك دينك فتفسد أنت عليَّ دنياي؟

سامحني، لن أكتب لك بعد الليلة. لقد كذبت على نفسي، وأنت أيضًا كذبت عليَّ. لقد قلت لنفسي: «إن الكتابة هي طريقي إلى الشفاء»، وأنت يا مالك قلت: «آمين».

الكتابة قد تشفي غيري، أما أنا فتقذفني في بحار من الذكريات التي تشل حركتي. لقد مات أبي وانتهى الأمر. مات وقبره في قلبي، فلن أنبش قبره بعد الليلة.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجمعة العاشر من ديسمبر من العام ٢٠١٠، صحا أشرف من نومه في سرير مستشفاه لحظة أن كان المؤذن يقول: «الصلاة خير من النوم».

تـذكر أنــه لـم يـركع ركعـة ولـم يسـجد سـجدة للـه منـذ دخولـه المستشفى، تلك الكبيرة غفرها لنفسه لأنه لم يكن قادرًا على أداء الصلاة، كما أنه من الذين لا يستسيغون الأخذ برخص الإيماء في الصلاة.

صحا أشرف فوجد نفسه قادرًا على الحركة دون أي مساعدة، بل وجـد فـي نفسـه الرغبـة فـي الاغتسـال والوضـوء والصـلاة بـل والجري على كورنيش النيل ساعة الفجر.

لم يستغرب أشرف ما هو فيه من نشاط وعافية، فقد تكون بركة الجمعة قد حلت به.

نكبته كانت ليلة الجمعة وعافيته تعود إليه يوم الجمعة، وتلك لا شك علامة على القبول والرضا.

ألقى عنه الغطاء وهبط من سريره والسعادة كلها تلفه، وقد عاد له الرضا القديم الذي طالما تمتع به. فتح بحرص باب غرفة أبيه فلم يجده بل وجد فراشه مرتبًا، فازداد فتنة بالرجل العجوز الهمام الذي لا تفوته صلاة الجماعة إلا لعذر قاهر.

حمد أشرف لنفسه إصراره على أن يكون أبوه هو فقط مرافقه في فترة علاجه.

الحاج عاصم العمري أب يتشرف به ملك أو سلطان أو رئيس، ابن الحاج عاصم لا بد أن يكون وزيرًا على أقل تقدير.

بخطـوات يرعشـها الفـرح دخـل أشـرف إلـى الحـمَّام فخلـع عنـه ملابسه واستعرض جسده كما يفعل عادة في حمَّام بيته.

كان جسده كما تركه في ليلة الشؤم والخراب، إنه الجسد القوي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المتين اللامع النضر ذاته، كأنه لم يمرض ولم يخضع لمائة تحليل ولم تُغرس في أوردته عشرات الحقن.

أجَّل قدر ما يستطيع النظر إلى سيفه، شوقه لرؤيته ليس فوقه شوق، إنه صاحبه ورفيقه وكاتم سره، هو ولي نعمته، بل هو النعمة ذاتها.

دائمًا ما كان أشرف يسأل نفسه: «لماذا لا يترك كل أولاد الكلب الذين ينغصون على سيادة الرئيس حياته الاشتغال بالسياسة ويتفرغون لكتابة شيء نافع، كأن يكتبوا كتبًا عن علاقة الرجل بسيفه؟ يقينًا هم لا سيوف لهم، أو أن سيوفهم صدئة لا تعمل، أو تعمل في غير موضعها».

لمسه أولًا بسبابة يمينه فلم يجده شيئًا، وضع يديه بجانبه وأغمض عينيه وشهق وزفر بقوة لكي يسترد أعصابه ثم ببطء فتح عينيه ونظر إليه.

ما هذا؟ هذا ليس أكثر من جلدة ميتة بنية اللون.

أين ذهب لونه؟ أين ذهبت قوته؟ أين ذهب شموخه؟

أيكون قد مات؟ الموت هو قدر كل حي ولا مفر منه، ولكن صاحب السيف على قيد الحياة فكيف يسبقه سيفه إلى القبر؟

لا يريد أشرف لنفسه الصراخ أو الجنون أو هتك السر، إنه بالأساس رجل عاقل عملي، ولذا فقد تراجع، محتفظًا بهدوئه، حتى قعد على حافة المغطس. لم يجلس جلسة أرملة تنتظر معاش زوجها، بل جلس جلسة قاضٍ على منصة، سيصدر بعد قليل أحكامًا بإعدام هذا وتبرئة ذاك، ولكنه في كل الأحوال سيعود إلى بيته سالمًا وسينام في سريره قرير العين.

الآن هو وقت الحكم، فبماذا سيحكم أشرف؟

لقد حكم بأن يعالج الكارثة كلها من جذورها القريبة والبعيدة، ولن يترك شيئًا للصدفة أو للخوف من المستقبل.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هو الآن يعمل قاضيًا ولكنه لن يتخلى عن دوره بوصفه رجل أمن نابهًا.

قال رجل الأمن للقاضي: «سنبحث يا سيادة المستشار في النبيذ الذي أغرقتْ بثينة به السيف ثم لعقته، قد يكون النبيذ فاسدًا وأصاب السيف بالصدأ، وقد يكون لسان بثينة به ميكروب انتقل إلى السيف. كل شيء وارد يا سيادة المستشار، وأعدك بأن أضع بين يدي عدالتكم التحريات والتقارير اللازمة في أسرع وقت وعلى أكمل وجه».

رد القاضي قائلًا: «هذا جيد ولكن لماذا تبدو متسرعًا؟ لماذا لا تقدر أن السيف ما هو إلا تابع لرجل كان مريضًا؟ ألا يستحق المريض فترة راحة يسترد خلالها كامل قوته؟»

هز رجل الأمن رأسه مستحسنًا كلام القاضي ثم قال: «نتعلم من سيادتكم الحكمة والرصانة، التسرع عيب لا شك في ذلك. سنعطي فرصة للسيف، لعله يعود كما كان. ولكن كيف يعيش صاحبه إلى أن تمر سحابة الخراب هذه؟»

ابتسم القاضي وقال: «هي كما وصفتها سحابة، وليست سحابة خراب، بل هي سحابة صيف تمر سريعًا. فليعش صاحب السيف كما كان يعيش، شامخًا ثابتًا، متفانيًا في أداء عمله الخطير. أحذره من أن يسيء إلى زوجته، بل يجب أن يكتم عنها الأمر كله، وأحذره من أن يعلم أحد، أي أحد، شيئًا عن سر سيفه، وأحذره من السقوط في الكآبة أو الحزن، وأحذره من الذهاب إلى الأطباء أو الدجالين، والفريقان في هذا الأمر سواء. صاحب السيف أدرى بسيفه الذي عما قريب يعود كما كان».

تحت رشاش الماء الدافئ حاول أشرف أن يصنع كما يصنعون ويدندن بأي لحن، لكنه اكتشف مجددًا أن ذاكرته لا تحتفظ بكلمات أي أغنية كانت.

ولأول مرة وقف متسائلًا عن تلك الحقيقة: «كيف لم أحفظ لحنًا في حياتي؟»



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا أغاني أمه في مهده حفظها، ولا أغاني الطفولة والمراهقة، ولا أغاني الشباب، ولا حتى نشيد الشرطة.

إيقاع النشيد الوطني، «بلادي بلادي»، في قلبه، ولكنه لا يحفظ كلماته جيدًا:

بلادي بلادي بلادي لك حبي وفؤادي

ثم ماذا بعد الحب والفؤاد؟ لا شيء، فراغ طويل عريض يستوطن رأسه. أخيرًا ابتسم عندما تذكر أنه شارك مرة زملاءه في الصف الأول الابتدائي فرحتهم بنهاية العام الدراسي، عندما راحوا يهتفون في صوت واحد:

ألف لام، ألف لام آخر يوم في الامتحان

هذا كل ما بقي في رأس أشرف وقلبه من الألحان والأغنيات.

حسنٌ، راح أشرف بحماس وفرح يدندن تحت رشاش الماء الدافئ:

ألف لام، ألف لام آخر يوم في الامتحان

صلى أشرف الفجر عشر مرات لكي يقضي عن نفسه ما فاته من صلوات، ثم دعا ربه بخشوع وإخلاص، ثم اكتشف أنه جائع جدًّا كأنه لم يذق طعامًا من سنة.

عندما عاد أبوه من المسجد وجده جالسًا على سجادة الصلاة، فكاد الأب أن يسقط مغشيًّا عليه من الفرحة. أخذ ابنه في حضنه وراح يبكي البكاء الذي كتمه منذ سقوط أشرف مريضًا.

هز بكاء الحاج عاصم أشرف هزًّا عميقًا، لأنه لم يرَ أباه باكيًا قط، فحاول أن يخفف عنه بلهجة مرحة فقال:

ـ أعرف أني حبيبك، ولكن يجب أن تعرف أنك بطلي، وليس للأبطال أن يبكوا أمام جنودهم.

مسح الأب دموعه وقال:



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

. سأذبح عشرة عجول، بل مائة عجل حمدًا لله على شفائك.

وقف أشرف مبتسمًا ومتباهيًا بقوته التي عادت إليه، وقال لأبيه:

. هيا نمشي على الكورنيش ونأكل من أول مطعم يصادفنا.

ضحك الأب وقال:

. الوقت مبكر جدًّا ولن يصادفنا سوى عربات الفول. هل الباشا سيأكل من عربات الفول؟

ابتسم أشرف وقال:

ـ ما دام الباشا سيكون في صحبة جلالة الملك الحاج عاصم العمري، فسيأكل من عربات الفول بل والكبدة.

على كورنيش نيل المعادي حيث يقع مستشفى الأمراء، حك الحاج عاصم ذقنه قبل أن يسأل أشرف:

. ألن تتحدث وتُخرج ما في قلبك لأبيك؟

قبل أن يندفع في الإجابة، برزت صورة القاضي أمام عينيه، فرد على أبيه بصوت متماسك:

. هذا الكلام هو لك فقط، لن تعرفه بثينة ولا أمي ولا أي أحد آخر. على مدار أيام مرضي وعلاجي فكرت مليون مرة في مليون سبب لما أنا فيه، ثم لم أجد سببًا مقنعًا سوى سبب واحد أخشى التصريح به لغيرك.

بكل انتباه ولهفة قطع الحاج عاصم كلام أشرف وسأله قائلًا:

. ما هو السبب؟ وسرك في بئر.

بلهجة صادقة جدًّا رد أشرف:

. الحسد يا أبي، ليس غيره. نحن تحت العين، أنتَ مَن أنتَ، وأنا أصغر عقيد في أمن الدولة. لدينا كل ما يحسدنا الناس عليه، وأخشى التصريح بسبب مرضي لكي لا يهاجموني بدعوى



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الدروشة. أنت تعرف حساسية عملي وحساسية وضعك أنت في الدولة، ولكي تتيقن من صحة السبب انظر إليَّ، كما مرضت كما شُفيت، عين وزالت بحمد الله.

تنهد الأب في راحة عظيمة وقال:

. نعم يا حبيبي، الحسد مذكور في القرآن الكريم.

في شارع جانبي يعرفه الأب جيدًا، كان متولي، بائع الفول، يقف بعربته ينتظر رزق الصباح. من أول نظرة عرف متولي أنه أمام الحاج عاصم العمري، فصوره تملأ الجرائد وكثيرًا ما شاهده في افتتاح الرئيس للمشروعات.

بلهجة ابن البلد سأل متولي الحاج عاصم:

. ماذا أصنع؟

رد الحاج بود:

. اصنع ما تصنعه مع أي زبون.

أكل الرجلان . خاصة أشرف . كما لم يأكلا من سنوات، وأخرج الحاج عاصم من جيبه ورقة بمائتي جنيه ودسها في جيب قميص متولي، الذي أخرج الورقة وقبّلها وحاول تقبيل يد الحاج، إلا أنه منعه بصدق.

عندما عادا إلى المستشفى، ترك أشرف كل ملابسه هدية للعاملين واكتفى بأن ارتدى زيًّا رياضيًّا لونه أبيض، ثم غافل أباه وأجرى مكالمة مع أمه، دخل على أثرها بيته بمعنويات الشاب المترف العائد منتصرًا من مباراة تنس.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

منذ سنوات ومالك ينشد بينه وبين نفسه أبيات أمل دنقل:

ضاقت الدائرة السوداء حول الرقبة

صدرنا يلمسه السيف

وفي الظهر الجدار

الحقيقة أنه لم يكن ينشدها، كان يتخذها شعارًا موضحًا لحقيقة حياته، الآن أصبحت الأبيات ليس مجرد شعار، لقد أصبحت لسان حال الحياة نفسها.

ليلى كفت عن الكتابة، وعرف منها فشل محاولاتها مع الإخوان، والانتخابات ذاتها انتهت على ما تنتهي إليه عادة من تزوير فج يخرق سقوف العقل والمنطق.

مالك لم يشارك في أي انتخابات على مدار عمره، ويعرف دائمًا أن كل انتخابات هي مزورة بضرورة الواقع وحتمية المناخ، ولذا فهو غاضب من ليلى التي هي غاضبة من تزوير الانتخابات وتريد أن تكمل شوط المواجهة مع الحزب الوطني إلى منتهاه. أحيانًا يشك مالك في قوى ليلى العقلية، لو كانت طبيعية ما كان لها أن تتوقع غير التزوير التاريخي المعتاد.

الدائرة السوداء تشتد قبضتها حول رقبة مالك، الذي لا يريد البقاء في البيت ولا الذهاب إلى الجامعة ولا مقابلة جاد المولى ولا حتى لقاء ليلى، ولا مواصلة الكتابة في دراسته المزمنة. إنه لا يريد سوى الذهاب بعيدًا، ولكن أي «بعيد»، مهما كان بعيدًا، فهو جهة من الجهات، فإلى أي الجهات يذهب؟

لماذا لا يذهب في برد ديسمبر إلى الإسكندرية؟

اقتراح سخيف، في الإسكندرية أصدقاء ومعارف قد يلتقي بواحد منهم، ثم في الإسكندرية برد ينعش الروح وهو لا يريد لروحه الانتعاش، ثم في الإسكندرية ذكريات لأحلام لم تتحقق،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وبها قبر عمر والد ليلى. إنه يريد أن يفر من كل ذلك، الفرار إلى صحراء مجهولة تلفه كله، إنه يريد «صحراء من كل الجهات»، كما صرخ ذات يوم محمود درويش.

كان مالك في غرفة مكتبه عندما هيمنت عليه فكرة الذهاب بعيدًا إلى صحراء ليس بها سوى الصحراء. غادر غرفة المكتب لكي يخبر محاسن والأولاد بذهابه إلى مرسى مطروح. لقد نبتت مرسى مطروح الآن أمام عينيه، بحر وصحراء وشتاء، ولا أحد يعرفه هناك وهو لا يعرف أحدًا ولن يعرِّف أحدًا.

كانت محاسن جالسة جلستها الأبدية فوق الأريكة المواجهة لشاشة التلفزيون، وكان الأولاد حولها بأجسادهم ولكن أحمد مشغول باللاب توب، وهدى بهاتفها المحمول، وعصام يحدق في السقف كعادته.

وجه مالك كلامه لمحاسن قائلًا:

. سأذهب فجر الغد إلى مطروح ولن أغيب طويلًا.

تلقى مالك طعنة لم يكن يتوقعها بحال من الأحوال عندما ردت عليه محاسن بهدوئها الميت المميت:

. سنأتي معك.

قبل أن يفيق من أثر الطعنة الغادرة الناسفة لكل آماله في التوحد مع ذاته، جاءته أصوات أولاده مرحبةً ومهللةً.

أسقط في يد مالك، فلم يرد إلا بكلمتين اثنتين:

. على البركة.

ثم عاد إلى غرفة مكتبه.

أصر الأولاد على عدم الذهاب بالسيارة أو الأتوبيس، فضلوا القطار، وهذا معناه أن الرحلة ستطول وسيكون مالك في مواجهة وجه محاسن لساعات.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

راح مالك يتأمل أولاده ويقول في نفسه: «أولاد الكلب لا يعرفون كم أحبهم».

أحمد طالب التجارة طويل وسيم مثل جده لأبيه، هدى طالبة الثانوية رعناء لطيفة تصهل بضحكة مفاجئة يحب مالك رنينها، عصام تلميذ الإعدادية أقربهم إليه شبهًا، وأشدهم ميلًا للعزلة والصمت، ولكن على الرغم من عزلته وصمته يباغت الجميع أحيانًا بموقف أو تعليق يثير ضحكهم لأيام.

محاسن هي محاسن، تعيسة حزينة مكتئبة، حتى إنها لم تغتسل وترتدي ملابس مبهجة، اكتفت كعادتها بالوضوء وارتدت بنطلون جينز قديمًا وواسعًا فوق بنطلون بيجامة النوم وبلوزة متهدلة فوق جاكت البيجامة، كل ذلك لكي لا تشعر بالبرد ولكي لا تستهلك طاقتها في اللبس والخلع!

هذه المرأة تعاقبه منذ سنوات على ذنب لم يرتكبه، وعندما قبَّل غيرها فرضتْ نفسها على رحلته!

هل تريد استعادته؟ وهل التي تريد استعادة رجلها تجلس هكذا تعسة متهالكة؟

هل تواصل رحلة تجسسها عليه بوضعه تحت عينيها على الدوام؟

هل تظن أنه ذاهب لامرأة في مطروح فجاءت لتفسد فرحة الخلوة؟

عجبًا للزمن وتقلباته، الأستاذ الجامعي المرموق مشغول بتفسير سلوكيات امرأة اسمها «محاسن».

لكي لا يمضي مالك بعيدًا في شروده، طلب من هدى أن تعيره هاتفها لكي يستمع إلى بعض الأغاني.

تدخل أحمد قائلًا:

. أغاني هدى لن تعجبك، ذوقك عندي أنا.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

استعرض مالك ذاكرة هاتف أحمد فوجد بها غثًّا كثيرًا وبعض السمين.

وضع مالك السماعات على أذنيه وبدأ يسمع أم كلثوم:

فتحمل مرَّ هجرانك واستبقِ العتابا

كانت أم كلثوم تشدو وكان مالك يتمتم محرفًا شعر ابن أبي ربيعة:

ليت ليلى أنجزتنا ما وعدت



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# 31

كانت ليلى تتخبط كأنها فأر في مصيدة. لقد وصلتها رسالة مقتضبة من مالك: «أنا في مطروح ومعي الأولاد».

أخذت ليلى رسالتها وتخبُّطها وذهبت إلى ميرفت، التي عرفت من أول نظرة أن ابنة خالها وصديقتها وحبيبتها لا يفصلها عن الانتحار اكتئابًا إلا لحظة اتخاذ القرار.

قالت ميرفت:

. قولي ما عندك دفعة واحدة.

ردت ليلى:

. ليس عندي شيء.

ابتسمت ميرفت:

. هل سنبدأ الكذب من أول الجلسة؟ سأساعدك وأسألك: ماذا فعل مالك؟

أدركت ليلى أن التسويف لا مجال له، خاصة وهي تعلم أنها جاءت لميرفت لكي تتكلم. فتكلمت:

. يبدو أن قصتي مع مالك، على أهميتها، ما هي إلا مجرد كلمة في جملة طويلة عريضة اسمها حياتي. مالك الآن مع محاسن وأولاده في مطروح.

قاطعتها ميرفت:

. وهذا يدفعك للجنون؟!

ردت ليلى باستهتار:

. كلًّا، لا جنون هناك.

بحدة قالت ميرفت:



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

. أنا أعرفك كما أعرف باطن كفي، أنت الآن مجنونة، أنثى تركها وليفها إلى عش آخر. الجنون والغضب بل والكآبة من حقك، فلا تستكثريها على نفسك. أنت الآن تسألين نفسك: «كيف يحبني وكيف ينزه زوجته التي يقول إنه لا يحبها؟». أنت الآن واقعة في هذا الفخ.

قالت ليلى:

. بل الأمر أكثر تعقيدًا من كل ذلك. جاءتني رسالته فضحكت، نعم ضحكت، ومن تلك الضحكة بدأت المحاكمة.

استفسرت ميرفت:

. تحاكمينه أم تحاكمين نفسك؟

ردت ليلى:

. أحاكم نفسي.

سألت ميرفت:

. كيف ذلك؟

أشعلت ليلى سيجارة وردت:

. هناك ثلاثة أسئلة رئيسية تدور حولها حياتي، الإجابة الصادقة عنها هي طوق نجاتي.

ردت ميرفت:

. هذا تخطيط جيد لجلستنا، فلنبدأ بالسؤال الأول.

ترددت ليلى قبل أن تتشجع وتقول:

ـ ما الذي رماني في بحور السياسة؟ هل لأني مؤمنة فعلًا بما أصنع ومستعدة لدفع ثمنه، أم أنني أبحث عن دور أملأ به فراغ حياتي؟

ردت ميرفت:



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

. الذي أعرفه عنك يؤكد لي أن الصدق هو محور حياتك، وأنك لا تبحثين عن دور. فلو كنت تبحثين عن دور لاخترعت لنفسك شيئًا هينًا، كلفته ليست باهظة، كنت تسافرين مثلًا. وثروتك تسمح لك بالسفر إلى أي مكان. ثم ساعة الجد حياتك ليست فارغة. نعم أنت بلا رجل ولكن حياتك ممتلئة ولو بمشاعرك.

نتيجة الانتخابات التي كنا جميعًا نتوقعها، ثم خذلان الحلفاء، هما السبب في طرح هذا السؤال، الوضع في مصر الآن يجعل مثيلاتي من اللاتي لا يعرفن اسم رئيس الوزراء يتمنين لو كانت لديهن شجاعة العمل بالسياسة وخوض المعارك وتنظيم المظاهرات. عملك وعمل غيرك يرفع عني وعن غيري الحرج، فواصلي والله خيرٌ حافظًا وهو أرحم الراحمين.

أشعلت ليلى سيجارة جديدة ثم قالت:

. هل أنا غيور؟ ثم هل غيرتي هي سبب حالتي التي أنا فيها الآن؟

بجدية تامَّة ردت ميرفت:

ـ أنتِ لست غيورًا، أنتِ نار الله الموقدة، وهذا شأن المحبات جميعهن. سفر مالك المفاجئ مع زوجته وأولاده أوقد نيران غيرتك، فجعلك تشكين في كل شيء. وكان شكك سيكون صحيًّا لو كان الهدف منه مراجعة حياتك وإعادة ترتيب أوراقك. لكنه ليس كذلك. أنت الآن لا تشكين بل تجلدين نفسك على اختيارات لم يعد بمقدورك التراجع عنها.

تنهدت ليلى وسألت:

. لو صدَّقتُ أن مالك يحبني، فهل أنا صادقة في حبي له؟ أم هو بديل مأمون لأب غاب ولن يعود؟

قبل أن تفتح ميرفت فمها لتجيب، أشارت لها ليلى بكفها معتذرة وقالت:

. كنا قد اتفقنا على ثلاثة أسئلة فقط، ولكنَّ هناك سؤالًا رابعًا،



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تعاملي معه بوصفه سؤالًا من خارج المقرر: لماذا سافر مالك مع محاسن؟ سافر لاستعادتها؟ سافر للهرب منها وفرضتْ نفسها عليه؟ سافر تحت ضغط من أولاده؟ لماذا تركني فجأة؟

لأول مرة منذ بداية الحديث تعرف الراحة طريقها إلى وجه ميرفت، ولذا فقد استغلت حالة الارتياح تلك وشاكست ليلى قائلة:

ـ السؤالان سمنهما كثير ولا يقتل الدسم سوى القهوة. أجيبك ونحن نرشف قهوتنا.

لم تفلح توسلات ليلى في استبقاء ميرفت، التي انطلقت إلى المطبخ لصنع القهوة وتركت ليلى، لا يؤنسها غير ذاكرة هاتفها الممتلئة بصور مالك. هي تحب التقاط الصور له، ومع أنه يمانع في بدء حفلات التصوير، لكنه في النهاية يعلن سعادة كاملة بصوره، التي يراها أجمل بكثير من حقيقته.

عندما عادت ميرفت بفنجاني القهوة، كانت ليلى غارقة في تأمل وجه حبيبها المسافر.

صاحت ميرفت:

. دستور.

ارتبكت ليلى وغطت ارتباكها بأن أسرفت في الضحك.

عادت ميرفت إلى جديتها وسألت ليلى:

. إجابتي متوقفة على إجابتك عن سؤال سأطرحه عليك، فهل أنت جاهزة للصدق التام؟

ردت ليلى:

. نعم، ولو كان هناك ما هو أوضح من الصدق فأنا جاهزة له.

نظرت ميرفت في عيني ليلى وسألتها:

. هل تركتِ شفتيك لمالك ولو لمرة واحدة؟



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لم تتردد ليلى وهي تعترف:

. بل التهمت أنا شفتيه لمرات.

ابتسمت ميرفت لأول مرة وقالت:

. أنتِ امرأة غارقة في حب رجل لا في حب صورة لأب غاب.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كارثة أشرف لا تقف عند تعطل سيفه، وإن كان تعطل السيف في حد ذاته هو أبو الكوارث وأمها. الكارثة لها وجوه عديدة، وأبرز تلك الوجوه أن أشرف، منذ أن تزوج بثينة، وهو يعيش معها حالة من المضاجعة الدائمة، ليست مضاجعة الإيلاج بطبيعة الحال، لأن هناك أيام العذر الشرعي، وأيام تكدر المزاج. ولكن بالرغم من هذه الأيام أو تلك فإن أشرف كان يضاجع بثينة ولو بالنظر إن تعذر اللمس واستحالت المباشرة.

هو لم ينم إلا وهي في حضنه أو هو في حضنها، إنهما مشتبكان على الدوام، حتى إنها كانت تداعب بباطن قدمها ظهر قدمه وهما منفردان على أي طاولة طعام!

الآن السيف معطل، ثم . وهذا وجه أسود من وجوه الكارثة . هو لم يعد شغوفًا ببثينة، بل أصبح يستثقلها. كانت هنا نار وأصبحت رمادًا، كان هنا ضوء بات ظلامًا، شيء ما مشرق ومبهج ذهب وحل مكانه نقيضه.

أشرف يريد تجنب بثينة لأطول وقت ممكن. ولكن كيف يكون هذا وهي تعرفه لا يصبر عليها سوى ساعات؟

كيف يكون هذا بحيث لا تهتز صورته في عينيها أدنى اهتزاز؟

في أولى مكالماته مع أمه البيضاء الجميلة الذكية الخبيرة قبل أن يغادر المستشفى، سرَّب أشرف لها عبر درجات من تلون الصوت معنى أنه متعب ويحتاج لراحة قد تمتد لشهور.

تلقفت الأم الخبيرة الرسالة المسربة المشفرة، وفكت شفرتها وأعادت بثها لبثينة في صورة أوامر واضحة لا تقبل التأويل وهي فوق النقاش.

تنفيذًا لأوامر أمه، حصل أشرف على غرفة مستقلة بالدور الأول من الفيلَّا لكي لا يرهق نفسه في صعود عشرين درجة سلم تفصل بين الدورين الأول والثاني.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والغرفة كانت مجهزة بما قد يحتاج إليه، من سجادة الصلاة إلى شاشة التلفزيون مرورًا بسخان كهربائي لصنع الشاي أو القهوة.

شعر أشرف براحة عميقة، تشبه إلى حد كبير شعوره القديم بالرضا، وهو يمرح وحيدًا في الغرفة الجديدة التي أطلق عليها، بينه وبين نفسه، «غرفة الاستقلال».

من غرفة استقلاله بدأ يدير حركة بيته. فرض على بثينة وجود وائل وزينب الدائم في بيت أبيهما، وقد أسعده قربه لأول مرة من ولديه، فراح يلهو معهما ويراجع معهما دروسهما ويعتني بهما كما لم يحدث من قبل، بل ووجد فيهما استعدادًا طيبًا لاستكمال أسطورة العمري. لقد شاهد فيهما صورة الحفيدين النجيبين لملك متوج هو عاصم العمري.

وفي الغرفة ذاتها سيستقبل اللواء زبادي وسيغلق عليهما الباب، وسيباغت أباه الروحي بأن يقص عليه، بصوت هو آية من آيات الصدق والثقة، قصة مرضه التي سيستحلف أباه الروحي على كتمانها.

رد سيادة اللواء على مرافعة أشرف التي كانت تقطر صدقًا قائلًا:

. يعلم الله يا أشرف أني لم أتمنَّ ابنًا سواك، وسرُّك يا ولدي في صدري ألقى به الله. أعذرك في خوفك من التشويش على مسيرتك العملية الناجحة، لديكم ثروات أعلم مقدارها، وكلها من حلال بحمد الله، فأكثروا من الصدقات، دواء المرض بالصدقات معروف ومشهور ومجرب، والحسد مرض من الأمراض، وبكل صراحة أنت أهل لكل حسد.

حمد أشرف الله في سرِّه على قدراته التمثيلية المرموقة، ثم سأل سيادة اللواء:

. كم زميلًا عرف بمرضي؟

قهقه سيادة اللواء قبل أن يجيب:



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

. يا رجل، هل هذا سؤال تسأله لأبيك وصاحبك؟ ألم تسأل نفسك لماذا أمرتك بإغلاق هاتفك لأسبوع كامل؟ عمومًا هناك ثلاثة فقط يعرفون بمرضك: أنا، لأن الهانم زوجتك اتصلت بي، ثم كان لا بد أن أعرف حتى ولو لم تتصل، ما زال لي نفوذ يا باشا؛ الاثنان الآخران هما سيادة اللواء معالي الوزير، وسيادة اللواء رئيس الجهاز، وأنا الذي أخبرتهما، وقد اجتمعت بهما وقلت لهما: «إعلان خبر مرض العمري باشا يضر به وبالجهاز، يضر به لأن الولد موهوب وكفء ويقتل نفسه في العمل، وهناك زملاء متربصون بمكانه ومكانته، يطمحون في الاستيلاء على مقعده، ويضر بالجهاز لأن الخونة سيشمتون في مرضه وسيقولون: «هذا انتقام الله»، أو قد تسول لهم أنفسهم القيام بعمل مزعج يستهدف مكانة الجهاز الذي يصيب المرض أعظم أولاده».

بصوت متهدج سأله أشرف:

. وهل اقتنع سيادتاهما بكلامك؟

ضرب اللواء كتف أشرف بقوة وهو يقول:

. لماذا تصر الليلة على الخطأ في حقي؟ طبعًا وافقاني، ولقد قام رئيس الجهاز بالهمس في آذان بعضهم قائلًا: «سيادة العقيد أشرف العمري في مهمة سرية خارج البلاد ولا أريد إزعاجه تحت أي ظرف، كما لا أريد أن تستفسروا منه بعد عودته عن أي أمر».

طبعًا همسة سيادته هي أمر واجب النفاذ، فأنت الآن، يا بطل، عائد من مهمة سرية بالخارج.

بحيرة حقيقية قال أشرف:

. كيف أرد الجميل؟

ببساطة رد اللواء زبادي:

. بالنسبة إلى الزملاء المقربين منك، فالأمر لن يكلفك أكثر من بضعة آلاف من الجنيهات، تدفعها ثمنًا لزجاجات عطر ثمين وأربطة عنق فاخرة. طبعًا كل شيء سيكون مستوردًا من أوروبا.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتلك الأشياء تكون هديتك لهم. أما معالي الوزير فهدية شفائك سيقدمها الحاج عاصم، ولتكن مثلًا شقة لابنة معاليه. أما سيادة رئيس الجهاز فأظن أن ابنه يحتاج إلى سيارة تليق بشاب دبلوماسي.

بسعادة قال أشرف:

. كل هذا سهل وميسور، ولكن...

سأله اللواء:

. ولكن ماذا؟

تردد أشرف قبل أن يغامر ويقول:

. ماذا عن حضرتك؟

ظهر الغضب ساطعًا على وجه اللواء زبادي، ثم بخبرة السنين سيطر على غضبه وقال لأشرف:

. أنا لا أرتشي ولا أقبل الرشوة لغيري، وما قلته سابقًا كان من باب هدايا رد الجميل، فكن حذرًا معي.

أسرع أشرف بالقيام، وقبَّل رأس اللواء معتذرًا وهو يقول:

. شل الله لساني إن كنت قد قصدتُ هذا المعنى. فقط أريد رد بعض جميلك.

أذهب اعتذار أشرف ما بقي في وجه اللواء من غضب فقال:

. هذا بلدنا ولن نتركه يضيع من بين أيدينا. رد جميلي يكون بأن تضع يدك في يدي لنعلم الخونة جميعًا كيف تكون الوطنية.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# 33

هذه هي الصحراء، لكن بلا ليلى. هذا هو البحر، لكن بلا ليلى. هذه هي الموسيقى، لكن بلا ليلى. هذا هو الشتاء، لكن بلا ليلى. كل جمال منها يبدأ وإليها يعود.

كل ما مضى من عمر مالك كان شوطًا، وهو الآن يبدأ شوطه الثاني والأخير.

مشكلة مالك مع شوطه الثاني أنه يدرك أن زمنه أقل من زمن شوطه الأول، كما يدرك أنه خرج من شوطه الأول وهو مهزوم برحيل والديه، وتفرق أصحابه، وهجر حبيبته الأولى وذوبانها في تعرجات الحياة والتاريخ، وزواجه من محاسن، ثم ثلاثة أولاد في رقبته.

عندما وصل إلى محطة الأولاد توقف. لقد ربحت محاسن مباراة الأولاد، وأطلق الحكم صافرة النهاية، فلا مجال للعودة إلى الملعب لتعديل النتيجة. الأولاد هم أبناء محاسن أولًا وأخيرًا. لقد نجحت في أن تجعلهم ينفرون منه مهما فعل من أجلهم، ولذا فعليه أن يقنع بدور الراعي الرسمي، بل الراعي الرسمي أرفع درجة وأعظم دورًا، فهو في النهاية، وبعد أن يعطي، يحصد مكسبًا ما.

قرر مالك أن يقنع بدور الشجرة، التي تقاوم كل الصعوبات لكي تهب الأكسجين والظل والثمر، ثم قد يقتلعونها متى ضربتها الشيخوخة، وقد يشفقون عليها فيتركون جذعها يئن وحيدًا بعد أن ينزعوا عنه أغصانه وفروعه.

ليس على البحر سوى مالك وأولاده وزوجته. برد ديسمبر يفرض على الناس البقاء في البيوت أو المقاهي، ولكنه مالك المجنون، مالك الذي ضرب الشيب رأسه ولكنه لم يقترب من روحه، مالك الذي أراد الفرار إلى صحراء من كل الجهات فطعنته محاسن وفرضت وجودها عليه.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أولاده شباب، والشباب مخلوق لكي يكسر طوق المألوف. لقد نزل الشباب إلى البحر، سابحين في برد ديسمبر، يصله صياحهم المبشر بدفء الماء، يرى أجسادهم الفتية اللامعة، تغزوه بهجتهم، لم يكن يومًا مبتهجًا، لقد ولد موشومًا بالحزن والفقد واليتم.

أشعل سيجارة جديدة وصب لنفسه كوب شاي من «الثُرمس» وراح يراقب محاسن الجالسة على بعد خطوات منه.

رآها كما عهدها في السنوات الأخيرة، آية من آيات التعاسة، تعطيه ظهرها وتعطي البحر الذي يسبح فيه أولادها جانبها. لا تستقبل البهجة ولا تستدبرها، تريد إطلالة على الجميع دون أن تعطيهم وجهها. تريد الحياة من موقع الجاسوس، لا من موقع المشارك.

أي مقارنة بينها وبين ليلى، بل بينها وبين أي امرأة أخرى، هي مقارنة خاسرة إن لم تكن عبثية.

مالك يتعرض لرذاذ البحر ويُوده، فتصفو رؤيته ويحمد الله أن محاسن قد فرضت نفسها على رحلة هروبه. إنه يراها الآن بعين جديدة، عين محايدة، ليس بها إشفاق ولا جلد لذاته ولا شعوره الدائم بالذنب. كل ما في الموضوع أنه أراد امرأة هادئة تمنح حياته الهدوء، الهدوء فقط. هو لم يطمع في الحب أو العشق أو السكينة أو غيرها من المشاعر التي تبدو، من فرط بعدها وابتعادها عن حياته، مشاعر مرفهة لا يطمح إليها سوى القلة المترفة.

حتى الهدوء هو لم يحصل عليه، لقد فاز بنصيب الأسد من الصخب والضجيج والنكد وتعكر المزاج.

همَّ بالذهاب إلى حيث تجلس لكي يعرف منها إجابة عن سؤال واحد: «لماذا أنتِ هنا يا سيدتي؟».

قبل أن يقوم إليها، باغتته بواحد من أفعالها المبتكرة.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت قد شعرت بالبرد، وهي معذورة في شعورها لأن الجو بارد فعلًا، ولكي تشعر بالدفء كان أمامها ثلاثة خيارات: الأول أن تعود إلى الشقة؛ الثاني أن تبتعد عن الشاطئ قدر الإمكان، بحيث تستمتع بالنظر إلى البحر ومن ثم لا تفتقد أولادها الذين ترعاهم بربع عين؛ الثالث أن ترتدي معطفها الثقيل وتزيد عليه أن تضع شالها الصوفي فوق كتفيها.

ولكن، لأنها امرأة تبتكر الدمامة والقبح ابتكارًا، فقد رآها مالك وهي تفعل شيئًا لا يخطر على قلب شيطان القبح نفسه.

رآها تقف. وعيناها في عينيه. وترفع عنها البلوزة التي لم تغيرها منذ ثلاثة أيام، ثم ترفع جاكت البيجامة الذي تلبسه تحت البلوزة، ثم ترفع ثلاث قطع من الملابس الداخلية عجيبة الشأن التي تلبسها تحت الجاكت والبلوزة، وتكشف عن بطنها المترهل، ثم تتناول بشكيرًا وتكوره حول بطنها، ثم تعيد إسدال ملابسها فوق جسدها.

مشهد كهذا يكسر فحولة أشد الرجال فحولة. ما هذه المرأة التي لا تخجل من كونها مجرد ثمرة كرنب؟

ابتسم مالك لنفسه وهو يُجري واحدة من مقارناته بين المرأة الكرنبة والمرأة اليوسفية. المرأة اليوسفية هي مثل ثمرة اليوسفي، قشرتها رقيقة جميلة لها إطلالتها ومذاقها، وما إن تنزع القشرة الطيبة حتى تجد نفسك وجهًا لوجه أمام اللحم الطيب المتماسك ذي النكهة الذكية والمذاق الخاص. أما المرأة الكرنبة فقشرتها طبقات بعضها فوق بعض، تظل تقشر طبقة بعد أخرى لكي تصل في النهاية إلى اللاشيء.

اتسعت ابتسامة مالك وهو يؤكد أن الكرنبة أشهى مذاقًا وأطيب رائحة من محاسن.

قام إليها فلم تفاجأ بوقوفه على رأسها، فهي تراقبه منذ الصباح الباكر. سحب مقعدًا وأشعل سيجارة ثم سألها بهدوء كهدوئها، به من الموت أكثر مما به من الهدوء:



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

. لماذا السيدة هنا؟

محاسن، التي تعرف مالك جيدًا، لم تتوقع أن يكون هادئًا هكذا، وهو يلقي عليها سؤاله الجارح. ارتبكت قليلًا ثم قالت:

ـ اطمئن، أنا لم أعد أغار عليك، والذي أخذته منك القرعاء ستأخذه غيرها من ذوات الشعور الطويلة اللامعة، تحب أنت الشعر الطويل اللامع.

قاطعها قبل أن تسترسل في سخافتها قائلًا:

. هذه ليست إجابة عن سؤالي.

ردتْ محاسن:

. لقد جئت لحماية أولادي.

بتلقائية ضحك مالك حتى دمعتْ عيناه ثم قال:

. أولادك؟ الكذب هو منهجك الوحيد. ما علينا، أنتِ جئتِ لكي لا أنفرد بغيرك، هذا هو خيالك المريض الذي به دمرتِ حياتكِ قبل أن تدمري حياتي. كُفي لحظة واحدة عن تجسسك عليَّ، خذي راحة ولو لساعة، ثم ما هذا البشكير الذي تكورينه حول بطنك؟ الجو بارد، فاذهبي إلى الشقة أو إلى أي جحيم تريدين، لم أعد أطيق الصبر على كل هذه الدمامة. عندما أعود إلى القاهرة سأكشط عن جلدي كل وسخ علق بي.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# 34

قبل الكارثة كان ليل أشرف كنهاره، ونهاره كليله، الرضا يشمل بحنان ولطف ساعات يومه. ولكن بعد وقوع الواقعة بدأ أشرف يتوق توقًا إلى طلوع الشمس. كان يختبئ في نهاره المزدحم بالمسؤوليات ـ التي أصبح يلقي مزيدًا منها على كتفيه ـ من ليله البغيض.

الليل يعني بثينة ومهرجانات السرير، وبثينة لم تعد هناك ولم يعد سريرها سريره. إذن فليهرب إلى النهار، حيث هو أشرف باشا العمري، الآمر الناهي، رجل الأمن اليقظ الناجح الثري الطويل العريض الوسيم الأبيض الأنيق، والابن الوحيد للحاج عاصم العمري.

لا بثينة ولا أي مخلوق على ظهر الأرض سيعرف محنة ليله البغيض، ليله الفارغ من أي معنى، ليله المرادف للخواء بل للعدم ذاته، ليله الذي يبدأ من لحظة عودته إلى بيته، حتى لو كانت العودة في ساعة العصر أو الظهر. مع دخوله إلى البيت تواجهه كارثته بكل تفاصيلها الثقيلة.

سيفه مات ميتة الأبد ولا أمل في عودته إلى الحياة. قبل أن يتلاشى أمله كان أشرف باشا قد جرب أرقى أنواع المنشطات التي جلبها بنفوذه من قلب أوروبا. ثم لما لم تفلح المنشطات صنع ما لم يصنعه من قبل، راح يتابع الأفلام الإباحية التي تبثها الفضائيات. ولكنه، بعد مشاهدة عدة أفلام، انصرف عن المشاهدة التي كانت تذكره بالسيوف القاطعة، سيوف رجال تلك الأفلام تطعنه في سويداء قلبه، تجسد له الكارثة تجسيدًا لا مهرب ولا مفر منه. الأفلام تقول له بأعلى صوتها: «لاحظ الفرق بين السيف وبين قطعة جلد ميتة».

فشلت المنشطات والأفلام، فبدأ يطور هجومه بأن راح يلف بسيارته في قلب الشوارع ويترك عينيه تفترسان أرداف النساء ونهودهن، فلعل استثارة ما تحدث.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كل الرسائل التي ترسلها رجرجة الأرداف واهتزازات النهود لا تصل إلى سيفه. لقد أصبح سيفًا أميًّا لا يعرف القراءة ولا الكتابة، فضلًا عن كون الرسائل مشفرة أصلًا لا يعرف فك شفرتها سوى الحي اليقظ، وسيفه ميت.

على الرغم من فشل العلاج ثلاثي المراحل، لم يفكر أشرف في اللجوء إلى طبيب أو عاهرة. هو لن يقع في خانة الفضائح، كما لن يقع في فخ الفاحشة. هو أشرف الشريف الرفيع، الذي لن يسمح لنفسه بالوقوع في المستنقعات.

لقد أنفق كل حيله لكي يمضي كل هذا الليل. أغرق نفسه في العمل نهارًا وليلًا. بدأ يرتاد الفنادق حيث جلسات النميمة لعلية القوم. بدأ يكثر من زيارة أبيه وأمه. بدأ يكثر من الصلاة والتعبد في المساجد شبه المهجورة. فعل كل شيء، ثم لم يمضِ الليل.

بثينة، التي قتلت القتيل ثم سارت باكية في جنازته، على بعد إصبع منه، يشتهي لو اغتصبها. يكسر أنفها ويذل رقبتها، يغتصبها من دبرها ثم يقوم عنها ويتركها مهانة وقد غطى الدم والغائط فخذيها وملاءة سريرها.

ولكن بأي شيء سيغتصبها، وهو صاحب جلدة ميتة وليس صاحب سيف قاطع؟

بنت الكلاب تعامله برقة وحنان لا نظير لهما، تسارع بتلبية أدني إشارة منه، لا تجعله يقبض عليها متلبسة بأدنى تجاهل أو إهمال أو تكاسل. معاملتها، التي هي معاملة أم لطفلها المريض، تجننه. هو ليس مريضًا وهي ليست أمه. عندما يعود كما كان، سيغتصبها.

ولكن إلى أن يحدث هذا. وهو حادث لا محالة، فليس أشرف العمري مَن يموت سيفه. يجب عليه أن يبدأ حفلات مذلتها.

في الثانية من بعد منتصف إحدى الليالي، تناول أشرف هاتفه المحمول واتصل من حيث يجلس في غرفة الاستقلال ببثينة.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يتصل حتى جاءه صوتها مرتجفًا وهي تقول:

. أشرف حبيبي، نعم، هل هناك شيء؟

بهدوء رد أشرف:

. اهبطي فورًا.

قالها وأنهى المكالمة. قالها ليوقع بثينة في واحدة من دوامات عمرها. هو لم يعلم أنها ارتجفت ثم تماسكت مستبشرة خيرًا وقالت في نفسها: «ولمَ لا؟ قد يكون أشرف قد عاد ويريدني».

بسرعة البرق تجهزت، غسلت وجهها بماء بارد وغسلت فمها جيدًا بماء النعناع والورد، ورتبت شعرها، ووضعت الروب الأحمر الشفاف فوق قميص النوم، وهبطت السلم وهي تدعو الله أن تكون الغمامة قد انصرفت عن بيتها وعنها وعن زوجها.

استقبل أشرف بثينة مرتديًا ملابسه الكاملة لا ينقصها سوى رباط العنق. كان قد وضع مقعدًا صغيرًا أمام مكتب جلس هو خلفه على المقعد العريض.

ارتجفت بثينة عندما رأت أشرف يجلس هذه الجلسة الغارقة في الرسمية، ثم زاد ارتجافها حتى شملها عندما رأت على سطح المكتب أوراقًا وأقلامًا. هل هي في تحقيق أمام حضرة الضابط؟

تماسكت بثينة وألقت على أشرف التحية:

. مساء الخير يا حبيبي. خير؟ هل تريدني في شيء؟

رد أشرف باقتضاب:

. مساء النور.

جرحها أنه لم يقل لها: «يا حبيبتي». تجاهلت الجرح الجديد ونظرت حولها، لعله يدعوها للجلوس.

بطرف عينه نظر إليها أشرف، فزاده مظهرها حقدًا على حقد. قال في نفسه: «ما هذه المرأة الجاهزة للمضاجعة على مدار الساعة؟»

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وجهها نظيف وشعرها مرجل، ولا تفوح منها رائحة النوم. أي امرأة هذه؟».

طال وقوف بثينة فقررت الجلوس على حافة السرير الصغير، وليكن ما يكون.

غمغم أشرف قائلًا من بين أسنانه:

. اجلسي هنا على هذا المقعد.

أمره اليقيني قطع شكها. نعم هي في تحقيق أمام حضرة الضابط. قامت ملبية، وجلست على حافة المقعد منكسة الرأس.

منظرها أعجب أشرف الذي رجع بظهره إلى الوراء بحركة تدل على ثقته بنفسه واستهانته بالذي يواجهه، ثم قال لبثينة:

. سنتحاسب.

لطمتها الكلمة ولكنها رددت:

ـ أنا تحت أمرك، وأي خطأ أكون قد ارتكبته دون قصد طبعًا عاقبني عليه كما تريد.

مثل تلك الجملة كانت تليِّن مفاصل غضب أشرف فيما مضى، أما الآن، وهو يرى امرأة مهجورة تتجهز للمضاجعة في لحظات، فقد رماها بنظرة ولم يعقب.

سكوت أشرف أتاح لبثينة أن تقامر بمواصلة الكلام:

. حبيبي، أنا كنت أنتظر بل أتمنى هذه الجلسة منذ عودتك سالمًا بحمد الله من المستشفى. حبيبي، أنت مبتعد عني دون سبب ولا مبرر، تمر الأيام والليالي وأنا أبحث عن خطأ أكون قد وقعت فيه. قلت لك سابقًا وسأقولها دائمًا وبكل فخر: أنا جارية سيدي فعذبني بما شئت غير البعد عنك.

تأملها أشرف فوجدها كالصادقة، وجهها محتقن وعروق رقبتها نافرة، ولكن هذا لا يتناسب مع هيئتها وجمالها وتجهزها



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

للمضاجعة.

قال أشرف:

. لن أسمح لك أو لغيرك بأن يرتكب في حقي خطأ ولو كان عابرًا. لا أخطاء هناك، هذه جلسة حساب.

قاطعته بثينة قائلة:

. اسمح لي أن أسألك قبل أن تسألني: لماذا هجرتني؟ لا أصدق أنك متعب. أنت تعمل النهار بطوله ومعظم الليل، فأين التعب؟ ثم أنت تلاعب الأولاد وتنزههم وتذاكر معهم، فأين التعب؟ أرجوك أرحني، أعصابي مدمرة، لم أعد أحتمل هجرك لي، لقد أصبحت أخاف من كل شيء، حتى الحديث مع أمي أو ماما زينب. إن كنت قد كرهتني لسبب لا أعرفه فقله لي لكي أستريح، إن كنت تنوي طلاقي فطلقني، وسأعيش خادمة لك ولأولادك.

أشرف لم يقاطع بثينة لأنها هي التي سكتت، أو بالأحرى أسكتتها دموعها، التي راحت تغرق خديها.

بكت بثينة كثيرًا إلى أن أمرها أشرف:

. قومي فاغسلي وجهك وعودي.

قامت بثينة متخبطة، وبعد انصرافها تأمل أشرف الموقف كله، فلم يجد في نفسه ذرة إشفاق عليها، بل لم يسترح لدموعها وتوسلاتها. أشرف يريد أن يكون كلامه سببًا لدموعها، لا أن تبكي هي كما تبكي كل النساء لأتفه الأسباب. يريد أن يكون حسابه سببًا لتوسلها، لا أن تتوسل كما يفعل الشحاذون. يريد أن يهينها هو بنفسه، لا أن تهين هي نفسها.

عندما عادت بثينة من الحمَّام، كان أشرف قد أعد لنفسه فنجان قهوة، فنجانًا واحدًا لا اثنين، فالجلسة ليست جلسة مؤانسة، هي جلسة حساب.

رشف من فنجانه رشفة هائلة ثم قال:



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

. أريد الآن أن أعرف، بالقرش والجنيه، أين ذهبت العطايا التي تكرمتُ وأهلي بها عليكِ.

اختار أشرف كلمتي «عطايا» و«تكرمتُ» بدقة، وعرف أنهما قد أوجعتا بثينة عندما رأى تقلص وجهها فور سماعها لهما. تقلص وجهها أراحه بعض الشيء، وجعله يرشف الرشفة الثانية من فنجان قهوته بتلذذ كبير.

لم يعرف أشرف أن بثينة كانت ستقلب الطاولة، لقد فكرت في قلب الطاولة في لحظة لا يمكن قياسها بوحدات قياس الزمن المتعارف عليها، إنها واحدة من اللحظات التي لا تستغرق وقتًا ولكنها كافية لتخريب كون كامل. لم يعرف أشرف أن تقلص وجهها لا يرجع لسماعها كلمتيه الجارحتين، وإنما مرده لتراجعها عن تنمر كانت تستعد له. لقد تراجعت لتربح في النهاية.

مجددًا عاد صوت أشرف واضحًا وهو يقول لها:

. ليلتنا لن تنتهي سوى بمعرفتي لحساب الثروة، ووفق حساباتي وبعد مراجعة أوراقي، فقد وصل إلى يدك ما مجمله سبعة ملايين وخمسمائة ألف جنيه.

بثقة ردتْ بثينة:

ـ حسابات معاليك خاطئة، فقد وصلتني ثمانية ملايين ومائة وخمسون ألفًا وتسعمائة وأربعون جنيهًا.

نبرة الثقة التي ردت بها لم ترق لأشرف، ولكنه تجاهلها وواصل:

. أين ذهبت؟ أحذرك من أن تظني أنني سأنزع منك شيئًا، أنا أريد المعرفة وليس أكثر.

بثقة أشد أجابت بثينة:

. لو أردت المال فهو من عطاياك وعطايا أهلك الذين هم أهلي، وهو حقك لا جدال في ذلك. ولكي تدقق حضرتك حساباتك فالمال على نوعين: عطايا من مختلف أنواع المجوهرات، وثمنها



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يقترب من الثلاثة ملايين جنيه، وكل المجوهرات موجودة في دولاب ملابسي، وعندما تأمرني بأن أضعها تحت قدميك فلن أتأخر في تلبية أمرك...

طريقتها الواثقة في الرد لم تعجبه، ولكنه لم ييأس من محاولة إذلالها فقال لها:

ـ أحدث شيك وصلك من أبي كان بأربعمائة ألف جنيه، فأين تبخرت تلك الأموال؟

ردت وعيناها إلى الأرض، وكانت حريصة على أن يكون صوتها خفيضًا بحيث لا يصل لسمعه إلا متوسلًا ذليلًا، فقالت:

ـ أموالك لم تتبخر بل تتكاثر، أنا أعطي عطاياك وعطايا أهلك لأبي لكي يستثمرها في شركته، والأسهم هي باسم وائل وزينب، وحصتهما الآن في رأس مال شركة أبي تقترب من أن تكون الربع. لو أردت الآن فض الشراكة فسأفعل فورًا ولن يكلفني الأمر سوى اتصال بسيط بأبي.

بعد أن نشرت أمامه حساباتها، تأكد أشرف من أنه سيفشل الليلة في إذلالها، فقال في نفسه: «الليالي القادمات كثيرة». ثم قال لها:

ـ الآن قومي وعودي إلى غرفتك وسنكمل حديثنا فيما بعد.

في المسافة الفاصلة بين غرفة أشرف الجديدة وغرفة النوم، كان وجه بثينة، بل جسدها كله، يحتفل بنصرها الحاسم في موقعة الحساب.

عندما قطعت السلم وصولًا إلى غرفة نومها، كانت قد تخلصت من عذابها الذي تواصل على مدار شهر مضى. الآن حصحص الحق، لقد تأكدت أن الباشا أصبح معطوبًا. لقد ربته على يديها وهي أخبر الناس به. الباشا لا يعاقبها بالهجر، إنه يتهرب منها لكي لا يفضح نفسه. إنه الآن هو الذليل المهان.

جلست على طرف سريرها العريض وهي في غاية الرضا عن نفسها، معها الأولاد وسيرتها وسيرة أهلها الطيبة، ومعها الزوج

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المرموق، ومعها الملايين، ولو خذلها جسدها ذات يوم وعوى طالبًا الشبع فحتمًا ستجد ألفًا يتطوعون بإشباعه.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# 35

عندما عاد مالك من رحلة مطروح، اكتشف خطأ حساباته، إذ أدرك أنه لا يعيش شوطه الثاني، بل يعيش الدقائق العشر الأخيرة منه. لحظة إدراكه هذه كانت مفجعة، ولكنه واجهها بطريقة لم تخطر له هو على بال من قبل. قديمًا كان يواجه الفواجع بالانهيار أو التبلد، ولكن الدقائق العشر الأخيرة لا تسمح له بترف الانهيار أو رفاهية التبلد. إنها تحتم عليه خروجًا كاملًا عن سياقه العام.

التقى في الجامعة كعادته بصديقه جاد، وقصَّ عليه طرفًا من أخبار رحلته، ثم سأله بغتة:

. هل تدبر لي بيتًا نظيفًا أمضي فيه الدقائق العشر الأخيرة من عمري؟

وجه مالك كان مسكينًا جدًّا وصادقًا جدًّا، كوجه طفل مريض، ولذا سارع جاد واحتضنه، مشفقًا عليه، وقال:

. هل فكرتَ في قرارك هذا جيدًا؟ أحذرك من عاقبة الوحدة.

رد مالك وهو لا يزال في حضن جاد:

. الوحدة لها معنى، أما بقائي مع محاسن فهو العبث ذاته ولا معنى للعبث.

أفلت جاد مالك من حضنه وقال مبتسمًا:

. لي ابن خال . الحقيقة هو ابن خال أمي، لا دخل لك بأنساب عـائلتنا المعقـدة . المـهم، قـريبي هـذا، وعلـى الـرغم مـن ثروتـه الخرافية، يحبني هكذا بلا سبب. الرجل يتنقل بين عواصم العالم ليلعب في البورصة أو السياحة أو يلعب بالثلاث ورقات، أنا لا أشغل نفسي بسيرته. منذ سنتين، ترك لي مفتاح فيلَّا له في منيل شـيحة، لكـي أقـوم مـرة كـل شـهرين بـالاطمئنان عليـها . عـادات الأغنياء يا سيدي، ما علينا. ستقيم أنت بالفيلَّا حتى يدبر الله الأمر. كن مطمئنًا، قريبي عندما يزور القاهرة يسكن الفنادق، يعني



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لن تراه ولن يراك.

صعد مالك إلى سيارة جاد، وعادا إلى بيته لكي يأتي بملابسه.

في الطريق، كان جاد خائفًا من الكلام فلزم الصمت، وكان مالك قد قرر أن يشغل نفسه بالاستغفار، لأنه لم يكن يريد لمالك القديم أن يصحو وأن يحاكم ويحاسب.

دخل البيت فلم يجد أحدًا. لم يدهشه غياب الأولاد، فهذا وقت دراسة. أدهشه غياب محاسن. ألقى نظرة على الطاولة التي أمام التلفزيون، فرأى ورقة منزوعة بإهمال من كراسة قديمة، تناولها فرأى بها دائرة رسمها قعر كوب شاي، ووجد يد محاسن وقد كتبت بقلم رصاص باهت: «أزور أمي ولن أعود قبل التاسعة مساء».

تصرف كهذا كان يغيظ مالك القديم، الذي حتمًا كان سيتوقف عند طريقة نزع الورقة من الكراسة، وعند اتساخها، وعند الخط الباهت، وعند الكلام المقتضب، وعند...

ولكن مالك الجديد، الذي سيحرر نفسه بعد دقائق، جلس هادئًا وأشعل سيجارة وشذب بأناقة أطراف الورقة، ثم أخرج من جيبه قلمًا وكتب أسفل رسالة محاسن: «الخلاص يوم الاثنين العشرون من ديسمبر ٢٠١٠».

ثم طبق الورقة بعناية فائقة ووضعها في حافظة نقوده ودخل إلى غرفة نومه.

خلال ربع ساعة فقط، كان قد جمع كل ملابسه وأشيائه الخاصة، ودواوين المتنبي وابن زيدون وأمل دنقل ومحمود درويش، والمصحف ذا الغلاف الأزرق هدية أمه إليه عندما حصل على الثانوية العامة، ووضع كل ذلك في الحقائب، ثم تناول مظروفًا أنيقًا ووضع بداخله مالًا قدر أنه يكفي لإعاشة الأسرة لثلاثة أشهر، أغلق المظروف وكتب على غلافه بخطه الأنيق: «إلى الأولاد وأمهم».



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وضع المظروف فوق الطاولة، ولم يلقِ نظرة أخيرة على بيته، وسارع بمغادرته.

دخل إلى الفيلَّا بصحبة جاد، وتركه يرتب له ملابسه وأشياءه، وتفرغ هو لمعاينة الفيلَّا.

وجدها جيدة جدًّا وغاية في اللطف: فيلَّا من طابق واحد، لها حديقة ليست في أصالة وعراقة حديقة فيلَّا جاد، ولكن يكفي أن بها شجرة تمر حنة وشجرة ليمون. تذكر افتتانه بزهر الليمون فابتسم في مرارة صافية. ها هي الشجرة أمامه ولكنها ليست من ممتلكاته، كأن شجرة الليمون هي ليلى وكأن ليلى هي شجرة الليمون. قال لنفسه: «أشياؤك تأتي في الزمن الضائع يا صاحبي، وحتى عندما تأتي لا تكون على الوجه الذي تريده وحلمت به».

انتبه على صوت جاد صائحًا:

. مولانا أين أنت؟

عاد من جولة الحديقة ودخل الفيلَّا وتفقدها مع جاد، فوجدها مجهزة كأحسن ما يكون التجهيز لإعاشة أسرة كاملة وليس لإعاشة فرد واحد وحيد.

لاحظ بعض التراب المتراكم في الزوايا وفوق المفروشات، وقبل أن يفتح فمه، رد عليه جاد:

. لا تخف، لقد هاتفت العم عبد الستار، وهو بارع في التنظيف وفي رعاية الحديقة. سيأتي بعد قليل، وستعطيه هذه المرة مائتي جنيه، ثم يأتيك مرة في الأسبوع مقابل خمسين جنيهًا فقط. لا تتكلم أنا أحرص منك على عدم معرفة مخلوق بوجودك هنا، لا أستطيع تعريض نفسي لدعاء محاسن.

في العاشرة من ليل الاثنين ذاته، كانت الفيلَّا قد أصبحت غاية في النظافة، وكان مالك قد اغتسل وتناول عشاءه وجلس ينتظر مكالمة أو رسالة من محاسن أو أولاده بقصد الاطمئنان عليه أو لمجرد السؤال.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان يعرف أن شيئًا من هذا لن يحدث، فقام واغتسل ثانية، ودخل إلى المطبخ النظيف المرتب اللامع، فتذكر مطبخ محاسن حيث تترك الأواني ببقايا الطعام أسفل الحوض فتنمو على سطحها فطريات تبدأ خضراء ثم يصبح لونها رماديًّا، سرعان ما يتحول إلى الأسود العفن.

سارع بإعداد القهوة وغادر المطبخ لكي لا يتوغل في طريق الذكريات السوداء.

السرير عريض نظيف وثير، ولكن النوم هارب.

قام لفَّ جسده بعباءة وخرج إلى الشرفة الباردة. الليل صامت، والسحاب الأسود يخنق قمرًا صغيرًا.

سمع أصوات شباب فارتجف فرحًا وقال لنفسه: «ها هم أولادي جاءوا إليَّ».

حدق في الظلام فلم يرَ شيئًا، فقال: «وكيف سيعرف أولادي أنني هنا؟».

ثم ما لبث أن أجاب عن سؤاله: «كان من اليسير عليهم أن يتصلوا بي لو كان أمري يهمهم في شيء».

اتهم نفسه بأنه يختلق أصوات الشباب، فلا أحد في الشارع الصامت. ولكن بعد قليل مر أسفل الشرفة أربعة شباب يتضاحكون ويتجادلون، فسارع بالعودة إلى غرفة النوم وألقى بنفسه على السرير وانفجر في البكاء.

مرت أربعة أيام على مالك منذ يوم خلاصه، يذهب صباحًا إلى الجامعة ويكذب على جاد ويطمئنه على نفسه، ثم يعود إلى وحدته وفراغ كونه ينتظر مكالمة من محاسن أو الأولاد. ثم يضنيه الانتظار فيرى نفسه عجوزًا تافهًا لم يحقق في حياته أي إنجاز كان، ولكي لا تقتله تفاهته، يقوم إلى اللاب توب ويسجل دقائق يومه وليلته، وينهي الكتابة بأن يسب محاسن ورائحتها. ثم يهم بمهاتفة ليلى ولكنه يتراجع، فماذا سيقول لها؟



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كل ليلة قبل النوم كان يندم على أنه لم يجرب تعاطي المخدرات، فما أجمل الذهاب في غيبوبة المخدر حتى يأتي النوم الذي لا يأتي إلا بعد البكاء المر!



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يوم مغادرة مالك بيته لم تكن محاسن تزور أمها كما كتبت له. الحقيقة أنها كانت تزور شيختها، الشيخة أزهار. وهي لم تخبر زوجها بزيارة شيختها، ليس لأنها حريصة على عدم مضايقته بذكر أزهار أمامه، ولكن لكي يفهم أن لها أهلًا تزورهم ويزورونها وليست مثله مقطوعة من شجرة، ولكي يفهم أنه ليس الوحيد الموجود في حياتها.

دخلت محاسن إلى بيتها بعد مغادرة مالك بنصف ساعة فقط. رأت المظروف، لم تهتم بقراءة ما على غلافه، سارعت بفتحه فوجدت مالًا كثيرًا.

ضحكتْ ساخرة من سذاجتها. لقد اقتنعت بأنه فقير، وها هو ساعة الجد يترك مالًا يكفي لشهور، فمن أين جاء به؟

مخادع حقير، له هيئة وغباء خنزير وله دهاء الثعالب. صدقتْ الشيخة أزهار عندما قالت لها: «نحن نتقرب إلى الله بتحمُّل هؤلاء الأوغاد زائغي العيون».

وضعت محاسن المظروف في حقيبة يدها وزفرت في راحة.

قالت للأولاد بعد عودتهم من الجامعة والمدارس إن أباهم سافر إلى الوادي الجديد في عمل وسيعود قريبًا.

في ليلتها الأولى تمتعت بانفرادها بالسرير. جثته ليست بجوارها، لا تسمع همهمته الغاضبة دائمًا، لا تشعر بتقلباته أثناء نومه. لقد ذهب والأحسن ألا يعود ثانية. ذهب ولن تعود تشعر بعينيه تخترقان بطنها المترهل. لن تسمع بعد اليوم تعليقاته السخيفة السمجة حول النظافة والروائح. لن يقلقها صمته ولن يشغلها كلامه. لقد ذهب والأحسن ألا يعود.

بعد ثلاثة أيام، ذهبت راحتها وضربها القلق، ليس قلقًا على مالك ولكنه القلق من استهانته بها. إنه يهجرها كأنها سيجارة انتهى من تدخينها.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مَن مالك هذا حتى يركل عابدة زاهدة ورعة تقية مثلها؟

نعم، هو ليس له من الطيب نصيب، ولكن لا بد أن يعود لها صاغرًا ثم تركله هي.

إنها تشعر بأسئلة تطل من عيون أولادها ومن تطفل الجيران.

ذهبت بقلقها إلى أمها التي قالت لها:

. هو كلب سيعضه الجوع ويعضه ما بين فخذيه فيعود لك سريعًا.

لم تقتنع بكلام أمها، فهي إن كانت توافقها على أن مالك أحقر من أحقر الكلاب، ولكنها تعلم أنه يصبر على الجوع صبر الجِمال على العطش، أما ما بين فخذيه فلن يعضه أبدًا، لأنه لم يقربها منذ سنة مضت، ثم لديه عاشقات فوق الحصر.

غادرت أمها إلى شيختها التي قالت لها:

. الوفاء لأهل الغدر خيانة، لا أحرضك . لا قدر الله . على اقتراف معصية، ولكن اصنعي شيئًا يجعله يندم على هجره لبيته وتخليه عن مسؤولياته الشرعية.

عادت محاسن إلى البيت فلم تجد الأولاد قد عادوا، فحمدت الله على نعمة الفراغ. همت أن تتصل به وتوبخه ولكنها تراجعت، لا بد أن تصنع الشيء المزلزل، الشيء الذي يلقنه درسًا لا ينساه. ولكن ما هو هذا الشيء الذي أشارت إليه شيختها؟

اتسعت ابتسامتها وشعرت بنصر الله يقترب فتلت: «أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ».

رضيت عن ذكائها الذي جعلها حريصة على أن تنسخ ذاكرة هاتفه المحمول باستمرار. هي على مدار سنوات لم تترك مكالمة ولا رسالة صادرة من هاتفه أو واصلة إليه إلا نسختها، لم يفتها سوى المكالمات أو الرسائل التي كان يتخلص منها، كما يتخلص المجرم من آثار جريمته. «الله ما أطيب قلبك يا محاسن». هكذا قالت لنفسها وهي تتربع على الأريكة وأمامها كوب الشاي الذي حرصت



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على أن يكون بدون نعناع لكي تكسر عاداته السخيفة.

تناولت هاتفها وخشيت للحظة أن يكون الوضيع قد تلصص عليه ومحا نسختها ـ لو كان قد فعلها فستكون الكارثة الكبرى، دخلت إلى ذاكرة هاتفها فوجدتها سليمة لم يمسسها سوء، قالت لنفسها: «كِبْره منعه من التجسس على هاتفي فليذهب وكِبْره إلى الجحيم، وصدق رسولنا الكريم الذي قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة خردل من كبر، ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان»».

مالك في النار لأن حشو جوفه كبر وغطرسة، ولن يشم ريح الجنة لأنه ليس مؤمنًا، فلا يجتمع إيمان بزنى.

بدأت بالذين لا تعرفهم من تلاميذه وزملائه ومعارفه. كانت تقص على الواحد منهم، باختصار ليس مخلًّا وبإطالة ليست مملة، مطاردة زوجها للنساء وهجره لبيته وفشله في تحمل مسؤوليات أولاده، ثم تلتقط أنفاسها وتناشد الواحد منهم مساعدتها في العثور عليه.

ظلت هكذا تنتقل من هاتف إلى آخر حتى استهلكت ساعتين في الكلام والمناشدة. ثم ختمت بجاد الديوث زوج العاهرة، الذي رد عليها بهدوئه القاتل:

ـ تعقلي يا أم أحمد، هذه الفضيحة ستعقد الأمور ولن تحلها، زوجك يأتي إلى الجامعة كل يوم ويمكنك والأولاد رؤيته والحديث إليه متى أردتم.

كانت تعلم أن الديوث لن يسمح لها بمهاجمة رفيقه، فرأت أن تطعنه ولو طعنة خفيفة فقالت له:

ـ بلِّغ نادية نصيحتي لها وهي حديث شريف: «أيما امرأة استعطرت فمرت على قوم ليجدوا ريحها، فهي زانية».

وصلتها بوضوح قهقهة جاد، ثم سمعته وهو يرد عليها:

ـ لقد صبر مالك على ما لم يصبر عليه أيوب.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قال الملعون جملته ثم أغلق الخط في وجهها فشقها الغيظ نصفين.

كان رهان محاسن الرئيسي يقوم على أن مالك لن يحتمل الغياب لأكثر من خمسة أيام، ثم سينهار ويعود عاويًا وذيله بين قدميه ككلب ذليل. ولكن رهانها سقط عندما مرت ستة أيام بلياليها ومالك لا يعود ولا يتصل.

جاءها الفرج عندما اجتمع أولادها حولها وقال عصام دون خوف أو تلعثم:

. ماما، نحن نعرف المشاكل التي بينك وبين بابا، ولكن لا بد أن نتصل به.

هز أحمد وهدى رأسيهما موافقين على كلام عصام. فرحت محاسن أن المكالمة لن تكون منها، فهي الآن في لعبة عض الأصابع مع المخادع الحقير.

تناول أحمد هاتفه واتصل بأبيه الذي رد عليه قائلًا:

ـ أخيرًا تذكرتم أن أباكم غائب؟ ما علينا، اسمعني جيدًا. لقد خرجت ولن أعود وسأتحمل مصاريفكم حتى حصولكم على شهاداتكم. حافظوا لي على مكتبتي وسأعود يومًا لآخذها. لا تسألوا عني أمكم فهي حقًّا لا تعرف أين أقيم. من أراد منكم رؤيتي فأهلًا به في الجامعة.

كان صوت مالك واضحًا فسمعوه جميعًا. نظرت محاسن بعد انتهاء المكالمة إلى أولادها وصاحت في وجوههم بكل غضب سنوات عمرها الماضية:

. هل جاءكم كلامي؟ لقد باعكم من أجل عاهرة من عاهراته، وبعد قليل لن يصرف عليكم قرشًا واحدًا، إما أن يعود غدًا أو لا أسمع باسمه في بيتي.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت فصائل المعارضة وشخصياتها الرئيسية قد أسست برلمانًا موازيًا لبرلمان مبارك المزور، وسريعًا جاءهم الرد من حسني مبارك، الذي قال في افتتاحه لجلسات برلمانه، مشيرًا إلى برلمان المعارضين:

. خليهم يتسلوا.

وكانت ليلى قد قطعت كل حبال الشك بكل سيوف اليقين، لقد تأكدت، وبشكل نهائي، أن مالك هو حبيبها وليس بديلًا مأمونًا لأب غاب ولن يعود، وتأكدت أن عملها السياسي ليس ترفًا كما أنه ليس هروبًا. لقد رفعت بينها وبين نفسها شعارًا يقول: «هذا الشعب الصابر الطيب يستحق التضحية». وعندما وقفت تحت راية شعارها، تمنت بملء قلبها لو كان مالك الحبيب معها.

انتظرت ليلى مجيء يوم الاثنين السابع والعشرين من ديسمبر ٢٠١٠ على أحر من الجمر، وعندما جاء، قابلت صباحه ببهجة رأت أمها علاماتها في وجهها، فابتسمت واحدة من ابتساماتها الجميلة وقالت لابنتها:

. قلبي وربي راضيان عنك.

انطلقت ليلى إلى عملها، مصحوبة ببهجتها السرية، فهي ستلتقي بمالك بعد طول غياب وهجر. وكانت في طريقها تستمع إلى صديق أبيها الشيخ ياسين منشدًا:

أبرقٌ بدا من جانب الغور لامعٌ أم ارتفعت عن وجه ليلى البراقع

ضحكت ليلى حتى إنها تركت عجلة القيادة وصفقت بيديها عندما عبر على قلبها خاطر أن تفاجئ مالكها بعد زواجهما وترتدي له ذات ليلة برقعًا.

أبطأت ليلى سرعة سيارتها حتى وقفت بجوار الرصيف، وطالعت عينيها في مرآة سيارتها فوجدتهما كأجمل ما تكون العيون،



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فعادت إلى الضحك قائلة بصوت مسموع: «مالك يستحقهما».

غادرت ليلى عملها في تمام الثانية والنصف وتوجهت فورًا إلى حديقة الأزهر.

في جانب من الحديقة عادي تمامًا التقت ليلى بثلاثة من قيادات «كفاية» الميدانيين يُمثلون أحياء قلب العاصمة.

بدأت ليلى الكلام فقالت:

. الوقت يداهمنا، وهناك تأكيدات أن مبارك سيترك السلطة لابنه في غضون الشهور القليلة القادمة. هذا الرجل لم يترك لنا خيارًا، ولا بد أن يجابَه بعاصفة رفض له ولابنه. فماذا نحن فاعلون؟

رد هشام، وهو يكبر ليلى بعام أو عامين:

. كل قليل هو الآن كثير أو سيتكاثر غدًا. أنا وفريقي سنطوف الليلة ميدان سفنكس حاملين شموعًا وسننشد النشيد الوطني ثم سننصرف، وأظن أن رسالتنا ستصلهم.

قالت صفية:

ـ ستصلهم دون شك، وأنا وفريقي سنغرق شوارع شبرا بالمنشورات التي ترفض التمديد والتوريث.

قال أكثم:

ـ أنا وفريقي سنكون ضباط الاتصال بين كل الفرق، وسنتولى تصوير كل التجمعات وبثها للفضائيات والمواقع الإخبارية والجرائد بداخل مصر وخارجها.

تنهدت ليلى معجبة بالمقترحات ثم قالت:

. وأنا سأحب.

انفجروا جميعًا في الضحك، ثم لما هدأت موجات الضحك استأنفت ليلى كلامها:



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

. والله كنت أتحدث جادة، أنا فعلًا سأحب وأتظاهر. أي مظاهرة لن يكون الحب منبعها هي فوضى. سترونني يوم غد في مظاهرة نوعية على سلم نقابة الصحفيين، والآن سننصرف كما جئنا.

من حديقة الأزهر، انطلقت ليلى إلى المعادي حيث كانت قد واعدت مالك على مقابلته هناك.

دخلت إلى جزيرة المعادي، فرأت مالك يقف محدقًا في النيل. تسحبت على أطراف أصابعها وطوقته من الخلف. استدار منزعجًا فوجد ليلى في حضنه.

كانت تصهل بالضحك وهي ترصع عنقه وخديه بقبلاتها وتقول:

. هل حلمت بحبيبة تقبِّلك بغتة أمام الناس؟

رد مالك وهما يجلسان:

. أنت محتالة عظيمة، سيظنون أن بنتًا تقبل أباها.

ضحكت ليلى وقالت:

. أجب دون تفكير، هل هناك بنت أجمل مني؟

رد مالك:

. ابنتنا ستكون أجمل منك.

ولأن مالك كان حريصًا لدرجة البخل في كلامه مع ليلى عن المستقبل، فقد استقبلت ليلى جملته بدهشة عظيمة. وسألت:

. هل تعني ما قلته حقًّا؟

أجابها مالك:

. حقًّا وصدقًا، وتلك إحدى بركات رحلة مطروح.

قاطعته ليلى:

. قبل أن تسترسل، أنا غاضبة لأنك تهجرني منذ زمن بعيد جدًّا.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رد مالك بجديته:

. نعم تعمدت مقاطعتك خلال الفترة الماضية، حتى أبقيك خارج دائرة صراع قاتل، خرجت منه منتصرًا بحمد الله.

شعرت ليلى بالخوف فسألته:

. ماذا هناك؟

قال مالك:

ـ سأقص عليك القصة كلها، ولكن الآن سأحدثك عن خططي للمستقبل.

ابتسمت ليلى وقالت:

. هذه معجزة، الدكتور مالك الجندي يتحدث عن المستقبل! لا بد أن واحدًا من أكابر اليهود قد مات.

رد مالك:

. مطروح كأنها مدينة من مدن سواحل الغرب الغربي، نفس المعمار تقريبًا ورائحة زيت الزيتون والبحر والرمال النظيفة، لكن مطروح مهملة جدًّا. كنت كلما خلوت إلى نفسي يتعاظم حقدي على هذا الرجل، حسني مبارك، وأعذرك في كرهك له، لو اهتم بمطروح فقط لكفت مصر كلها. هل تصدقين لو قلت لك إن كل الشواطئ بلا حمامات أو أي خدمات؟ الشواطئ بكر يا ليلى، نظيفة لامعة، كانت تذكرني بك، لؤلؤة مستحيلة تريد من يخرجها من صدفتها، هناك في ليلها بنجومه المتألقة حلت عليَّ البركة.

سألت ليلى:

. أية بركة؟

رد مالك:

. بركة اللحظات التاريخية التي عاش أبوك ومات وهو مؤمن بها. في مطروح أمسكت بلحظتي التاريخية، لأول مرة سيطر عليَّ



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يقين أن بقائي مع محاسن وتحت أي ذريعة هو عبث محض، لا محاسن ستتغير ولا أنا، ولو ظللنا معًا فسنتحول بكل تأكيد إلى عقربين محبوسين في زجاجة يتبادلان اللدغ حتى الفناء.

قاطعته ليلى:

. والأولاد؟

أجاب:

. هم أولاد المستقبل، يحكم عليهم أو لهم، ولا حيلة لي في ذلك.

على الرغم من تشوق ليلى لمعرفة خطط مالك، إلا أنها لم تكن مندفعة، وكانت حريصة على هدوئها وكأنها طرف محايد، ولذا فقد كانت كل أسئلتها قصيرة جدًّا، لا تقطع تدفق مالك بل تدفعه لمزيد من الكلام. فسألته:

. وماذا بعد؟

أجاب مالك:

. عدت من مطروح إلى بيتي الجديد.

لم تتمالك ليلى نفسها فصاحت:

. أصبح لك بيت؟

ابتسم مالك وقال:

. بيت بحديقة لطيفة على النيل، في منيل شيحة، سأسكنه حتى أدبر أموري، وسأدبرها ولا تسأليني كيف.

بأنفاس متلاحقة قالت ليلى:

. ليس لديَّ تعليق يناسب كل هذا التطور السريع.

رد مالك:

. لقد ظلمت نفسي كثيرًا. لم أكن أعرفني جيدًا. كنت أحسبني



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سأنهار وأنا بعيد عن بيتي وأولادي، خادمًا نفسي، ليس معي كتبي، مكتفيًا بقليل من الطعام. ولكن بمرور الوقت يتقدم أدائي وأحكم سيطرتي على نفسي. أنا الآن أكتب، أكتب بعنفوان الشباب وبهجوم الأفكار اللامعة، بدأت أنام مرتاحًا وأصحو كذلك. والمضحك أن حقدي على محاسن قد تراجع، مع أنها صنعت لي فضيحة تاريخية، كل الذين سمعوا باسمي يومًا يعرفون الآن أنني قد هجرت بيتي وتخليت عن أولادي. صديقي جاد قال لي كثيرًا عن فضيحة محاسن، لكن هذا ليس مهمًّا. المهم أنني لم أعد أتذكرها إلا في ومضات سريعة، كأنها حدث قديم وقع قبل التاريخ.

تخلت ليلى عن حيادها وصفقت طربًا:

. أليس كل ذلك عجيبًا؟

منتشيًا رد مالك:

. والأعجب هو أنني سأتزوجك. سأذهب إلى بيت أبيك عصر يوم الحادي والثلاثين من شهرنا هذا، وسأطلب يدك. طبعًا سيرفضونني، لن أهتم ولن أسمح لهم بمحاكمتي. سأجرك من يدك أو من شعرك ـ أيهما كان قريبًا من يدي ـ إلى أقرب مأذون ثم يشرق علينا العام الجديد وأنت تنهمرين عليَّ مثل سحابة عطر، فأغتسل بك من كل أدراني وأعود طفلًا نظيفًا لامعًا.

لمعت الدموع في عينيَّ ليلى، وتأكدت مجددًا من أن قلبها أصدق منها: لقد حدثها قلبها منذ الصباح الباكر أن اليوم سيكون مبهجًا، وهل هناك بهجة فوق الذي تسمعه من مالك؟

أغمضت ليلى عينيها لكي لا تبكي، ثم فتحتهما ببطء فابتسم مالك لفعلتها، ثم باغتها بأن مدَّ يده إلى تحت المنضدة وتناول حقيبة هدايا فاخرة وقدمها لليلى، التي ابتسمت سائلة:

. ما هذا؟

رد مالك مبتسمًا:



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

. الصواب أن تسألي: «ما هذه؟». هذه حقيبة فاخرة بها نوع من الشوكولاتة أفخر من أن أتذوقه، فقلت: «أهديها لليلى».

هـذه المـرة لـم تتمـالك لـيلى نفسـها، فـأطلقت عينـاها دمعتـين، فتقلص وجه مالك للدمعتين وقال، محاولًا تغيير الموقف:

. فتنة وجهك الآن لا تحتمل، فهيا بنا نقوم من هذا البرد.

بعد أن غادرا الحديقة بقليل، توقفت ليلى فجأة بجوار الرصيف وقالت لمالك:

. قبل سنوات مضت شاهدت فيلمًا أمريكيًّا لم يعد في ذاكرتي منه سوى مشهد واحد وحيد، سأنفذه معك الآن.

بدهشة رد مالك:

. أرجو التعقل، أنت ترين كيف هو الكورنيش وميكروباصاته.

ابتسمت ليلى وهي تتناول علبة الشوكولاتة وتفضها وقالت وهي تعمل:

. المشهد الأمريكي يقول إن الحبيب كان مثلك مدهشًا وحبيبته كانت مثلي مجنونة، وأراد الحبيب المدهش أن يخطب حبيبته المجنونة، ولكن لم يكن معه مال يكفي لشراء خاتم الخطوبة، فجاء بحبتي شوكولاتة كهاتين، ونزع عنهما غلافهما كما أفعل، ثم بمهارة كمهارتي صنع خاتمًا له وردة صغيرة لحبيبته، وصنع من الغلاف الثاني خاتمًا ذكوريًّا لنفسه، ووضع خاتم حبيبته في بنصر يمناها، تمامًا كما تفعل أنت الآن، فقامت حبيبته بوضع الخاتم الذكوري الذي لا تعلوه وردة في بنصر يمناه، كما فعلتُ أنا الآن. وبذا تمتْ الخطوبة وعاشا في الهناء وأنجبا الأولاد والبنات.

لـو يسـتطيع مالك لحطم ضلوع ليلى أحضانًا وتقبيلًا، لقد كان كالمسحور وهو يرى ليلى تفعل ما فعلت، كان كالمسحور وهو يسـمعها تقـول مـا قـالت. لكنـه، وقـد خطبـها بخـاتم مـن غـلاف الشوكولاتة، أو خطبته هي لنفسها، لا يستطيع سوى التحليق فوق أزمنة نكبته وإخراج لسانه سخرية من مالك القديم الذى مضى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولن يعود.

خرج من شروده السحري، فرأى ليلى تتأمل بإعجاب وفرحة خاتمها، كأنه خاتم حقيقي لخطوبة حقيقية، فقال لها:

. مَن أنتِ؟

ردت ضاحكة:

ـ فتاة صغيرة طائشة أغواها رجل عجوز مجرب، وقد ورثت الطائشة عن أبيها كيف تصنع خاتمًا من غلاف حبة شوكولاتة.

تنهد مالك وهو يقول:

. اللهم ثبت قلبي.

بجدية قالت ليلى:

. بقي شيء لا أظن أن المشهد الأمريكي قد تعرض له.

قال مالك:

. ما هو؟

قالت ليلى:

. ناولني يسراك.

باستسلام حبيب أعطاها مالك يسراه فلثمتها، ثم بسرعة خاطفة نزعت دبلة زواجه من بنصر يسراه وفتحت زجاج نافذتها وألقت بالدبلة تحت إطارات السيارات المارقة وهي تصيح:

. هكذا تمت حريتك، هكذا أنت لي، لا يشاركني فيك أحد.

مالك الفصيح شرد منه الكلام، فصبَّ من عينيه حبًّا أغرق به ليلى التي قادت بسرعة جنونية إلى حيث بيت مالك الجديد.

هذه هي المرة الأولى التي ترى فيها هذه المنطقة. إنها ككل أماكن مالك تشبهه، بها رائحته وغموضه ووضوحه.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قبل الوصول إلى بيت صغير من طابق واحد، أشار لها مالك بالتوقف.

ارتجفت ليلى وهي توقف سيارتها، رجفة تعرف هي سرها كما تعرف دواءها، كما تعرف أن كل مقاومة ليست في صالحها.

ألقت نظرة واحدة فقط إلى مالك فسارع بالتقاط شفتيها. قبَّلها كما لم يقبِّلها من قبل، قبَّلها حتى تراجعت منسحبة بلطف من حضنه العريض الدافئ.

عندما همَّ مالك بمغادرة السيارة قالت له ضاحكة:

. معي زاد يكفيني لشهر قادم.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إذا قيض الله مؤرخًا منصفًا يكتب تاريخ الجهاز، فهو حتمًا سيتوقف طويلًا عند سيادة العقيد أشرف باشا العمري، وقد يضعه في الطبقة الأولى من قيادات الجهاز التاريخية. ولو كان ذلك المؤرخ ـ الذي لم يأتِ زمانه بعد ـ من أهل الهوى، فلن يستطيع إلا أن يضع أشرف باشا في طليعة الطبقة الثانية.

ويكفي أشرف باشا ما صنعه مع الغرفة السرية، تلك الغرفة التي تعد أهم وأقدم غرف الجهاز ـ بعض محتوياتها يعود تاريخه إلى مائة سنة مضت، وقت أن كان الجهاز معروفًا باسم «القلم المخصوص».

قبل رئاسة الباشا للغرفة كانت مهمة، نعم، وخطيرة، نعم، ولكن بعد رئاسته أصبحت قدس أقداس الجهاز.

الباشا ثري بل فاحش الثراء، فهو الوريث الوحيد لإمبراطورية العمري التي لا يعرف العمري نفسه حدودها. ولأنه ضابط موهوب ووطني حتى النخاع، فقد استثمر ثراء أبيه لصالح عمله، الذي هو الحفاظ على الوطن من طمع الخونة وغدرهم.

لقد عقد صفقة وطنية، بين أبيه وبين الجهاز، وقد نصت الصفقة على أن يمول الحاج عاصم العمري مشتريات الغرفة من أحدث الآلات والكاميرات والأجهزة.

سيظل الجهاز يذكر تلك الجلسة التاريخية، التي ضمت الحاج عاصم، وأشرف باشا، ومعالي الوزير، وسيادة رئيس الجهاز، وسيادة نائب رئيس الجهاز.

وقد انتهت بأن قدم الحاج عاصم شيكًا بخمسين مليون جنيه لدعم غرفة ابنه.

النقلة النوعية التي أحدثتها رئاسة الباشا للغرفة لم تكن على مستوى الآلات والأجهزة والكاميرات فحسب، ولكنها كانت على مستوى المكانة والمقام والأهمية. فلم يعد مسموحًا لكل من هب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ودب بدخولها ـ الذي هب والذي دب قد يكون من اللواءات، ولكن ليس مسموحًا له بأن يعرف مقر الغرفة أصلًا.

بابها المصفح يفتح بكلمة سر يحددها سيادة رئيس الجهاز شخصيًّا، وعنه ينقلها نائبه أو أشرف باشا للخبراء الذين يعملون بها. ثم لا تُفتح الغرفة لأيٍّ كان إلا بطلب يحمل توقيع الموافقة من سيادة رئيس الجهاز أو نائبه أو أشرف باشا. مكانة الغرفة حددتها الشخصيات المسموح لها بدخولها. على يدي الباشا انتقلت الغرفة من زمن الانحطاط ـ وهو كل زمن سبق تولي الباشا لها ـ إلى زمن الهيبة والاستراتيجية. ففي زمن الانحطاط كان أغلب الضباط والقادة يتعاملون معها بوصفها غرفة ساعة الحظ، فكانوا عندما تضيق صدورهم لأمر من الأمور يدخلون الغرفة ويشاهدون الصور الفوتوغرافية والأفلام، ويستمعون لشرائط المكالمات والمقابلات، فيضحكون ويذهب عنهم ما كان بهم من ضيق.

أما الآن فولوج هؤلاء إلى الغرفة يشبه ولوج الجمل في سم الخياط.

بدأ الباشا عمله في الغرفة بأن قام، بمفرده، بفحص محتوياتها، فلم يترك صورة أو فيلمًا أو تسجيلًا إلا واطلع عليه وعرف مضمونه، بداية من صورة لفخذي فلانة هانم ابنة فلان باشا وهما مرفوعتان على كتف ناظر عزبة الوالد وأحيانًا سائس خيله، نهاية بأفلام للممثلات والراقصات.

كان أشرف يعلم أن محتويات الغرفة ما هي إلا تسجيل وتوثيق للفضائح الجنسية ويتم استغلالها على أضيق نطاق مع المغضوب عليهم. رأى أشرف أن هذا المحتوى فقير بل غاية في الفقر.

فجلب أولًا جماعة من فحول الأرشفة الذين أدبهم الجهاز على يديه، وأمرهم ـ بعد أن أجذل لهم العطاء ـ بإعادة الأرشفة وفق مفهومه هو الخاص لها.

أمرهم بأن يرتبوا الغرفة ترتيبًا أبجديًّا، فإن بحث عن اسم يبدأ



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بحرف الحاء مثلًا وجد تحته كل الصور والأفلام والتسجيلات التي يظهر فيها كل الذين تبدأ أسماؤهم بهذا الحرف.

بعد انتهاء الأرشفة جاء الباشا بمجموعة منتقاة من مهندسي الجهاز، فتولوا نسخ نسخة إلكترونية من المحتوى، تحسبًا لأمر بعيد جدًّا ويكاد يكون مستحيلًا، وهو تعرض المحتوى لتخريب ما.

بعد النسخة الاحتياطية، التي حرص الباشا على أن تكون مشفرة ولا يعرف كلمة سرها سواه ومعالي الوزير وسيادة رئيس الجهاز ونائبه، عزم أشرف على تغذية المحتوى بالحديث النوعي، فلم يفلت ورقة تخص صاحب شأن إلا وضمها، بداية من العقد الحقيقي لنجم فريق كرة قدم مع ناديه، ونهاية بسمسرة الوزراء ووكلاء الوزارات وقادتها.

ضاقت الغرفة بمحتواها الجديد، فتوسع الباشا ـ بمنحة من أبيه ـ حتى أصبحت الغرفة تشغل طابقًا كاملًا في بناية من بنايات الجهاز السرية.

ذات يوم استدعى معالي الوزير أشرف باشا، وأمره بوضوح بالكف عن تزويد الغرفة بالمستندات، وأرجع سيادته أمره القاطع لسببين: أولهما أن عمل أشرف يمثل عدوانًا على زملاء آخرين يتولون القيام به، وثانيهما أن وزراء ووكلاء وزارات قد تسرب إليهم الشك في قيام الجهاز بأرشفة مستنداتهم، ولذا قام بعضهم بتصعيد الأمر إلى القيادة السياسية التي أمرت بإيقاف الأرشفة.

لقاء معالي الوزير مثل ضربة قاسية لطموح أشرف، ولكنه عوض النقص بالتوسع في الأفلام والصور والتسجيلات، وأدخل عناصر جديدة لم يكن من العادة التركيز عليها، مثل مذيعات التوك شو وفتيات الإعلانات والصحفيات.

الذروة الكبرى التي صعدتها الغرفة كانت عندما تمكن الباشا من زرع كاميرات، تنقل للغرفة على الهواء مباشرة ما يجري في شارع عبد الخالق ثروت، حيث مقار نقابة المحامين ونقابة



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الصحفيين ونادي القضاة.

زرع الباشا الكاميرات، بمساعدة فريق عمل مدرب أحسن تدريب، فوق أسطح مباني ثلاثةٍ من الأبراج التي يمتلئ بها الشارع الحيوي. تم الزرع بمهارة ودون أن يلاحظ أحد شيئًا.

ظهيرة الثلاثاء الثامن والعشرين من ديسمبر ٢٠١٠، دخل الباشا إلى الغرفة لكي يطمئن على عمل الكاميرات التي تنقل بثًّا حيًّا لمظاهرة من مظاهرات سلم نقابة الصحفيين.

كان الجهاز كله قد اعتاد على تلك المظاهرات التي لا تقدم ولا تؤخر، وإن كانت تفيد أشرف باشا في تغذية غرفته بصور وأفلام لصنع تاريخ لكل وجه جديد يظهر فيها.

في تمام الساعة الثانية عشرة وخمس دقائق من ظهر الثلاثاء، كان أشرف قد جلس على مقعده أمام شاشة كبيرة تعرض البث المباشر من أمام سلم النقابة.

بدأت المظاهرة كما تبدأ كل مظاهرات سلم النقابة: عشرة من المتظاهرين يهتفون بسقوط فلان أو علان، ثم يتكاثر العدد ولكنه لا يتجاوز المائتي متظاهر، يحاصرهم ألف على الأقل من جنود الأمن المركزي، ثم تنفض المظاهرة ويذهب كل لحال سبيله بعد أن تفلح تلك الشرذمة الضئيلة في شل حركة المرور بوسط العاصمة.

لاحظ أشرف باشا بعينيه اليقظتين أن المتظاهرين العشرة الأوائل ليسوا متظاهرين بل متظاهرات، ثم بدأ العدد يتزايد من دون أن يسجل حضور رجل واحد.

لمزيد من التركيز طلب الباشا قهوته، فجاءت فورًا. رشف رشفة وعاد يحدق في الشاشة. لقد تزايد عدد المتظاهرات حتى بلغ نحو خمسمائة متظاهرة.

شيء يقترب من القلق اعترى قلب الباشا: لا رجال، والوجوه في معظمها مجهولة، ليس لها تاريخ في الغرفة، الموضوع هكذا



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يقترب من حافة إنشاء تنظيم سري للسيدات والفتيات لا يعرف الجهاز عنه شيئًا.

ما كان يشبه القلق أصبح قلقًا حقيقيًا عندما رفعت المتظاهرات جميعهن لافتات «كفاية».

وبخ أشرف نفسه قائلًا: «بينما سعادتك مشغول بمصيبتك الشخصية، قامت «كفاية» بتكوين تنظيم نسائي. هذه الكارثة في رقبتك أنت أولًا وقبل أي أحد، فأنت المسؤول الأول عن «كفاية»».

ملامح وجه أشرف، التي تتبدل بين كل لحظة وأخرى، جعلت خبراء الغرفة يختلسون إليه النظر اختلاسًا من دون أن يجرؤ أحدهم على محادثته أو مواجهة عينيه.

طلب الباشا قهوة ثانية، فجاءت فور طلبه، وعاد يحدق في الشاشة وهو يدعك جلد جبهته بقسوة. ثم هبَّ واقفًا وهو يرى المظاهرة تنقسم إلى فريقين متساويين، فريق يسار السلم وفريق يمينه، وبين الفريقين ممر يبدأ من أسفل السلم وينتهي في أعلاه.

هتف أشرف بتلقائية:

. ما هذا الذي يحدث؟

لم يصله رد عن سؤاله من خبراء الغرفة لأنهم خائفون منه. ظل أشرف واقفًا، وهو يسمع المتظاهرات يهتفن في صوت واحد:

. الزعيمة جت، الزعيمة جت.

التقطت الكاميرات مجيء الزعيمة ورحلة صعودها السلم برشاقة غزالة وأناقة ملكة، بينما هتاف المتظاهرات يتعالى بدرجة جنونية:

. الزعيمة جت، الزعيمة جت.

أدرك أشرف، في لحظة فارقة، أن صياحه ووقوفه ربما يهزان مكانته لدى خبراء هو الذي انتقاهم، فعاد لجلسته المريحة وكأن



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جوفه لا يغلي بألف سؤال.

قرأ أشرف بعينيه المدربتين البث المباشر، فرأى أن الزعيمة ليس لها تاريخ، وهذا في حد ذاته كارثة كبرى. ثم الزعيمة بنت ناضجة، لا يمكن أن تكون سيدة، عودها مشدود وصدرها لا يعرف الترهل، وهذا ما لا يكون إلا لفتاة بكر.

الزعيمة محجبة مثل أكثر من تسعين بالمائة من المتظاهرات، تضع في بنصر يمينها شيئًا يشبه الخاتم لكنه ليس خاتمًا.

صاح أشرف في خبير بأن يقرب الصورة ويكبرها.

رد عليه الخبير بخوف:

. لا حيلة لنا في ذلك لأن الصورة تأتينا هكذا من المصدر.

تناول أشرف هاتفه وصرخ في المصور الفوتوغرافي الذي يتولى تصوير المظاهرة:

. ماذا تفعل يا بغل؟ أريد صورًا بالحجم الطبيعي للحقيرة التي تصعد السلم الآن، وأريد الصور فور التقاطك لها.

رد عليه المصور مرتجفًا:

. وكيف أرسلها لك فورًا يا باشا؟

صاح أشرف:

ـ لقد وصفتك منذ البداية بالبغل، التقط الصور ثم توجه إلى الكشك الأزرق، تعرفه طبعًا، سلم الفيلم هناك وعد فورًا للمظاهرة. ركز يا بغل على اليد اليمنى للحقيرة، أريد رؤية شرايين أصابعها. مفهوم؟

كهرباء التوتر انتقلت من أشرف إلى باقي الخبراء، توتره جعله متصلبًا مثل صخرة، وتوترهم جعل قلوبهم ترتجف داخل صدورهم ويتمنون أن ينتهي اليوم على خير.

أخيرًا وصلت الزعيمة إلى أعلى السلم. كانت الكاميرات تتابع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فخذيها الثخينتين وهما تملآن فضاء بنطلونها الجينز الثمين.

استدارت الزعيمة لتواجه جمهورها من المتظاهرات، ثم هتفت بأعلى صوتها:

. صباح الفل، صباح الخير، ابن رئيسنا ملياردير.

كاد الباشا يقهقه سخرية من نفسه، لقد ظهر له أنه يعوم في ماء البطيخ بينما «كفاية» وتنظيمها يخترعان هتافات جديدة لم تشهدها ساحات المظاهرات من قبل.

رددت المتظاهرات هتاف الزعيمة بحماس عدة مرات، ثم صاحت إحداهن موجهة سؤالها إلى الزعيمة:

. ماذا هناك؟ مزاجك عناب اليوم يا زعيمة.

ضحكت الزعيمة كأنها في رحلة إلى القناطر وردت:

. لقد خُطبت ليلة أمس.

قالت جملتها ولوحت بما يشبه الخاتم في بنصر يمينها، فصفقت المتظاهرات وأطلق بعضهن صفير الإعجاب كأنهن في مباراة لكرة القدم، وقامت ثلاث منهن بإطلاق وابل من الزغاريد المجلجلة.

««كفاية» الوضيعة الخائنة تصنع شيئًا جديدًا، تنظيمها يتظاهر كأنه يصنع صينية بطاطس»، هكذا تمتم أشرف وهو يواصل التحديق، لا في الشاشة، بل في وجه الزعيمة الذي بدا فاتنًا، بعينيها اللامعتين وشفتها السفلى المكتنزة.

هتفت الزعيمة:

. يا جمال قول لأبوك الشعب المصري بيكرهوك.

هذا هتاف جديد آخر، سحقًا لـ«كفاية» الخائنة، لقد كتبتْ نهايتها بتعرضها للرجل الكبير ولابنه هكذا جهارًا نهارًا.

تنفس أشرف بعمق لكي يسيطر على أعصابه ويعيد قراءة المشهد كله. هو الآن متأكد من أن لـ«كفاية» تنظيمًا نسائيًا، هذا



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أولًا. أما ثانيًا، فعضوات التنظيم تدل أزياؤهن على أنهن من الشريحة العليا في الطبقة المتوسطة، وبعضهن، كالزعيمة، من الطبقة العليا، وهذا يعني أن «كفاية» قد اخترقت عصب المجتمع. ثالثًا، إن غياب لافتات «٩ مارس» و«٦ أبريل» وشعاراتها يدل دلالة مؤكدة على وجود تنسيق تام بين الخونة جميعًا.

رابعًا، وهذا في غاية الأهمية، هذا التنظيم لم يبدأ من الأمس، بل ربما تكون عضواته قد تلقين تدريبًا متقدمًا في جهة ما أو دولة ما. طريقتهن في التظاهر جديدة، ثم هن يكسرن طوق الخوف وكأنهن ولدن ليتظاهرن.

عاد أشرف من جولته داخل نفسه ليرى الزعيمة وهي تتمايل في غنج وكأنها في مرقص، ثم تشير للمتظاهرات بأن يصنعن دائرة أسفل السلم. استجبن لها في نظام دقيق، ثم هبطت من أعلى السلم كما تهبط ملكة من فوق عرشها، وأصبحت بمفردها داخل الدائرة، ثم فتحت حقيبة يدها وتناولت لفافة كبيرة، نشرتها، فإذا هي صورة تجمع بين الأستاذ جمال مبارك والمهندس أحمد عز.

هاجت المتظاهرات عندما رأين الصورة، ثم تعالى صراخهن عندما تناولت الزعيمة من حقيبتها ولاعة وأشعلت نيرانها أسفل الصورة. كانت النيران تتقدم لتلتهم وجهي جمال وعز بينما الزعيمة ترقص.

لا لم يكن رقصًا، كان أداءً حركيًّا من نوع خاص. الزعيمة هي لا شك قحبة من قحاب «كفاية» لأنها تحتفظ بولاعة، ولا تحتفظ بولاعة إلا المدخنة، ولا تدخن سوى القحبة. واصلت رقصها، ثم فتحت فمها على اتساعه وصاحت...

صاحت بماذا؟

لا، ما يحدث لأشرف الآن كثير، بل كثير جدًّا. الزعيمة ترقص وتصيح، ولكن صياحها لا يصله مع أن صوتها يملأ الغرفة، الكاميرا الملعونة تمكنت أخيرًا من التقاط صورة قريبة لوجه الزعيمة، يا لوجهها، لا، ليس وجهها، بل فمها، لا، بل لسانها، لا، بل



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أسنانها، إنه فمها المفتوح باتساعه، ولسانها الأحمر.

شيء كالنور الساطع يعمي عيني أشرف الذي ينسى أين هو وكيف هو، فيروح يبعد النور الوهمي عن عينيه لكي يرى الفم بلسانه الأحمر وأسنانه النظيفة ناصعة البياض. الزعيمة تغلق فمها وتفتحه، لا، هذا كثير، لا هذا ملعون، هل هذا فم أم فرج يتهيأ لاستقبال سيف ثم يضمه بداخله قابضًا عليه؟

أشرف يعيش لحظة كلحظة المجرم التافه خلف، غيبوبة عن المكان والزمان تشمله، جسده كله ينبض بألف معنى، دم جديد يجري في عروقه طاردًا دمه القديم المتخثر، كأن سيفه يصحو، نعم كأنه يصحو، لا، لقد صحا فعلًا، نعم، إنه يشعر به، يحس كأن نمل الموت يغادره، إنه ينتصب، نعم ينتصب، لقد عاد قويًّا ومهيبًا، عاد من موت ظنه أبديًّا.

همس أشرف بصوت لم يغادره لفم الزعيمة: «انفتح وانغلق إلى الأبد، أيها الفم العظيم المقدس، أنا أولد ثانية على يديك، ستكون لي ولو كنت محلقًا في السماء السابعة».

عاد لأشرف وعيه، فخشي أن يقف أمام الخبراء فيروا ما هو فيه، فصاح جالسًا:

. هذا العبث يجب أن ينتهي خلال أربع وعشرين ساعة.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في العاشرة من صباح الأربعاء التاسع والعشرين من ديسمبر من العام ٢٠١٠، كانت فرقة النقيب أسامة الكمالي، بتكليف من سيادة العقيد أشرف العمري، تنتشر في أرجاء القاهرة للبحث عن الزعيمة.

في الساعة ذاتها، كان مالك الجندي قد اتصل بالكلية معتذرًا عن عدم حضوره اليوم. كان يعرف أن الكلية لم يعد يعنيها حضوره من غيابه، ولكنه في كل الأحوال يفضل التمسك بقواعد الأصول والواجبات.

جلس مالك في حديقة منزله الجديد تحت ظل شجرة التمر حنة مرتاحًا لقرار غيابه عن الجامعة، وبدأ يفكر جادًّا في كتابة دراسة عن البهجة الحزينة في شعر صلاح جاهين.

رنين المحمول أخرج مالك من حالة تتبعه لفكرة دراسته المنعشة. تناول الهاتف فوجد كلمة: «حبيبتي».

جاءه صوت ليلى متراقصًا:

. أتمنى لو كنت في البيت.

رد بلهفة:

ـ نعم في البيت، وقبل أن تتحدثي سأقول لك شيئًا مهمًّا: لقد حذفت اسمك القديم، «يحيى محمود»، وأصبح اسمك الجديد هو «حبيبتي».

ضحكت ليلى وقالت:

. كنت أعرف أنك ستفعلها، والحقيقة لا أعرف ماذا أصنع بقلبي الذي أوصاني أن أتوقف بسيارتي أمام بيتك في العاشرة صباحًا. هيا افتح لي باب الحديقة.

قال مالك لنفسه: «لماذا لا يطول الطريق الواصل بين الحديقة



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والمطبخ إلى الأبد؟ لماذا تنتهي خطوات السعادة سريعًا؟».

على رخامة المطبخ، أخرجت ليلى محتويات حقيبة مشتريات كانت تحملها. كان مالك مبهورًا بكل ما يحيط به، بحضور ليلى، وبليلى نفسها، وبمشترياتها، وبنظافة المطبخ، وبطقس العاشرة صباحًا من يوم ديسمبري، وبالأحلام التي طاردها عمرًا كاملًا حتى أيقن أنها مجرد أوهام، وها هي تحدث ببساطة أمام عينيه.

احتضنته ليلى في ضوء المطبخ الهامس وقالت له:

ـ يقينًا لستُ قديسة، ويقينًا لستُ زليخة، ويقينًا لستَ داعرًا، ويقينًا لستَ نبي الله يوسف. أنت رجل مكتمل وأنا أنثى ناضجة، ولكن يجب أن يمر وجودنا منفردين على خير وجه. والآن عد إلى حديقتك وسأصنع لك القهوة لكي تتركني أعد لك الغداء.

سحب مالك جسده من حضنها وطبع قبلة على جبينها ثم قال:

. زيارتك أعجب شيء وقع لي في حياتي، وعهدًا سأحتفظ بذكراها في أطهر غرف قلبي.

بمرح قالت ليلى:

. أعرف، سأعد لك غداءً من البروكولي والفاصوليا الخضراء والكوسة والبطاطس والجزر، مع فصين من الثوم، وطبق من الأرز، وشريحة من الستيك.

ضحك مالك:

. تعرفين الطبخ؟

بلهجة افتخار:

. التي تصنع خاتمين من أغلفة الشوكولاتة تعرف الطبخ. عمومًا لن تجد الطعام الصحي الطيب سوى معي.

حدق مالك في عينيها وقال:

.هل أخبرتِ أهلك بزيارتي لكم بعد غد؟



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ببساطة ردت ليلى:

ـ سأخبر أمي مساء اليوم، ستوافق على مقابلتك، ثم ستنقل طلبك إلى أخويّ اللذين لن يوافقا قطعًا، ولكن كن مطمئنًّا، ففي الزمن الذي ستتحدث فيه أمي مع أخويّ سأكون زوجتك وأمطر عليك كسحابة من عطر.

بقلق سأل مالك:

. هل هذا قرارك النهائي؟

بدلال ردت ليلى:

. نعم، مع أنك لا تستحقه لأنك أغضبتني.

بصدق سألها:

. متى أغضبتك؟

ردت:

. كيف لم تلاحظ أني أحتفظ بخاتم خطوبتك، بينما أنت سارعت بخلعه؟

ضحك مالك وقال:

. اللعنة على الرجال، لا يلاحظون هذه الأشياء. سأعوضك بخاتم حقيقي.

بكبرياء ردت ليلى:

. أستحق طبعًا، فأنا ابنة أكبر جواهرجي في البلد! ها نسيت أن أقول لك إنني جلبت لك الجرائد، ومعها نسختي من رواية «زوربا».

ضحك مالك وقال:

. يرحم الله «كزانتزاكيس»، قرأت روايته قبل ميلادك بسنوات.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حمل مالك الجرائد والرواية، بينما حملت ليلى صينية أنيقة ووضعت فوقها كوبي ماء وفنجاني قهوة، وسارت خلفه بخطوة، واتجها إلى الحديقة.

جاء مالك بمقعد لليلى وجلسا متواجهين. سألها:

. لماذا تهديني رواية «كزانتزاكيس»؟

ردت ليلى:

. أظنك تحتاج إلى قراءة هذه الرواية في زمنك هذا. المثقف بطل الرواية تأمل الحياة لكنه لم يعشها، بينما «زوربا» الراقص اتخذ أخطر قرارات حياته وهو مطلق اليدين. لا تسخر مني عندما أقول لك إنك أقرب لـ«زوربا» منك للبطل المثقف، أنت رجل قوي يا حبيبي، ولست أحمق، أنت تصبر فقط ولست جبانًا ولا خانعًا. لقد قلبتَ المائدة مثل «زوربا» لتنهل من نبع الحياة، هكذا أراك، وهذا ما ستعرفه عن نفسك بينما أمطرك بعطري.

ابتسم مالك ولم يرد، وتناول الجرائد ليلقي نظرة عليها، فوقعت عيناه على صورة تحتل نصف الصفحة الأولى من إحدى الجرائد، فهب واقفًا من شدة الفزع:

. هل هذه أنت يا ليلى؟ نعم أنت!

انزعجت ليلى من انزعاجه وردت:

. ماذا هناك؟ هذه صورتي حقًّا.

جلس مالك وأنفاسه تتلاحق:

. تتظاهرين وتحرقين صورة جمال مبارك وأحمد عز في الشارع وتتركينهم يصورونك وينشرون صورتك، ثم لا تعرفين لماذا أنا منزعج بل وخائف؟

بهدوء ردت ليلى وهي تربت على يد مالك:

. يا حبيبي، لا تقلق. الذين تخاف عليَّ منهم لا يعرفونني، ولا



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تقنعني أنهم سيفتشون مصر بحثًا عني. صور مبارك نفسه جرى إحراقها في المحلة قبل سنتين ولم يحدث لحارقيها شيء.

بغضب رد مالك:

. لقد نجا حارقو صور مبارك لأن أحدًا لم يلتقط صورهم. صورتك أنت موجودة وواضحة تمامًا، ثم إن جمال مبارك أخطر من أبيه، والأخطر من الاثنين هذا الرجل الذي يدعى عز. أنت تذهبين إلى الهلاك وأنت مغمضة العينين.

بلهجة عتاب قالت ليلى:

. مالك حبيبي، لا تفسد علينا يومنا بهواجسك، صدقني لن يحدث شيء.

غمغم مالك:

. أتمناها أن تكون هواجس وليست حقيقة مروعة.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

# 40

في طريق عودته إلى بيته في يوم المظاهرة التاريخية، كان أشرف العمري يعيش حالة من حالاته الاستثنائية، حيث لا فرح ولا حزن، لا قوة ولا ضعف، لا رضا ولا سخط.

هو من بداية وقوع الكارثة كان يؤمن أنها سترحل عن سمائه يومًا ما، وعندما رحلتْ عَز عليه أن يعيش حالة الترقب والانتظار والأسئلة: هل سيعمل السيف؟ هل سيتوقف؟ ثم ما علاقة الزعيمة بالأمر كله؟

بحالته تلك دخل إلى بيته، تضاحك مع ولديه ثم اغتسل، ثم جلس إلى مائدة الطعام. بثينة هي بثينة، امرأة جاهزة للمضاجعة على مدار الساعة، بل على مدار لحظات عمرها. لكن أشرف افتقد احمرار لسان الزعيمة وفتحة فمها واحتقان وجهها.

حاول اقتلاع الزعيمة من مخيلته ولكنه لم ينجح. وليته اكتفى بالفشل فقط، لقد زاد عليه أنه رأى بثينة جاموسة بيضاء معطرة، وزنها أزيد من وزن الزعيمة بأربعين رطلًا على الأقل، فخذاها ليستا كفخذي الزعيمة، نهداها ليسا كنهدي الزعيمة، بطنها ليس كبطن الزعيمة، الزعيمة غزالة وبثينة جاموسة، الزعيمة فراشة محلقة وبثينة سحلية تزحف على بطنها.

وقفت لقمة في حلقه بعد أن تأكد أن العطب قد ضرب بثينة لا سيفه، الذي كان قبل قليل يعمل بكفاءته المعروفة.

مسح يديه بمنديل وكوره بإهمال وألقى به فوق المائدة، ثم وقف فجأة فتوددت إليه بثينة ووقفت لوقوفه، فأشار إليها قائلًا:

. واصلي الأكل مع الأولاد.

مر يوم الأربعاء كأسوأ ما يكون مرور الأيام. أخيرًا جاء صباح الخميس، وفيه كان أشرف في مكتبه كالعادة، ودخل عليه النقيب أسامة، الذي حيَّا قائده وجلس في مواجهته متحرجًا.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نظر إليه أشرف وسأله:

. هل هناك أخبار سيئة بشأن الزعيمة؟

بلع أسامة ريقه أولًا ثم قال:

. ليست سيئة، إلا أنها ليست جيدة.

بحدة قاطعه أشرف:

. لا أريد فوازير.

قال أسامة:

. لقد وصلنا إليها في أسرع وقت وهذا يحسب لنا، ولكن التعامل معها ضرره أكثر من نفعه.

بانتباه تام سأله أشرف:

. لماذا؟

رد أسامة:

. لأنها ليلى عمر محمود.

بسخرية قاطعه أشرف:

. ومَن يكون «عمر محمود» هذا؟

قال أسامة:

. المهندس عمر محمود أكبر جواهرجي في البلد، وهي شقيقة طارق وسعد عمر محمود، وهما مديرا إمبراطورية والدهما ومن أكبر المتبرعين لنشاطات الحزب. لا شك أن سيادتك تعرف هذه العائلة.

بامتعاض قال أشرف:

. نعم، أعرفها جيدًا، ولكن لا بد من ليلى.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقف أسامة وهو يقول:

- الأمر يحتاج إلى تعامل سيادتك المباشر معه. عندما تذهب سيادتك إلى الـAF سيلحق بك ملف الهدف، وبه ما استطعنا الوصول إليه من معلومات، بداية من أرقام هواتفها ونهاية بفصيلة دمها. هل تأمرني سيادتكم بشيء آخر؟

بهزة من رأسه أشار أشرف لأسامة بالانصراف.

بداخل الـAF كان الزمن مثل بقعة دم لا تذهب من تلقاء نفسها ولا يشربها أسفلت الشارع، قد تبهت ولكنها تظل هناك تنبه وتشير إلى أن حادثة ما قد وقعت. قاوم أشرف زمنه الراكد مثل بقعة دم، وقرأ بعناية ملف ليلى عمر محمود.

وجد الملف لا يحتوي سوى على معلومات أولية لا تقدم ولا تؤخر، معلومات شائعة وصحيحة ومعروفة، معلومات بدون مفصل مكسور يضغط عليه فتنهار الزعيمة، معلومات بدون ثغرة مطمورة وبدون سر مدفون.

التمس أشرف العذر لأسامة وفرقته لأن الوقت كان يلعب ضدهم، ولكن في جزء من نفسه كان خائفًا أن يكون فقر الملف دليلًا أو مؤشرًا على تراجع كفاءة الجهاز.

فتح درج المكتب الذي يجلس خلفه، وتناول مظروفًا به الصور الفوتوغرافية التي طلب التقاطها لليلى.

رضي عن نفسه عندما تأكد إحساسه بأن الخاتم الذي يطوق بنصر يمينها ليس خاتمًا. الزعيمة تلهو بغلاف قطعة شوكولاتة.

حضورها وتكوينها في الصور أشد فتنة مما كانا عليه في الشاشة. يعرف أشرف أن الصور تحدد المقاطع وتبرز جمالها.

سمعهم أشرف يتحدثون عن «الارتباط الشرطي»، لكنه لم يعد يتذكر من كلامهم سوى الألفاظ الغامضة التي تقول إنه لو حدث كذا فيحدث كذا، فهل هذا الكلام العجيب يصلح تفسيرًا لما يحسه الآن وصور ليلى بين يديه؟



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لقد بدأ سيفه يتثاءب تثاؤب الذي يصحو من نوم عميق، وهذا يقطع بصحة صيحته الأولى، عندما قال لفم ليلى الذي ملأ الشاشة: «ستكون لي ولو كنت محلقًا في السماء السابعة».

أعاد الصور إلى مظروفها ووضع الملف تحت إبطه وغادر الAF عائدًا إلى مكتبه.

غرفة المكتب مقبضة، كل ما بها ميت، حتى وردها المجلوب منذ ساعات قليلة من بستان خاص، هو ورد ميت متعفن. كل مقار الجهاز مقبضة، الجهاز ذاته مقبض، لا شيء سيجعل الكون يصحو وينفض عنه عفن الموت إلا فم ليلى بلسانه متقد الحمرة.

قال لنفسه وهو يغادر مكتبه: «هل كان أحد يظن أن أشرف باشا العمري، ابن الحاج عاصم العمري، سيكون فم عاهرة هو قارب نجاته؟».



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حانت ساعة انصراف ليلى من عملها. علقت حقيبتها على كتفها، وحانت منها نظرة لبنصر يمينها ففرحت بخاتم الشوكولاتة. فكرت في اللقاء بمالك في بيته أو في أي مكان، وفكرت في الذهاب إلى الكوافير لتجهز نفسها لليلة الغد حيث ستنام عروسًا في حضن مالك، وهذا هو قرارها النهائي. طربت لوقع كلمة «عروس» على قلبها، فدندنت وهي تتجه نحو المصعد:

إنت حلالي

ارجع أنا وياك

غادرت المصعد، فجاءها اتصال من رقم خاص لا يظهر اسم صاحبه على شاشة الهاتف. تضيق هي بأصحاب تلك المكالمات لأنها تعرف معظمهم، فهم من عملاء المكتب الذين يستعرضون أهمية يزعمونها لأنفسهم.

جاءها صوت أشرف واثقًا:

. مساء الخير يا آنسة ليلى، معك النقيب سيف الدين خيري من أمن الدولة.

توقفت عن المشي وضربتْ موجة دم منابت شعرها، واهتز قلبها هزة بسيطة، وابتلعت ريقها وردت:

. أهلًا حضرتك.

رنين صوتها أعجب أشرف الذي واصل بثقة:

ـ لو تكرمتِ حضرتك، أرجو تشريفي بأن تتناولي معي فنجان قهوة، أنا أنتظر تشريفك في «مطعم الطاووس» الذي على نيل الزمالك، تعرفينه حضرتك.

شعرت ليلى بالقلق من رنة الثقة التي في صوت الضابط، ففكرت سريعًا في الخيارات المتاحة أمامها: أن تبلغ أحدًا من قيادات



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

«كفاية» بالاتصال ثم تذهب لمقابلة الضابط، ولكن عيب هذا الخيار أن الهواتف يقينًا ستكون مراقبة، وسيعلم الضابط باتصالها، وهذا قد يعقد الأمر الذي لا تعرف له رأسًا من قدمين؛ الخيار الثاني أن تذهب إلى اللقاء وليكن ما يكون، على الأقل ستجرب شجاعتها لأول مرة في مواجهة الجهاز؛ الخيار الثالث أن تعتذر بلطف حتى تدبر أمرها. وقد ارتاحت للخيار الأخير، فقالت للضابط:

ـ الحقيقة أنا أعتذر لحضرتك لأن وقتي ضيق ولديَّ ارتباطات أسرية غاية في الأهمية.

سارع بمقاطعتها قائلًا:

ـ أرجوكِ يا آنسة، لقائي أهم من أي ارتباط ويجب أن يتم بعد أقل من نصف ساعة. وعمومًا هو لن يستغرق أكثر من عشر دقائق.

انتبهت ليلى إلى نبرة الحسم التي في صوته، فتلبستها دون وعي منها رعونتها التي تعرفها في نفسها فردت بحدة:

ـ اسمع حضرتك، ليس هناك شيء اسمه «يجب» وشيء اسمه «مهم»، أنا التي أحدد مواعيد يومي، ولن تراني إلا عندما أريد أنا رؤيتك.

بهدوء حاسم رد أشرف:

ـ وأنتِ أيضًا اسمعي يا آنسة، أنا لا أريد الخروج عن قواعد اللياقة معك، ولكن لو دفعتني لذلك فأنا معذور. أنا أعرف أين تقفين وأنت تردين على اتصالي، وأستطيع بإشارة إصبع جلبك إليَّ حيث أجلس. لن أفعل هذا تقديرًا لذكرى المرحوم والدك الكريم، المهندس عمر، وتقديرًا لشقيقيك طارق وسعد.

مزيج من الغضب والخوف والرعونة عكر دم ليلى، التي ردت بصوت مرتفع:

ـ ماذا تريد مني؟



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أجابها أشرف:

.كل الخير طبعًا. هناك موضوع يخص عائلتك أريد مناقشته معك أولًا، على أن يكون ما سنقوله طي الكتمان حتى نجد حلًّا للموضوع.

بخوف حقيقي سألت ليلى:

.أي موضوع؟

بنفاد صبر أجابها:

.آنسة، ليس من عاداتنا الحديث في الهواتف، أرجو ألا تتأخري، فوقتي أضيق مما تظنين وارتباطاتي غاية في الأهمية، لأنها تخص الدولة وليس عائلتي. أنا في انتظارك.

انتهت المكالمة وظلت يد ليلى اليمنى قابضة على هاتفها. توجهت إلى حيث تقف سيارتها أمام مقر عملها، صعدت إلى السيارة ثم بدأت تبحث عن هاتفها. تخلصت من شيء يعوق يمناها عن فتح حقيبة يدها حيث تضع الهاتف عادة، لم تجد الهاتف. غادرت السيارة ونظرت أسفلها، لعله يكون قد سقط منها أرضًا فلم تجده. عادت ودخلت السيارة ونظرت أسفل مقعد القيادة فلم تجد الهاتف. عادت ورفعت الحقيبة فوجدته تحتها، وتذكرت أنها هي التي تخلصت منه.

تأكدت ليلى أن اتصال الضابط قد شتتها، فهذه هي المرة الأولى في حياتها التي تحادث فيها ضابطًا، ثم هو ليس أي ضابط، إنه من الجهاز الذي تسمع عنه الأساطير، ثم هو كما قال يريد مناقشة أمر يخص عائلتها، هل كلامه فخ؟

ولكن لماذا يلجأ إلى الفخاخ وهو يستطيع اختطافها؟ لقد جرى خطف كثيرين من «كفاية» ومن غيرها من فصائل المعارضة، وهي ليست أهم من هؤلاء.

انتبهت ليلى إلى أصوات أبواق سيارات تطالبها بالتحرك، فأدارت السيارة وسارعت على غير هدى، تفكر في الموضوع العائلي الذي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يريد الضابط مناقشته معها.

هل الأمر يخص شقيقيها، أم ميرفت، أم واحدًا من عائلة جدها الحاج مسعود، أم واحدًا من عائلة أبيها، أم...؟

اللجوء إلى مالك الآن مستحيل، فإن لم يكن هاتفه مراقبًا فسوف تعطيه فرصة الصراخ في وجهها بعد أن تبين أنه محق في مخاوفه.

اللجوء إلى شقيقيها أمر غاية في التعاسة، إن أقرب اتصال تم بينها وبينهما مضى عليه أكثر من شهر، وكان اتصالًا باردًا جرى حول السؤال عن الصحة والأحوال.

دون وعي تناولت ليلى زجاجة المياه وشربت أكثر من نصفها ثم أشعلت سيجارة وحادثت نفسها بصوت تسمعه: «لماذا أنا مرتبكة وخائفة هكذا؟ قد يكون صعلوكًا يريد هدية قيمة من محلات أبي، وحتى لو كان طاغية فأين ذهب كلامي عن التضحية وضرورة التصدي للطغاة؟».

عندما أنهى أشرف الاتصال بليلى كان الانقباض قد رحل عن كونه. العالم الآن يظهر له مبتهجًا ومزخرفًا بكل ألوان الطيف. كانت فكرة عظيمة حقًّا أن يرى ليلى خارج مقر الجهاز، هنا نيل وخضرة وسماء صافية مشمسة، وخدم بيض البشرة رهن إشارة من إصبعه. ابتسم لعظمة أبيه لأنه يعرف أن صاحب الجلالة، الحاج عاصم، يمتلك الأرض التي أقيم عليها المطعم ويدخل إلى خزانته نصف إيراده.

تمطى أشرف كما لم يتمطَّ منذ زمن بعيد. ملف ليلى وصورها فوق المنضدة وتحت عينيه مباشرة، وليلى قادمة لا شك في ذلك، إنها تمشي على قلبه . هل هي على قلبه أم في قلبه أم إلى قلبه؟

تمنى أشرف لو كان يعرف الفرق بين تلك التعبيرات، تمنى لو تدوم هذه اللحظات إلى الأبد، سيفه لم يعد قطعة جلد ميتة بنية اللون، إنه يشعر به كما في الزمان الأول . آه الزمان الأول . زمن

95%
الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التهيؤ لخطبة بثينة، عندما كان ينتظرها بداخل سيارته، وعندما تهل من بعيد تسري الراحة والنشوة في عروقه!

ستأتي ليلى وسيلاطفها وستخر ساجدة شاكرة لأن أشرف باشا العمري، ابن الحاج عاصم العمري، يستلطفها فتحبه، ثم يخطبها فتعشقه، ثم يتزوجها فتعبده.

قال أشرف لنفسه: «سأصبح عريسًا لذات اللسان الأحمر، سأريها ملكوت اللذة، هي وأهلها سيضعون حذائي فوق رؤوسهم، ستصبح بثينة كالأرملة أزورها لكي ألقي في وجهها بنفقات الشهر، لن أطلقها ولو هبطت السماء على الأرض، ستذوق المذلة قطرة قطرة، وستهجر عطرها، وستصبح فيلًا أبيض نتن الرائحة، بينما أكون أنا هناك فوق ليلى الزعيمة».

عندما دخلت ليلى إلى بهو صالة قاعة المطعم الرئيسية، وجدت المناضد جميعها مأهولة بأصدقاء وأسر وأزواج. هي تعلم أن سيف الدين بك لا بد أن يكون جالسًا بمفرده. أشارت إلى نادل وبعد أن نطقت حرف السين من «سيف» أخبرها النادل أنه ينتظرها في حديقة المطعم بجوار السور.

ليس لدى ليلى الآن رفاهية تأمل المكان، الذي لو تأملته لكرهته منذ النظرة الأولى، فكل ما به يلمع بسوقية تدمر أعصابها.

خطت ليلى على نجيل الحديقة الطبيعي ورأت رجلًا يجلس منفردًا بجوار السور المطل على النيل مباشرة. رآها الرجل فهب واقفًا، فبدا طويلًا جدًّا.

عندما تحققت ليلى من ملامحه قُبض قلبها، هو أطول مما تحب أن يكون عليه طول الرجال، وشعره أشد سوادًا من شعور الرجال، وبشرته بيضاء، ذلك البياض الذي تنفر منه في الرجال، أما لحيته فملساء ناعمة كأنه صبي أمرد، وهذا ما لم تطقه ليلى قط، فالرجل عندها لا بد أن يكون على مثال أبيها ومالك، لهما لحيتان خشنتان لا حليقتان ولا طليقتان.

أما حاجباه الطويلان فلا حول ولا قوة إلا بالله، هل يستخدم



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفتلة أم حلوى مزيج الليمون والسكر في تهذيبهما؟

ما هكذا تكون حواجب الرجال، حاجبا مالك حنونان قويان، يتحدى شعرهما الذي بلون الفلفل والملح مرور الزمن.

سارع الطويل الأبيض الأمرد ومد يده الناعمة وصافح ليلى، ثم قرب إليها مقعدًا فجلست، محاولة عدم النظر إلى وجهه.

سريعًا جاء النادل، فطلبت ليلى قهوة سادة، فانتهز أشرف غرابة مشروبها وبدأ حديثه قائلًا:

. آنسة مثلك تشرب قهوة سادة؟ لمن إذن خلق السكر؟

لم تستملح جملته فردت باقتضاب:

. أنا لا أحب السكريات.

سلط عينيه على عينيها ثم قال:

ـ أبدأ بأن أقدم اعتذاري عن هذا اللقاء العاجل، ولكن ما بيدي حيلة. ثم أعتذر عن اسمي الملفق، اسمي الحقيقي هو أشرف عاصم العمري، ولست نقيبًا، أنا عقيد، ولكنك تعرفين ضرورات العمل. طبعًا سمعتِ بأبي، الحاج عاصم العمري، وهو وكل عائلتي من زبائن الوالد رحمه الله، ثم أصبحنا من زبائن شقيقيك طارق وسعد، وهما . باركهما الله . من رجال الأعمال الذين ينفقون أموالهم في وجوه الخير، كما أنهما غاية في الوطنية بدعمهما السخي لنشاطات الحزب.

اقشعر جسد ليلى وهي تسأل بحدة:

. هل طارق وسعد يدعمان الحزب الوطني؟

تجاهل أشرف حدتها ورد:

. هما، كما قلت، غاية في الوطنية والعقل، ويعرفان دور الحزب في حماية البلد.

جاء النادل بالقهوة فلم تقربها ليلى وسألت:

96%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

. أشرف بك، ما الموضوع الذي ستطرحه عليَّ؟

بلباقة رد:

. موضوع خير بإذن الله، بل هو كل الخير.

زفرت ليلى وقالت:

. أرجو الدخول في الموضوع فورًا لأن لديَّ ارتباطات، كما أنني لم أعتد الجلوس مع غرباء.

ضحك أشرف وقال:

. يعني هل كل قيادات وأعضاء «كفاية» من أقاربك؟ أنت هكذا تعترفين على عائلتك يا آنسة.

مسحت ليلى وجهها بكفها وقالت:

. «كفاية» ليست تهمة، وانتمائي إليها معروف. أرجوك تكلم.

تجاهل أشرف جملتها، لأن طريقتها في الحديث كانت تضخ دماء إضافية لدمائه التي تجري في عروقه. نظر إليها وقال:

. على ذكر «كفاية»، ما هذا الخاتم الذي تضعينه حول إصبعك، ابنة الجواهرجي الكبير تلبس خاتمًا من غلاف الشوكولاتة؟

ابتسمت ليلى بامتعاض وقالت:

. لا تشغل بالك، اعتبره طيش بنات.

انتهز أشرف الجملة وقال:

. ولكن لطيش البنات حدودًا، واحدة مثلك ولها عائلة مثل عائلتك، ما الذي يرميها في حضن جماعة من الرعاع؟ هل تعرفين كيف وصلتُ إليك؟ بمعونة واحد من قيادات «كفاية». أعرف أن كلامي يضايقك، ولكن الصراحة واجبة في كل الأحوال. إنهم، يا آنسة، يستغلون مالك وشبابك واسم عائلتك، رعاع يطاردون وهمًا مستحيلًا. سيادة الرئيس باقٍ يا آنسة، وابنه الأستاذ جمال لا



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طموحات سياسية لديه، «كفاية» وغيرها تصنع أكذوبة اسمها «التوريث»، وتصدقها وتروجها.

من عيوب أشرف التي لا يعرفها عن نفسه، أنه فقير جدًّا في معرفته بالنساء، فليس في حياته سوى امرأتين، أمه وبثينة، إضافة إلى أن ثقافته تكاد تكون مقتصرة على معرفته بأمور العمل، ولهذين السببين هو لن يعرف أن ليلى، بقرون استشعارها الأنثوية، قد قرأت ملامح وجهه وارتعاش شفتيه وسعي يمينه للمس أصابع يمينها بطريقة تبدو عفوية جدًّا بينما هي مقصودة لذاتها.

انقسم وعي ليلى إلى نصفين، نصف خف عليه أشرف حتى كأنه ريشة تتقاذفها الريح، والنصف الثاني تكدس الخوف على طرقاته. إنها الآن أمام الجهاز، المبتسم والقاتل، الذي له ظاهر وباطن، الجهاز الكذاب المراوغ الذي يستطيع فعل أي شيء تحت ستار حماية الوطن.

رشفت ليلى رشفة من كأس الماء لا من فنجان القهوة، وقالت:

ـ سيادة العقيد، سبق لي وأن ذكرت لحضرتك ضيق وقتي فأرجوك تحدث في موضوعنا، لأننا لن نتفق في السياسة.

أُعجب أشرف برنين كلمة «نتفق»، فقفز في الحوار قفزة حسبها هو عظيمة وقال:

. بالعكس، أنا وأنتِ لا بد أن نتفق.

أخافتها كلمته فقالت:

. ولماذا يجب أن نتفق؟

بكل الرضا الذي يملأ جوفه رد أشرف:

. لأننا سنصبح أهلًا.

هل كان أشرف يتلمظ عندما نطق بكلمته الأخيرة؟ نعم، كان يتلمظ. ليلى لم تخدع عينيها قط، ولم تكذب قط قرون



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

استشعارها. هو يتلمظ والحوار يمضي إلى طريق بشع مخيف. ما الذي يريده هذا الأمرد مشوه الحاجبين؟

لكي تحصل على إجابة عن سؤالها، استعانت ليلى ببركة لحظات أبيها التاريخية الفارقة. هي الآن تعيش واحدة منها، ولذا سألت بهدوء لا يعكس ما بداخلها من غليان وخوف ونفور:

. أريد مزيدًا من الإيضاح.

لهجة ليلى غريبة على أذني أشرف، لهجة ليس بها خضوع أو تذلل أو نفاق، هذه اللهجة تثيره كأنها قمصان نوم بثينة القديمة. كان أشرف يشتهي أن تتكلم ليلى الزعيمة كثيرًا، فمع كل كلمة تخرج من فمها كان دمه يتجدد، ولكنه لا يريد أن تنفر منه أو تستخف به، ولذا فقد قال بعد لحظة صمت قصيرة:

. من حكم سيادة الرئيس التي أحبها قوله: «إن أقصر طريق بين نقطتين هو الخط المستقيم». وسأختصر معك الطريق.

قاطعته ليلى:

. هذا ما أرجوه منذ حضرت.

رد أشرف بابتسامة:

. لقد عرفتِ من أنا، وأنا أعرف منذ زمن بعيد من أنتِ، ولكن الذي لا تعرفينه هو أنني شديد الإعجاب بك، وهذا الإعجاب هو الذي جعلني حريصًا على إنقاذك من أيديهم مرات كثيرة لم يحن بعد أوان الإفصاح عنها. تستطيعين القول بأنني ملاكك الحارس أو شبحك الحارس، لأني لم أظهر في حياتك إلا اليوم. المظروف الذي فوق المنضدة به ملفك كاملًا، صورك وتسجيلات مكالماتك ورسائل هاتفك، هنا ليلى منذ كانت طالبة في الجامعة وإلى لحظة تشريفها لي بالحضور. في ختام جلستنا سألقي بالملف لأسماك النيل.

لا تعرف ليلى كيف روضت الخوف الذي احتلها وجعلته يظهر على هيئة ابتسامة أسى على شفتيها، فقاطعت أشرف قائلة: 97%

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

. هل هذه مساومة أم مقايضة أم إنني لم أفهمك جيدًا؟

بهدوء عظيم رد أشرف:

. لا مساومة ولا مقايضة، هو فقط لفت نظر.

قالت ليلى:

. سيادتك قلت إنك ستسلك طريقًا مستقيمًا، ولكنك لم تسلكه بعد.

فرح أشرف بتعجلها، فهذا يعني لديه أنها تريد حسم الموقف، فقال:

. اسمحي لي بأن أزوركم غدًا لطلب يدك.

لم تعد ليلى بحاجة إلى التخمين والحدس وقرون الاستشعار، فها هي جثة الحقيقة البشعة أمام عينيها.

باغتت أشرف بأن فتحت حقيبة يدها وتناولت علبة سجائرها وأشعلت سيجارة نفثت دخانها بقوة في الهواء وهي تقول:

. هل تعرف أنني مدخنة؟

رد وقد بدأت رائحة السيجارة تضايقه:

. أعرف عنك ما لا تعرفينه عن نفسك.

رمته بنظرة زلزلته وقالت:

. أشرف باشا، أشعر أن لديك مشاكل من نوع ما، فاحصل على حلها بعيدًا عني.

سيطر على الزلزال الذي أحدثته نظرتها الوقحة وقال:

. أي مشاكل تقصدين؟

قالت:



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

. هل هذه مساومة أم مقايضة أم إنني لم أفهمك جيدًا؟

بهدوء عظيم رد أشرف:

. لا مساومة ولا مقايضة، هو فقط لفت نظر.

قالت ليلى:

. سيادتك قلت إنك ستسلك طريقًا مستقيمًا، ولكنك لم تسلكه بعد.

فرح أشرف بتعجلها، فهذا يعني لديه أنها تريد حسم الموقف، فقال:

. اسمحي لي بأن أزوركم غدًا لطلب يدك.

لم تعد ليلى بحاجة إلى التخمين والحدس وقرون الاستشعار، فها هي جثة الحقيقة البشعة أمام عينيها.

باغتت أشرف بأن فتحت حقيبة يدها وتناولت علبة سجائرها وأشعلت سيجارة نفثت دخانها بقوة في الهواء وهي تقول:

. هل تعرف أنني مدخنة؟

رد وقد بدأت رائحة السيجارة تضايقه:

. أعرف عنك ما لا تعرفينه عن نفسك.

رمته بنظرة زلزلته وقالت:

. أشرف باشا، أشعر أن لديك مشاكل من نوع ما، فاحصل على حلها بعيدًا عني.

سيطر على الزلزال الذي أحدثته نظرتها الوقحة وقال:

. أي مشاكل تقصدين؟

قالت:



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

. هذا مجرد إحساس قد يكون صوابًا وقد يكون خطأ، ولكن في كل الأحوال فأنا أعتذر عن عدم قبول عرض سيادتك.

التعاسة كلها كانت تحتل كيان أشرف، الذي ظهر له أنه قد أسرف في التمني وبالغ في إمكانية تحقيق أحلامه. قوَّس ظهره قبل أن يقول:

. الأمر أكثر تعقيدًا مما تظنين بمراحل، وأنا أريدكِ على سنة الله ورسوله ووفق أي شروط تملينها أنت أو أهلك. أرجوكِ تريثي.

قرون استشعارها عادت إلى العمل، وأكدت لها بأن أشرف الجالس أمامها الآن ما هو إلا قمة جبل ثلج أشرف الحقيقي الذي تركه خلفه في مقر الجهاز.

أشعلت ليلى سيجارة ثانية وقالت:

. كما سمعت كلمة الرفض الآن ستسمعها بعد مائة عام، فلا تغضب ولا تكترث، مئات الآلاف من الجميلات يتمنين نصفك.

قحبة «كفاية» المدخنة العاهرة ترفضه، ترفض أشرف باشا، ابن الحاج عاصم العمري، ترفضه وهي لا تعلم أنها وفمها بلسانه الأحمر سيكونان ملك يمينه طال الزمان أم قصر.

عاد أشرف بظهره إلى الخلف لكي يستوعب ما سمعه، ثم اعتدل وقال:

. أعاني من مشكلة رهيبة يا آنسة ليلى، بعضهم يظن أنني أهدد عندما أتحدث جادًّا وعاقدًا العزم على تنفيذ ما أقول، أنا لست عنيفًا ولا أحب العنف بطبعي، ولكن ما أريده أحصل عليه. في يوم ما ستعرفين أنني قدرك وأنك قدري، والعاقل هو الذي لا يناقش القدر، مساء الغد سأكون في بيتكم، وستكونين لي.

كانت ركبتا ليلى ترتعشان وهي تقف وتلقي النظرة الأخيرة على أشرف، فتراه مخيفًا مثل لحظة موت وحوش الأساطير. إنه مخيف وبشع من كل جانب وجهة.



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا تعرف ليلى كيف وصلت إلى سيارتها وكيف قادتها في زحام شوارع الزمالك، بينما شمس الخميس قد غابت وأرسل المساء برده القارس.

لا تريد ليلى من الدنيا الآن سوى مالك، مالك الحبيب الحكيم، كان محقًّا وهو يحذرها من الجهاز، الجهاز الذي لا يسيطر على نظرات اشتهائه لجسدها كأنه عجوز خصي يشتهي جارية راقصة.

تناولت هاتفها ودون تفكير أو تردد هاتفت مالك قائلة:

. انتظرني بعد قليل في ميدان الرماية.

الشعب الذي يزحم الشوارع لا يشعر بها، أمها بعيدة جدًّا، أبوها الحبيب مات، ذهب ولن يعود، شقيقاها المتبرعان للحزب سيبيعانها رغم أنفها. الحرب بدأت، نعم بدأت، أشرف لا يهدد ولا يتودد، إنه يلقي أمرًا إلهيًّا لا يقبل نقاشًا، هي تحت هذا الأمرد، هي بدون «كفاية» وزملاء ورفاق، هي بدون حلم، هي بدون أمل، هي بدون مالك تحت أمرد ينتف حاجبيه في أوقات فراغه من القتل.

من بعيد رأت مالك يقف على جانب الطريق والقلق يأكله، فسارعت في الوصول إليه. هبطت من سيارتها واندفعت، غير مبالية بشيء إلا حضنه، وتفجرت دموعها ممتزجة بصراخها:

. لا، هذا لن يكون! لا، هذا لن يكون!

بمشقة سيطر عليها مالك وأدخلها إلى السيارة وجلس هو على عجلة القيادة. هو الذي لم يقد منذ ترك سيارته الخاصة لمحاسن والأولاد. وانطلق على طريق مصر. إسكندرية الصحراوي وهو صامت كأنه نسي الكلام، وعيناه تسترقان النظر إلى ليلى الباكية، التي يتمنى لو يستطيع أن يخبئها تحت جلده فلا يصل إليها سوء أو شر.

بعد عبور البوابات أوقف مالك السيارة وقال لليلى:



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بصوت أضاع البكاء رنينه ردت ليلى:

. أبشع كوابيسك تحقق، لقد وصل إليَّ الجهاز، وعقيد منه سيزور أهلي غدًا ليطلب يدي، هو قالها بلسانه: «ستكونين لي».

قد يكون توقُّف قلب مالك عن النبض هو الذي دفعه إلى احتضان ليلى. احتضنها لكي تهدأ ولكي يعود النبض إلى قلبه، وعندما شعر بأنه لا يزال على قيد الحياة قال:

. لا أريد الآن سماع المزيد، أنا معك ولن أتركك لكلاب جهنم.

تشبثت ليلى بحضنه وهي تقول:

. ليس أمامنا الآن سوى الهروب، سنهرب إلى الصحراء التي تحبها، سنتزوج ونرتاح قليلًا، ثم نعود معًا لمواجهة أشرف.

الأربعاء ٢ أبريل ٢٠١٤ - الأربعاء ٢٣ مارس ٢٠١٦



الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner